ف فلسفة

رسائل فارسية

تأليف: مونتسكيو



كمال يونس   مراجعة: عبد الحميد الدواخلي

رسائل فارسية

دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
ص . ب . ١٣ المقطم - القاهرة
فاكس : ٥٠٦١٠٣٠
٣٥ ش محى الدين أبو العز
ت ٣٤٩٧٧٧٩ - ٣٤٩١٧٢٧

رقم الإيداع : ٤٠٣٣ / ١٩٩٢
I.S.B.N. 977 - 00 - 3313 - 8

الطبعة الثانية
١٩٩٢

الاشراف الفنى : حلمى التونى

رسائل فارسية

تأليف : مونتسكيو

ترجمة : أحمد كمال يونس

مراجعة : عبد الحميد الدواخلى

هذه ترجمة كتاب :

Lettres Persanes.

تأليف :

Montesquieu.

مقدمة

مونتسكيو فى الميزان

لقد كان حديثه أشبه بهيئته المتواضعة ، وشخصيته الحرة . وكان قوامه حسن التقسيم . وبالرغم من أن إحدى عينيه تكاد تكون معدومة ، والأخرى بالغة الضعف ؛ فإن الإنسان لايلحظ ذلك مطلقا . وكانت قسمات وجهه تجمع الرقة واللطف معاً .

وكان شديد الإهمال لزية ، يستخف بماوراء النظافة ، ولا يلبس إلا أيسر المنسوجات لا يحلّيها شئ من ذهب أو فضة ، وكان كذلك بسيطا فى مائدته وسائر شئونه .

هكذا تحدث عنه ومدحه

موبرتويس Maupertuis

وقالت عنه مدام شولنى (M^{me} Choulnes) : لقد أخرج حديثاً كتابه عن المجتمع (......) ولم يتحدث إلا إلى الأجانب الذين يعتقد وأنه قد يستفيد منهم بعض الفائدة .

وتحدث عنه دار چنسون (D'Argenson) فقال : لم يتألم مونتسكيو من أجل إنسان . ولم يكن له هو أى مطمع . وإنما قرأ ، وساح ، وجمع المعارف ثم كتب . وما فعل ذلك إلا لمتعته . ولما كان صافى الروح عميق التفكير فإنه عبّر تعبيراً ساحراً عن كل ما عرف ، لكن روحه شاعت فى كتبه ، أكثر مما كانت فى أحاديثه ؛ لأنه لم يكن يبغى الشهرة كما لايحبّ أن يسلم نفسه إلى متاعب . وقد احتفظ بلهجته الجاسكونية التى أخذها عن موطنه الأصلى وكان يرى فوق طاقته أن يصلح هذه اللهجة .

آراء فى الرسائل الفارسية

فى القرن الثامن عشر :

قال ڤولتير فى كتابه إلى لام . دى سيدڤيل (Am. de Cideville) فى ٢٦ من يولية سنة ١٧٣٣ :

هل هناك أقوى من الرسائل الفارسية ؟ أو هل هناك كتاب كتب مثله عن الحكومة والدين من غير شئ من الرعاية أو المداراة ؟

وكتب ڤولتير أيضا إلى ام . سوران (Am. Saurin) سنة ١٧٦٨ فقال : لقد أجهد مونتسكيو نفسه فى الحط من شأن الشعراء – فى الرسائل الفارسية . وكأنه أراد أن يهدم عرشا لم يستطع أن يتبوأه . لقد أهان المجمع الفرنسى فى قسوة مع أنه طالما ألح أن يكون له مكان فيه . وفى الحق أن له أحيانا خيالا شائعا فى التعبير ، وهذا فى رأيى أهم ما يستوجب التقدير .

وقال دالمبير (D'Alembert) فى الثناء على مونتسكيو : فى هذا النوع من الصور الحية عرض لنا إزبك - بوجه خاص - وفى خفة وحرارة ما استرعاه عندنا مما نفذت إليه عيناه مثل : عادتنا فى معالجة الأشياء التافهة جادين ، وقلبنا الأمور الهامة مزاحا وأحاديثنا الصاخبة البالغة فى التفاهة ، وضيق صدورنا فى مجال المرح وأقيستنا وأفعالنا التى تناقض دائما علمنا وحبنا للمجد مشفوعا باحترام المنفعة الذاتية ، وملقنا الوضيع الذى لافائدة منه ، وتظاهرنا بالأدب مع الأجانب مع احتقارنا لهم أو تصنعنا التحبب إليهم ، وغرابة أذواقنا التى لا يفوقها غرابة إلا مسارعة أوربا كلها فى الأخذ بها ، واحتقارنا أجدر الأعمال بالاحترام وتشغل مواطنينا : وهى التجارة والتشريع وجدالنا الأدبىّ الحارّ الذى لاطائل تحته ، واندفاعنا فى الكتابة دون رويّة ، وحكمنا على الأشياء قبل اختبارها

وفى خطبة لموبرتوى (Maupertuis) أمام المجمع الملكى للعلوم فى برلين سنة ١٧٥٥ (٥ من يونية) ، قال :

أما أسلوب الرسائل الفارسية فأسلوب حىّ ، تشع أضواؤه وهذه الصفات جعلت كثيرا من الناس فى عصرنا الحاضر يعتبرونها أساسا للتقدير فى هذه المؤلفات الملأى بالروح والفكر . ولو لم تكن هذه الصفات أساس تقديرها لما لقيت ما لقيته من نجاح تستحقه ؛ فلم ير الناس أبدا فى كتاب آخر هذا المقدار من الحكمة الممزوجة بالمتعة ، والمعانى الكثيرة المركزة فى ألفاظ قليلة . وبعد أن نرى منه هذه الآثار القيّمة لعقل ممتاز لا

نستطيع أن نقول إن مونتسكيو كان فيلسوفا سطحيا ، بل إننا نجد فى هذه العقلية الرائعة فيلسوفا عميقاً .

وقال جان جاك روسو (J.J. Roussau) حين كتب إلى السيد مولتو (Moultou) فى ٢٥ من نوفمبر سنة ١٧٦٢ :

عندى ما أنصح لك بأن تقرأه : إنها الرسائل الفارسية ، إنها مطالعة ممتازة لشاب ناشئ فى أول عهده بالكتابة ومع ذلك فسنرى فيها بعض أخطاء لغوية .

وقال لا هارب (La Harpe) فى كتابه فلسفة الثامن عشر فى المجلدين الأول الثانى سنة ١٧٩٩ :

كثير من هذه الرسائل معالجات هينه للسكان ، والتجارة ، والقوانين الجنائية ، والقانون العام ، (.......) والتهكم كان السلاح الذى يستخدمه فى كل الأحوال ، حتى ضد محكمة التفتيش بل إنه إذذاك يزداد تهكّمه مرارة لينقص من هيبة هذه المحكمة .

فى القرن التاسع عشر :

وقد تحدث م - ج شينير (M. J. Chenier) فى كتابة (لوحة فى تاريخ الآداب الفرنسية) فى الجزء السادس سنة ١٨١٦ فقال :

إن الرسائل الفارسية أثر جليل وإن بدا تافها ، فقد أحاط قصصه بإطار من السخرية ، والسخرية سلاح ماض فى يد مونتسكيو يحقق به

فلسفته .

وقال ڤيلمان (Villemain) فى كتابه دراسة فى الآداب الفرنسى سنة ١٨٢٨ :حاكي مونتسكيو (فى الرسائل الفارسية) أو ساوى لابروبير (La Bruyére) فى ذكائه اللاذع فى تصويره للشخصيات ، وفى الإغراق فى السخرية وفى قوة الإفصاح عن الأخلاق . كما حاكى پسكال (Pascal) فى تعبيره القوىّ الحاد ، ذى الطابع الجذّاب الذى امتاز به عصر غير عصرنا ، وفى تشككه الشاذ ، وخياله المرهف الذى انفعلت به نفسه . . . فالطابع السائد فى هذه الرسائل الأبيقورية الساخرة هو دراسة السياسة ، وفلسفة التاريخ وهى دراسات جديدة فى فرنسا . . .

*ويمكن أن ندرك مدى النجاح الباهر لكتاب كهذا ظهر بعد موت لويس الرابع بست سنوات ، فى فرنسا المرحة القلقة المنهارة فى عصر الوصاية . وقد تناول فيها بروح فكهة طرائف وحقائق لاذعة ، ونقد طريقة لو (Law) وفئة من رجال الدين ، وصالونات الأدب فى باريس والسياسة الأوربية .

وقال سانت بيڤ فى حديث الاثنين (١٨٥١ - ١٨٥٧) :

فى الرسائل الفارسية أخذ مونتسكيو الشاب يلهو ويلعب ، وكان الجدّ فى لعبه ، ومعظم أفكاره بدت كنبت لما ينضج ، أو بعبارة أخرى نبت أخذ يتطوّر : فكان فى أول أمره أقل نضجا مما صار إليه أخيرا ثم نضج شيئا فشيئا : لأنه احتفظ بمعظم أفكاره ، لكنه فى مؤلفاته التى جاءت بعد ذلك كان على حال أخرى ، فقد فكر فيها على نسق آخر ، ولم يتكلم

فيها إلا جادا شاعرا شيئا فشيئا بعظمة المجتمع ، راغبا فى تمجيد الطبيعة الإنسانية .

وكتب جوستاف لانسون (Gustave Lanson) فى كتابه تاريخ الأدب الفرنسىّ سنة ١٨٩٤ ، فقال :

لقد كان مونتسكيو خير من سخر من الفضول التافة عند الباريسيين البلهاء ومن الأحاديث السفسطائيه البراقة عند الطبقة الراقية ، وأشار إلى تبرج النساء وتدللهن ، وإلى الصور المختلفة من الخيلاء والزهو فى المجتمع .

وليس فى الرسائل الفارسية ظلّ لدراسة نفسية عميقة ، ولكن بها قطعا خطيرة (...) ففيها عبارات شديدة الوطأة على رجال المالية (....) كما شهّر بالإفراط فى امتيازات الأشراف ، كما فضح الجشع الذى لا يقنع عند رجال البلاط ، وأبدى رأيه عن الشئون الجارية ، ونقد طريقة لو (Law) . لكنه هاجم بوجه خاص حكم لويس الرابع المطلق فقد كان أشد مقتا لهذا النظام من سان سيمون (Saint-Simon) وقد عرض كيف أن الملكية تنحط إلى جمهورية ، أو حكم مطلق ، وقد فصّل من قبل نظريته عن السلطات التى تتوسطهما .

أحمد كمال يونس

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

صفحة

الرسالة الأولى

من أوزبك إلى صديقه روستان بأصفهان

لم نمكث إلا يوما واحدا فى مدينة « قم » بعد أداء صلواتنا على قبر العذراء التى أنجبت اثنى عشر رسولا .

وصلنا أمس إلى مدينة « توريس » وهو اليوم الخامس والعشرون لرحيلنا من أصفهان .

ربما كنت أنا وصديقى ريكا الوحيدين من أبناء الفرس اللذين أخرجهما من ديارهما حبّ المعرفة ، ورغبا عن حلاوة العيش فى حياة هادئة ليبحثا جاهدين عن الحكمة .

لقد ولدنا فى مملكة مزدهرة ، ولكننا لا نؤمن أن حدودها هى حدود المعرفة لنا ، كما أننا لا نؤمن أن حكمة الشرق وحدها هى التى تهدى سبلنا .

أرجو أن تقصّ علىّ ما قيل عن سفرنا ، ولكن دون أن تجاملنى ، لأنى لا أعوّل على كثير من المستحسنين له . أرجو أن تعنون ردّك على مدينة أرضروم التى سأمكث فيها بعض الوقت .

أستودعك الله ياعزيزى روستان ، وتأكد أننى أينما كنت صديقك المخلص ؟

من توريس — ١٥ من شهر صفر سنة ١٧١١ .

الرسالة الثانية

من أوزبك إلى كبير الخصيان فى سراى أصفهان

إنك الحارس الأمين على أجمل نساء فارس. لقد وضعت بين يديك فى ثقة أغلى ما أملك من الدنيا. إنك تحمل بين يديك مفاتيح هذه الأبواب العزيزة المنال والتى لا تفتح إلا لى. وما دمت الساهر على حراسة هذا المستودع الذى يحوى ما أضن به من نفائس، فإن قلبى يستريح، ويستمتع بأمن تام: إنك تقوم بالحراسة فى سكون الليل، وصخب النهار، ولا تكل عن مساندة الفضيلة إذا ترنحت، وتعيد إلى نساء القصر صوابهن إذا حاولن الخروج على واجبهن. إنك قاهر الرذيلة وعماد الأمانة.

إنك تأمرهن وتطيعهن وتنفذ لهن رغباتهن فى خضوع تام كما تحملهن فى الوقت نفسه على تنفيذ شرائع القصر. إنك تحس فخرا إذا أديت إليهن أتفه الخدمات، وتخضع نفسك فى احترام وخشية لأوامرهن المشروعة، وتخدمهن كأنك عبد لعبيدهن.

أما سلطانك عليهن فإنك كسيد تسوسهن مثلى إذا خشيت أن يفلتن من قوانين الحياء والاحتشام.

تذكر دائما أنك لم تكن من قبل شيئاً مذكورا، حين كنت أحط عبيدى، وأنى وضعتك فى هذه المكانة، وائتمنتك على نعيم قلبى.

الزم فى خضوع تام باب أولئك اللاتى يقاسمننى المحبة، ولكن أشعرهن دائما بتبعيتهن التامة لسيدهن. قدم لهن كل أنواع الترف البرىء

لإبعاد الضجر عنهن : رفه عنهن بالموسيقى والرقص والمشروبات اللذيذة وشجعهن على الاجتماع معا . وإذا رغبن فى الذهاب إلى الريف فاصحبهن إليه ، ولكن مر بقتل جميع الرجال الذين يبرزون لهن . حثهن على النظافة لأنها دليل نقاء الروح ، وحدثهن عنى من آن لآخر .

إنى مشتاق لهن فى هذا المكان الجميل الذى يزدان بهن . . وداعا .

من توريس فى ١٨/ من شهر صفر سنة ١٧١١ م .

الرسالة الثالثة

من زكى إلى أوزبك بمدينة توريس

لقد أمرنا كبير الأغوات أن يصحبنا إلى الريف ، وسيخبرك أنه لم يحدث ما يعكر الصفو ؛ فقد نزلنا من هوادجنا ـ عندما أردنا عبور النهر ـ ودخلنا كعادتنا فى صناديق مغلقة ، وكان يحمل كلا منا عبدان ، وبذلك أمنّا الأنظار أن تقع علينا .

كيف يتسنى لى أن أعيش ياعزيزى أوزبك فى قصرك بأصفهان ، فى الأماكن التى تذكرنى دائما باللذات السالفة ، وتهيج كل يوم شهواتى فى جموح متجدد . أهيم من جناح إلى آخر باحثة عنك دون جـــدوى ، ولا أجد إلا ذكريات قاسية لهناءتى الماضية : فتارة أرانى فى هذا المكان الذى شهدنى وأنا أضمك فى أحضانى لأول مرة فى حياتى ، ثم أتخيلك وأنت تفض النزاع المشهور بين نسائك اللاتى تدعى كل منهن تفوقها على سائر النساء فى الجمال . ثم عرضنا أنفسنا عليك بعد أن بذلت كل منا أقصى جهدها فى التزين والتجمل فتأملت أنت بسرور معجزاتنا فى هذا الفن ، ورأيت إلى أى حد نستطيع أن نفتن فى الحصول على إعجابك ، ولكن سرعان ما طلبت منا أن نعرض الجمال الذى وهبته إيانا الطبيعة بدلا من هذا الجمال المصطنع الذى أمرت بإزالته ، والتخلص من هذه الزينة التى تضيق بها ، فكان علينا أن نبدو لناظريك ببساطة الطبيعة كما شئت . أما أنا فكنت لا أحفل بالخجل ، ولا أفكر إلا فى مجد الجمال . وكم كنت سعيدا ياعزيزى أوزبك بهذه المفاتن المعروضة أمام عينيك . رأيناك

تتنقّل من بهجة إلى بهجة وروحك الهائمة تظلّ طويلا غير مستقرة ،

ولا أخفى عنك ، يا أوزبك ، أنه كان يتملكنى شعور أقوى من الطموح أن أنال إعجابك . وبدا لى من طرف خفىّ أنى أصبحت مسيطرة على قلبك : لقد أمسكتنى ثم تركتنى ثم عدت إلى فعرفت كيف أستبقيك . وكان النصر لى ، والحسرة لكل منافساتى .

وكان يبدو لنا أننا الوحيدان فى هذه الدنيا ، وأن كل ما حولنا لا يستحق أن يسترعى انتباهنا . كان الله فى عون منافساتى حين وهبن الشجاعة على احتمال مشاهدة مظاهر الحب التى حظيت بها منك ! وإذا كنّ رأين هيامى فقد أحسسن الفارق بين حبى وحبهنّ . إنهنّ إذا استطعن منافستى فى الفتنة ، فإنهن لا يقدرن على منافستى فى المشاعر المتأججة . ولكن أين أنا ؟ وإلى أين تقودنى هذه القصة التى لا طائل تحتها ؟ . . إنه من الشقاء ألا تصبح المرأة محبوبة ، ومن العار أن تفقد الحب .

إنك تركتنا - يا أوزبك - لتطوف فى هذه البيئات غير المتحضرة . ما هذا المسلك ؟ إنك لا تعبأ بكونك محبوبا . وا أسفاه ! إنك لا تحس ما تفقده ! إنى أتنهد كل يوم لغيابك ، ولكن ما من سميع ! ودموعى تنهمر ولكنك لا تستمتع بها ! ويبدو أن الحب يحيا فى القصر ولا تحسه لأنك تبتعد عنه دائما .

آه ! ياعزيزى أوزبك ، لو أنك تعرف كيف تكون سعيدا !

من سراى فاطمة ٢٢ من المحرم سنة ١٧١١ .

الرسالة الرابعة
من زفيس إلى أوزبك بأرضروم

لقد قرّر هذا الوحش الأسود أخيراً أن يسلمني للغمّ . إنه يريد بكل ما أوتى من قوة أن يبعد عنى جاريتى زيليد ، تلك التى تخدمنى فى حب صادق وتعرف يديها الماهرتين كيف تجملنى وتزيننى وتمنحنى الفتنة والجاذبية . إنه لا يكتفى بما أعانى من آلام الفراق ، بل يريد أن يمسّ شرفى فى غيابك .

إن هذا الخائن يرى ثقتى بها لا بدّ أن تكون قائمة على بواعث آثمة ويجترىء على أن يفترض أنه سمع أو رأى أشياء لا يمكن أن تدور مطلقاً بخلدى ، وليس لذلك من سبب إلا أننى أطرده دائماً خارج الباب حيث ينتابه الملل والضجر . إنى لشديدة الشقاء !

وإن عزلتى وفضيلتى لا تكفيان لأكون بمأمن من شكوك باطلة . فعبد السوء أخذ يهاجمنى حتى فيما يتعلق بقلبك وأصبح لزاما علىّ أن أدافع عن نفسى !

لا . إنى أحترم نفسى إلى حدّ يمنعنى من أن أنزل إلى المستوى الذى أبرر فيه سلوكى . إنى لا أودّ ضامنا لسلوكى سواك أنت ، سوى حبك لى وحبى لك ، سوى دموعى أخيرا إذا دعا الأمر ياعزيزى أوزبك .

من حرملك فاطمة - ٢٩ من شهر المحرم سنة ١٧١١ .

الرسالة الخامسة

من روستان إلى أوزبك بأرضروم

إنك موضوع جميع الأحاديث بمدينة أصفهان ؛ إنهم لا يتكلمون إلا عن رحيلك وبعضهم يعزو ذلك إلى الطيش ، وبعضهم ينسبه إلى بعض أحزانك ، وأصدقاؤك هم وحدهم الذين يدافعون عنك لكنهم لا يقنعون أحداً .

إن الناس لا يجدون سبباً لهجر نسائك وأهلك وأصدقائك ووطنك لتذهب إلى أجواء مجهولة ليس لأبناء الفرس علم بها .

أما أم ريكا فلا عزاء لها ، وتطالبك بابنها الذى اختطفته منها . أما أنا يا عزيزى أوزبك فأميل إلى الموافقة على كل ما تعمل ، ولكنى لا أستطيع أن أغفر لك غيابك ، ولا أن أتقبله مهما سقت لى من أسباب لا يستسيغها قلبى مطلقا .

وداعاً . أرجو أن تحبنى دائماً .

من أصفهان يوم ٢٨ من شهر ربيع الأول سنة ١٧١١ .

الرسالة السادسة

من أوزبك إلى صديقه نصير بأصفهان

تركنا بلاد الفرس ، ودخلنا البلاد الخاضعة للأتراك ، وذلك على مسيرة يوم من إريوان ، ثم وصلنا إلى مدينة إرزيرون بعد اثنى عشر يوما وسنمكث فيها ثلاثة أشهر أو أربعة .

يجب أن أعترف لك يا نصير أنى شعرت بألم دفين عند ما اختفت بلاد الفرس عن ناظرى ووجدت نفسى بين العثمانيين الغادرين .

وقد كنت أشعر أنى أصبحت ملحداً كلما توغلت فى بلاد الإلحاد ، وتخيلت وطنى وأسرتى وأصدقائى ، وتيقظ حنانى ، وانتابنى قلق انتهى باضطرابى وجعلنى أشعر بأننى غامرت كثيراً بأسباب راحتى .

ولكن آلم الأشياء لقلبى هن نسائى ، فإنى لا أستطيع التفكير فيهن دون أن أكون نهباً للأحزان ، وليس ذلك يا نصير لأنى أحبهن : فقد فقدت الشعور فى هذه الناحية حتى صرت لا أشتهى شيئاً . وإن حياتى فى أجنحة القصر جعلتنى أحذر الحب وأهدمه فى نفسى ؛ ولكن مع برودى نشأت عندى غيرة دفينة تلتهمنى ، لأنى أرى جمعاً من النساء يكاد يكون متروكا لهواه ، ولا أجد من يخبرنى بخبرهن إلا نفوسا خسيسة ؛ فمن الصعب على نفسى أن أكون مطمئناً إذا أخلص عبيدى ، وما بالك إذا كانوا مخلصين ؟ أى أخبار محزنة ستصل إلى فى هذه البلاد النائية التى

أجوبها ؟ إنه ألم لا علاج له لدى أصدقائى ، وإنه لمكان ينبغى لهم ألا يعلموا ما ينطوى عليه من أسرار أليمة .

ثم ماذا فى استطاعتهم أن يفعلوا لى ؟ أليس الأولى بى ألف مرة أن أصفح سراً بدلا من الجهر بالعقوبة ؟

أى عزيزى نصير ، إنى أبثك كلّ ما بقلبى من أحزان . وفى ذلك ما بقى لى من عزاء وحيد فى الحالة التى أنا عليها .

من مدينة أرضروم فى العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٧١١ -

الرسالة السابعة

من فاطمة إلى أوزبك بأرضروم

لقد مضى على رحيلك شهران يا عزيزى أوزبك ومع ذلك لا تصدقه نفسى لما ألاقيه من ضعف . إنى أجوب القصر كله كما لو كنت موجوداً فيه ، ولا يزايلنى هذا الوهم أبداً . وما ظنك بامرأة تحبك ، واعتادت أن تضمك دائماً بين أحضانها ، ولا همّ لها إلا أن تقدم لك الأدلة على حنانها ، لقد سعدت إذ ولدت حرة ولكن سلطان حبها قد استعبدها ؟

لم تكن عيناى قد امتلأت برجل قبل زواجى منك ، وما زلت أنت الوحيد الذى سمح لبصرى أن يراه ؛ وإنى لا أضع هؤلاء الأغوات البشعين فى صف الرجال ، فأقل نقائصهم أنهم ليسوا رجالا مطلقاً ، وإذا قارنت جمال وجهك بشناعة وجوههم ، أحسست أنى سعيدة . إن خيالى لا يستطيع أن يتصور سحراً يفوق سحرك ، وأقسم لك يا عزيزى أوزبك أنه إذا قدر لى أن أخرج من الوضع الذى أعيش فيه بحكم مركزى ، أو استطعت أن أهرب من الحرس الذى يحيط بى ، وسمح لى أن أختار رجلا من رجال هذه العاصمة التى جمعت مختلف الأجناس فلن أختار — يا أوزبك — أحداً سواك ، فأنت وحدك الجدير بالحب فى هذا العالم .

لا تظن أنى لغيابك أهملت جمالا هو أثير عندك ، فما زالت الرغبة ، التى كانت تدفعنى إلى أن أحوز إعجابك ، تحملنى على التجمل بالرغم من أنى

أعرف أنه لن يراني أى إنسان ، وأن كل هذا التزين لن تستمتع أنت بشيء منه .

إنني لا آوى إلى فراشي إلا إذا تعطرت بأطيب العطور ، وأتذكر ذلك الزمان السعيد الذى كنت تأوى فيه إلى أحضانى ، وتتراءى لى صورتك الحبيبة فى حلم لذيذ ، وخيالى يهيم فى رغباته كأنه يتعلل بالآمال . فكنت أفكر أحيانا أنك ستعود إلينا وقد زهدت فى هذه الرحلة المرهقة ، ويمضى الليل فى أحلام لا هى فى اليقظة ولا فى المنام . كنت أبحث عنك بجانبي ، ثم يخيل إلىّ أنك هربت منى . وكانت النار التى تلتهمنى تبدو هذه المرات وتوقظ مشاعرى . وعندئذ أرانى شديدة الانفعال . إنك لا تصدق ذلك يا أوزبك ، ولكن من العسير علىّ أن أعيش فى مثل هذه الحالة . فالنار تجرى فى عروقى . ولا أستطيع أن أعبر لك تعبيراً صادقاً عما أشعر به ، وكيف أشعر بما أعجز عن التعبير عنه ؟ إنى فى مثل هذه اللحظات ، يا أوزبك ، أود لو أعطى ملك الدنيا مقابل عطفك علىّ .

ما أتعس امرأة تترك وحدها ، وتحرم ذلك الشخص الذى يستطيع وحده أن يشبع هذه الوحدة ، دون أن تجد من يسليها ؛ فعليها أن تعيش فيما ألفت من تنهدات ، وفى ثورة الشوق العنيفة ، بعيدة من السعادة ، لا حق لها فى أن تضفى السعادة على شخص آخر ! زينة قصر لا جدوى لها ، وحراسة بقصد المحافظة على الشرف ، لا من أجل سعادة الزوج !

ما أقسى قلوبكم معشر الرجال ! إنكم تنتشون بمشاعرنا الملتهبة حين لا نستطيع أن نطفئها . إنكم تعاملوننا على أننا فاقدات الحساسية وتغضبون تماما من أن نكون كذلك . وتعتقدون أن شهواتنا التى كبحت زمناً

طويلا ستنتشى حين يقع بصرنا عليكم . ليس من الهين أن يصبح أحدكم محبوباً ، وأقرب منه أن يتسرب اليأس إلى حواسنا مما لا تنفع فيه براعتكم .

وداعاً يا عزيزى أوزبك ، وثق أننى لا أعيش إلا لأعبدك ، وأن روحى متيمة بك ، وأن غيابك لا ينسينى ذكرك ، بل يلهب حبى إذا كان من المستطاع أن يزيد لهيبه .

من قصر أصفهان فى ١٢ من ربيع الأول سنة ١٧١١ .

الرسالة الثامنة

من أوزبك إلى صديقه روستان بأصفهان

لقد وصلتني رسالتك بأرضروم حيث أقيم ، وكنت على يقين من أن يحدث رحيلي ضجة ، غير أنها ضجة لا تضايقني . وماذا تبغى أن أتبع : حكمتي أم حكمة أعدائي ؟

لقد ظهرت فى بلاط الملك منذ شبابى الغض ، وما أستطيع أن أقوله هو أن قلبى لم يفسد فى البلاط . والتزمت خطة عظيمة من شأنها أن أجرؤ على أن أكون فاضلا . وعندما تكشفت لى رذائل القصر ابتعدت عنها ثم اقتربت منها لأكشف عنها القناع . وحملت الحقيقة حتى وصلت بها إلى قوائم العرش ، وهناك تكلمت لغة لم تكن مألوفة حتى ذلك الحين : لقد زلزلت أركان الملق وبثثت الرعب فى العابدين والمعبود على السواء .

وعندما تبينت أن صراحتى كونت لى أعداء ، وأثارت ضغينة الوزراء ولم أحصل بها على رضا الأمير ، وعندما وجدت نفسى وسط حاشية فاسدة لا أعتمد فيها إلا على فضيلة لا تقوى على مواجهة هذا الفساد ، قررت أن أغادر البلاط . وزعمت أنى مهتم اهتماما بالغاً بدراسة العلوم ، وباستمرار هذا التظاهر ألفت العلوم حقاً ، فانسحبت إلى منزل بالريف ولم أعد أشغل بأى أمر . وقد كان لهذا الإجراء عيوبه : إذ ظللت دائما عرضة لمكر أعدائى لأنى قضيت على الوسائل التى تحمينى . وتسربت إلىّ أخبار سرية جعلتنى أفكر فى نفسى جدياً : فقضيت على نفسى بالنفى

بعيداً عن وطنى ، وكان انسحابى من البلاط مبرراً مقبولا . ذهبت إلى الملك ، وبينت له ما ينتابنى من رغبة فى تعلم معارف الغرب ، وأوعزت إليه مقدار ما يمكن أن يستفيده ملكه من رحلاتى ، فحزت قبوله ، ثم رحلت ، فأفلتت بذلك ضحية من يد أعدائى .

هذا هو يا روستان السبب الحقيقى لسفرى ، فدع أصفهان تتكلم ، ولا تدافع عنى إلا أمام أحبابى ، واترك أعدائى لتأويلاتهم الخبيثة ، وإنى لسعيد بأن تكون هـــذه التأويلات هى الضرر الوحيد الذى يستطيعون أن ينالونى به .

إنهم يتحدثون عنى الآن ، ومن المحتمل أن ينسونى تماما عما قريب ، أما أصدقائى . . . لا — يا روستان — لا أريد مطلقاً أن أستسلم لهذه الفكرة الحزينة : سأكون عزيزاً عليهم دائماً ؛ وإنى أعتمد على إخلاصهم، كما أعتمد على إخلاصك .

أرضروم — ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٧١١ .

الرسالة التاسعة

من كبير الخصيان إلى إيبين في أرضروم

إنك تتبع سيدك القديم فى رحلاته، وتجوب معه المقاطعات والممالك، فلا تعرف الأحزان سبيلا إلى نفسك، وتشاهد فى كل لحظة أشياء جديدة، فتستمتع بما تراه ولا تشعر بمرور الزمن.

وليس حالى كذلك، فأنا رهين سجن رهيب، محاط دائماً بنفس المناظر التى لا جديد فيها، نهب للأحزان التى لا تتغير. ترانى أئن تحت عبء الأعوام الخمسين التى قضيتها فى إرهاق دائم وقلق شديد. وخلال هذا العمر الطويل لا أستطيع أن أقول بأنى سعدت فيه بيوم مشرق أو بلحظة هادئة.

وحينما أعد سيدى الأول مشروعه القاسى بأن يعهد إلى بنسائه، واضطرنى بالإغراء المصحوب بالتهديد الشديد إلى أن أفارق رجولتى إلى الأبد، وقد ظننت نتيجة لإرهاقى بالأعمال التى لا تطاق أننى أضحى بشهواتى فى سبيل راحتى ورفعتى، وكم كنت تعيساً! لقد جهد عقلى فى أن يطلعنى على المكسب وأخفى عنى الخسارة، كنت آمل أن أكون قد تخلصت من أضرار مضاجعة النساء لعجزى عنها. ولكن واسوأتاه! لقد أطفئوا فى آثار الشهوة دون أن يقضوا على أسبابها، وأجد نفسى ولا عزاء لى محاطاً بأشياء تثير الشهوات دون انقطاع. وأدخل القصر فأرى كل ما فيه يشعرنى بالأسى على ما فقدت: كنت أشعر بالحياة تدب دائماً فى جسمى! ويبدو لى أن المفاتن الطبيعية التى تظهر أمام عينى لا تتكشف لى إلا لتحزننى. وتضاعف شقائى. كنت أجد نفسى دائماً إزاء رجل سعيد

وفى هذا الوقت العصيب ، لم أقد امرأة إلى سيدى ، إلا وعدت إلى مأواى والغيظ يملأ قلبي ، والحسرة الشديدة تملك على نفسى .

وهكذا قضيت شبابى البائس : ليس لى غير نفسى أفضى إليها بسرى . كنت مثقلا بالهموم والأحزان التى لا مفرّ من أن أكظمها : وتلك السيدات اللائى كنت أحن إلى أن أنظر إليهن بعيون ملؤها الحب ، لم أتطلع إليهن إلا بنظرات جد صارمة . ما أضيعنى لو فطن إلى ماكان يدور بنفسى ، وأى خير فاتهن إذا جهلن حالى .

ثم مضت حرارة الشباب وهأنذا قد أصبحت شيخاً أجد فى هذه الناحية هدوءاً وأنظر إلى النساء بلا مبالاة وأرد لهن جميع الإهانات وكل الآلام التى جرعتنى إياها . وأذكر دائماً أننى ولدت لأسيطر عليهن . ويخيل إلى أننى عدت رجلا فى الحالات التى تتطلب منى قيادتهن . إنى أمقتهن حينما يبدو عليهن عدم المبالاة ، وحين يطلعنى عقلى على نواحى ضعفهن . وأجد لذة خفية فى أن أخضعهن ، ولو أننى أقوم على حراستهن لغيرى ، وعند ما أحرمهن من كل شىء يخيل إلى أن حرمانهن من أجلى فأنال بذلك رضا غير مباشر . ومقامى فى القصر بمثابة إقامتى فى مملكة صغيرة ، وكل ما بقى لى من عواطف هو طموح يجد الآن ما يرضيه ، لأنى أرى نفسى مع السرور محوراً لكل شىء فى القصر ، وألا غنى عنى لحظة واحدة ، ولذلك أتحمل راضياً حقد جميع النساء اللائى وطدن قدمى فى الوظيفة التى أشغلها . لقد فعلن ذلك بجاحد . لأنهن يجدننى دائماً إزاء أطهر شهواتهن حاجزاً منيعاً : إنهن يضعن المشروعات وأنا أقف فجأة دون تحقيقها . وأتسلح بالرفض ، وأتذرع بالتدقيق ، ولا تجرى على شفتى سوى ألفاظ الواجب والفضيلة والاحتشام والحياء . إنى لأحزنهن حين أتحدث دائما عن ضعف جنسهن وعن سلطان سيدهن . ثم يؤلمنى

بعد ذلك أننى أضطر إلى كثير من الصرامة فى معاملتهن . وتلح علىّ الرغبة فى أن أسمعهن أننى لست إلا أداة لمصلحتهن وأننى شديد التعلق بهن .

ليس هذا كل ما هنالك : فلم أخل من مضايقات لاحد لها ، لأن هؤلاء النساء الحاقدات لم يكن لهن جميعاً من قصد سوى الانتقام البالغ ممن يضايقهن ، وإن كيدهن لعظيم . كان بيننا ما نسميه مد البحر وجزره من التسلط والخضوع ، وكن يكلفننى بالقيام بأخس الأعمال ، ويبدين لى ازدراء لا مثيل له : كن يوقظننى فى الليل عشر مرات لأتفه الأشياء دون رعاية لشيخوختى وكنت مرهقاً دائماً بما يصدرن لى من الأوامر والأعمال وأهوائهن الحمقاء . ويخيل إلىّ أنهن كن يتناوبن فى استخدامى ، وأن أهواءهن الطائشة يلاحق بعضها بعضاً ، وفى أكثر الأحيان يحلو لهن أن يضاعفن اهتمامى بعملى ، إذ يمكرن بى فيسررن إلىّ بأسرار كاذبة : فمرة تقول إحداهن : إن شاباً يبدو خلف هذه الجدران ، ومرة تقول أخرى : نسمع ضوضاء فى هذه الناحية ، ومرة تقول ثالثة : ينبغى لنا أن نرد على رسالته ، وكل ذلك يزعجنى ، وهن يتضاحكن من هذا الانزعاج وتقر أعينهن حين يريننى هكذا معذباً ، وأحياناً أخرى يلزمننى بابهن فلا أفارقه ليلاً ونهاراً .

إنهن يعرفن تماماً كيف يتمارضن وكيف يزعمن الضعف أو الإغماء أو الخوف ، ولا يعوزهن أى ادعاء ليصلن بى إلى الغاية التى يردنها . ويتحتم فى مثل هذه الأحوال الطاعة العمياء ؛ والرعاية التى لا حد لها . والرفض الذى يتفوه به رجل مثلى أمر لا يستساغ سماعه ، وإذا ترددت فى طاعتهن كان لهن الحق فى عقابى . لذلك يا إبى ، أوثر أن أفارق الحياة من أن أنزل إلى مثل هذا الدرك من الهوان .

وليت الأمر يقف عند هذا الحد ؛ فإننى لست فى أية لحظة واثقا

من عطف سيدى ورعايته ، فلى فى قلبه نوازع كثيرة من العداء لا تفكر إلا فى ضياعى : ذلك أن لنسائه أرباع ساعات من الخلوة لا أسمع فيها شيئاً مطلقاً ، أرباع ساعات لا يرد فيها لهن طلباً . أرباع ساعات أكون فيها أنا المخطىء دائماً . إنى أقود إلى فراش سيدى نساء حاقدات على : أتعتقد أنهن فى هذا الفراش يعملن من أجلى ، وأن تكون مصلحتى موضع رعايتهن ؟ إن أخوف ما أخافه هو دموعهن وتنهداتهن وأحضانهن ولذاتهن أيضاً : لأنهن فى مكان نصرهن . وإن فتنتهن لتبث الرعب فى قلبى : فما يقدمنه للسيد فى الحاضر يمحو فى لحظة واحدة جميع خدماتى السابقة ، ولا شىء يقف بجانبى لدى سيد ليس له أى سلطان على نفسه .

كم من مرة حدث لى أن آويت إلى فراشى متمتعاً برضا سيدى ، وأقوم منه وهو ساخط على !!

وماذا فعلت فى ذلك اليوم الذى جلدت فيه بقسوة خارج القصر ؟ تركت امرأة بين ذراعى سيدى ! وما إن رأته ملتهباً حتى سكبت سيلا من الدموع ، وشكت وعرفت كيف تتلطف لشكاياتها وتبالغ فيها كلما أثارت فيه الرغبة ، فكيف يطمئن بى مقام فى مثل هذه اللحظة الشديدة الخطورة ؟

لقد ضيعت من حيث لا أدرى . إننى ضحية مفاوضات تقوم على الشهوات ، ومعاهدة عقدتها التنهدات . هذه — يا عزيزى إيبى — الحالة القاسية التى أعيش فيها دائماً .

كم أنت سعيد ! فاهتمامك كله موجه إلى شخص أوزبك ، ومن اليسير عليك أن ترضيه ، وأن تظل محتفظاً بحظوتك لديه حتى آخر أيامك .

من قصر أصفهان فى آخر شهر صفر سنة ١٧١٦ م .

الرسالة العاشرة

من ميرزا إلى صديقه أوزبك بأرضروم

لقد كنت وحدك العوض عن غياب ريكا عنى ، كما كان ريكا عزائى عن غيابك . إننا فى حاجة إلى وجودك بيننا — يا أوزبك — فأنت روح مجتمعنا .

ما أقسى أن تنقطع الصلات التى عقدتها القلوب والعقول ! نحن نتناقش هنا كثيراً : ومناقشاتنا تدور عادة حول الأخلاق .

وقد طُرح أمس موضوع هو : أيكون الناس أسعد بلذاتهم ، وإشباع حواسّهم ، أم بممارسة الفضيلة ؟ وكثيراً ما سمعتك تقول : إن الناس ولدوا ليكونوا فضلاء ، وإن العدالة صفة لازمة لهم لزوم وجودهم، فأرجوك أن تشرح لى ما تعنى بهذه العبارة .

لقد تحدثت مع رجال الدين فأيأسونى بآياتهم القرآنية[1] ، وأنا لا أكلمهم كمؤمن صادق الإيمان ، ولكن كرجل ، وكمواطن ، وكأب لأسرة . ووداعاً .

من إصفهان فى آخر صفر سنة ١٧١١ م .

---

(١) هو معترف بأنه غير مؤمن فيريد دليلا عقليا لا نقليا .

المراجع

الرسالة الحادية عشرة
من أوزبك إلى ميرزا بأصفهان

إنك تدع عقلك ، وتلجأ إلى عقلى ، وتتنازل حتى تستشيرنى ، وتعتقد أننى أهل لأن أعلمك ؛ يا عزيزى ميرزا ، إن هناك أمراً يرضينى أكثر من حسن رأيك فىّ ، إنها صداقتك التى فزت بها .

ولأجيبك عما طلبت منى ، لا أرى لزاما أن أستعمل الحجج المجردة ؛ فهناك بعض الحقائق لا يكفى فيها الاقتناع ، بل تتطلب أن يحسها الإنسان : كالحقائق الخُلقية . وربما أثرت فيك هذه القصة التاريخية ما لا تؤثره الفلسفة الدقيقة :

كان فى البلاد العربية شعب صغير يدعى التروجلوديت ينحدر عن التروجلوديت القدماء ، الذين كانوا — إذا صدقنا المؤرخين — أشبه بالبهائم منهم بالناس . لم يكونوا مشوّهى الخلق ، ولم يكس جلودهم الشعر كالدببة ، ولا يصيحون ، وكانت لهم عيون ؛ لكنهم كانوا تعسين ومتوحشين إلى حدّ كبير ، فلم يكن عندهم أى قاعدة للإنصاف أو العدالة .

وكان لهم ملك من أصل أجنبىّ عنهم ، أراد أن يهذّب شراستهم الطبيعية فعاملهم بقسوة ، فتعصبوا عليه وقتلوه ، واستأصلوا الأسرة الملكية كلها .

وما إن حدث هذا حتى اجتمعوا لاختيار حكومة ، وبعد جدل عنيف وعراك عينوا حكاما ، وما كاد هؤلاء الحكام يختارون حتى أصبحوا لا يطاقون فقتلوهم كذلك .

هذا الشعب المتحرر من النير الجديد ، لم يعد يُحكَم إلا طبيعته الوحشية . واتفق أفراده على ألا يطيعوا أحداً بعد ذلك ، وأن كل شخص لا يرعى إلا مصالحه دون رعاية لمصالح الآخرين .

هذا القرار الإجماعيّ ، أرضى جميع أفرادهم إرضاء تاما . وقال كل منهم : فيم أقتل نفسى فى العمل لأناس لا أهتم بهم مطلقا ؛ سأفكر فى نفسى وحدها . سأعيش سعيداً : وما يعنينى فى أن يكون الآخرون كذلك ؟ سأحصل على جميع ما أحتاج إليه ، وإذا تم لى ذلك فلا أهتم مطلقا بأن يكون سائر التروجلوديت بائسين .

وحان شهر البذر ، فقال كلٌّ فى نفسه : لن أحرث منَ حقلى إلا بمقدار ما أحتاج إليه من قمح لغذائى ، وكمية كبيرة لا داعى لها عندى ، ولن أبذل مطلقا جهداً فى غير طائل .

لم تكن الأرض فى هذه المملكة الصغيرة ذات طبيعة واحدة : فمنها الجدبة ، والجبلية ، ومنها البقاع المنخفضة التى تروى بكثير من الجداول .

وفى هذا العام كان الجفاف شديداً ، فلم تنل الأماكن المرتفعة شيئاً من الماء ، أما التى نالت الريّ فقد أخصبت وأتت بخير كثير : وهكذا كاد سكان الجبال يهلكون جميعاً لقسوة سكان المنخفضات ، إذ رفضوا أن يقاسموهم الحصاد .

ثم كانت السنة التالية غزيرة الأمطار : فسعدت الأماكن المرتفعة بخصب غير معهود ، وغرقت الأرض المنخفضة بالماء ، فضجّ نصف

الشعب مرة أخرى من المجاعة ، لكن هؤلاء البائسين وجدوا أناساً عاملوهم بالقسوة التي وجدوها منهم من قبل .

وكان لرجل من أعيانهم امرأة رائعة الجمال ، عَلِق بحبها أحد الجيران فاختطفها ، ونشأت معركة عنيفة بينهما ، وبعد السباب والضرب اتفقا على أن يحتكما إلى رجل من التروجلوديت كان له قدر أيام قيام الجمهورية . ذهبا إليه ، وأرادا أن يبسطا أمامه الحجج ، فقال لهما : ماذا يعنيني من أن تكون هذه المرأة لك أو له ؟ إن لديّ حقلا أحرثه ؛ فلن أضيّع وقتي في فض ما بينكما من نزاع ، ولن أشغل نفسي بقضاياكما وأهمل أعمالي، دعاني في هدوء ، ولا تزعجاني بعراككما . ولم يكتف بذلك بل تركهما ، وانصرف إلى أرضه يعمل فيها . وكان المغتصب أقوى الطرفين ، فأقسم أنه يؤثر أن يموت على أن يردّ هذه المرأة ، أما الآخر فقد تأثر تأثراً بالغاً من ظلم جاره ، وقسوة القاضي ، وفي أثناء عودته يائساً لقي في طريقه امرأة شابة جميلة عائدة من النبع . لم يعد لديه امرأة ، وأعجبته هذه المرأة وزاد سروره بها أن علم أنها زوجة ذلك الرجل الذي اتخذه قاضياً ، ولم يتأثر لما كان فيه من تعس الحال : فاختطفها ، واصطحبها إلى منزله .

وكان هناك رجل يملك حقلا على حظ من الخصب ، وكان يزرعه بعناية فائقة ، فاتحد عليه اثنان من جيرانه ، فطرداه من منزله ، واحتلا حقله . وكان بينهما اتحاد لمقاومة من يريد اغتصاب الحقل منهما ، وداما على ذلك أشهرا ، ولكن أحدهما ضايقه أن يقاسمه غيره ، ما يستطيع أن يملكه وحده ، فقتل صاحبه ، وأصبح وحده مالك الحقل ، ولكن ملكه لم يدم طويلا ؛ فقد وثب عليه اثنان آخران من التروجلوديت ، ووجداه أضعف من أن يقاوم ، فقتلاه .

وكان من التروجلوديت رجل شبه عار ، رأى صوفاً يباع ، فسأل

عن ثمنه ، فقال التاجر فى نفسه : من الطبيعىّ ألا أبغى فى صوفى ثمناً إلا بمقدار ما أشترى به مكيالين من القمح ؛ لكننى سأبيعه بضعفى ثمنه ، فأحصل بذلك على ثمانية مكاييل ، وتمت الصفقة ، ودفع الثمن المطلوب . ثم قال التاجر : إننى ناعم البال ، سأحصل على القمح فى الحال . فسمعه الأجنبى ، وقال له : أأنت فى حاجة إلى قمح ؟ عندى ما أبيعك منه ، لكن الثمن قد يثير عجبك ، فأنت تعلم أن القمح عزيز المنال ، وأن المجاعة فاشية فى جميع الجهات ، ولكن هات ما أخذت منى من مال ، وسأعطيك مكيالا واحداً من القمح : أتريد أن تموت جوعاً ، إننى لن أرضى بغير هذا التصرف بديلا .

وحدث أن مرضاً عضالا غزا هذه المقاطعة . فأتى إليها طبيب ماهر من بلد مجاور ، ووصف الدواء الناجع حتى إن جميع من عالجهم شفوا . ولما زال المرض ، ذهب إلى جميع من عالجهم يطلب أجره فلم يجد إلا الرفض ، فعاد إلى بلده مرهقا من الجهود التى بذلها فى هذه الرحلة الطويلة . ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى علم أن المرض نفسه فشا من جديد ، واشتدت وطأته بدرجة لم تعهد قط فى هذه البلاد المنكرة للجميل . فذهب القوم إليه هذه المرة ، لكنهم لم يظفروا بأن يجىء إليهم . وقال لهم : اذهبوا ، أنتم قوم ظالمون ، إن فى أرواحكم سما هو أقتل لكم من هذا المرض الذى تريدون الشفاء منه ، أنتم لا تستحقون أن تشغلوا مكانا على الأرض ، لأنكم صِفْر من الإنسانية ، وتجهلون قواعد الإنصاف : وأعتقد أننى أعصى الآلهة التى عاقبتكم إذا أنا عارضت عدالتها فى غضبها عليكم .

من أرضروم فى ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٧١١ الميلادية .

الرسالة الثانية عشرة

من أوزبيك إلى الشخص نفسه (١)

لقد رأيت يا عزيزى ميرزا كيف أن التروجلوديين لم يهلكهم سوى شرورهم وكانوا ضحايا ظلمهم . وأنه لم ينج من الشقاء الذى حل بهذا الشعب الوافر العدد إلا أسرتان ، وذلك أن رجلين من هذا الإقليم امتازا بسلوكهما ، وشعرا بإنسانيتهما ، وعرفا العدالة ، وأحبا الفضيلة ، وتوثقت صلاتهما لصلاح قلبيهما ولفساد قلوب الآخرين . ورأيا التنافر يسود الشعب فأحسا بالرثاء لهم ، وكان ذلك سبباً فى دعم اتحادهما ، وعملا فى تضامن مشترك ، لنفع مشترك ، ولم ينشأ بينهما جدل إلا ما تمليه المحبة العذبة الرقيقة ، وعاشا فى جانب ناء بعيدين عن سائر أفراد الشعب الذين لا يستحقون أن يعاشروهم ، وعاشوا حياة هانئة سعيدة . زرعوا بتلك الأيادى الطاهرة ، فكأن الأرض أصبحت تؤتى ثمارها من تلقاء نفسها .

كانا يحبان زوجاتهما ، وكانا جد محبوبين من زوجاتهما ، وكان كل همهما أن ينشئا أطفالهما على الفضيلة ، فكانا يعرضان عليهم دائماً مآسى شعبهم ويضعان نصب أعينهم موطن العبرة فى سلوكهم ، وما آل إليه أمرهم ، وكان أهم ما حرصا عليه أن يشعرا أبناءهما بأن مصلحة الأفراد تتحقق دائماً بتحقق المصلحة العامة ، فإذا أريد فصلهما فقد أريد فقدهما ، وبأن الفضيلة ليست مطلقاً أمراً يرهقنا ، ولا ينبغى أن نعتبر ممارستها شيئاً شاقاً ، ويوجهانهم إلى أن إنصاف غيرهم إحسان إلى النفس .

---

(١) هى فى الواقع تتمة للرسالة السابقة .

ولم يمض زمن طويل حتى قرت أعين الآباء الفضلاء بنظراتهم من الأبناء ، وتكاثر هؤلاء الشباب الناشئون في رعايتهم بالزواج السعيد، فنما العدد ، وقوى الاتحاد ، ولم تضعف كثرتهم فضائل أنفسهم ، بل قويت الفضيلة عندهم بازدياد النماذج الفاضلة من ناشئتهم .

فمن ذا الذى هيأ لهذا الشعب السعادة ؟

إن شعباً يتصف بمثل هذه الاستقامة لهو محبوب من الآلهة ، إذ ما كاد يفتح عينيه ويتعرف على الآلهة حتى استشعر خشيتها ، وهذب الدين من طباعه ، ما تركته الفطرة جافياً .

لقد أقاموا الأعياد لتقديس الآلهة ، فالفتيات يتزين بالأزهار والفتيان يعلنون ابتهاجهم بالرقص الإيقاعى على أنغام الموسيقى الريفية ، ثم تمد الموائد التى تسودها البساطة كما يسودها السرور .

وفى هذه المجتمعات تتحدث الطبيعة الساذجة ، وتتعلم القلوب تبادل المحبة ، وفى البساطة العذرية الخجول يبدو اعتراف مفاجىء بالحب سرعان ما يمنحه الآباء الرضا . أما الأمهات الحانيات ، فيسرهن ما يتوقعنه من زواج وفىّ هنىء .

ويذهبون إلى المعابد ليطلبوا من الآلهة نعمها ، وليس الثراء الوافر ولا الوفر الكثير، لأن مثل هذه الأمانى لا تليق بالتروجلوديين السعداء ، ولا يعرفون من الرغبات إلا ما يرضى مواطنيهم ، ولا يضرعون أمام المذابح إلا ليطلبوا من الآلهة الصحة لآبائهم ، والاتحاد لإخوانهم ، والحنان لنسائهم ، والحب والطاعة لأبنائهم . وتأتى الفتيات إلى المعبد وفى نفوسهن إيثار كريم ، إذ لا يطلبن من التوفيق إلا ما يمكنهن من إسعاد أزواجهن .

وإذا عا ت القطعان من المراعى مساء ، وخلصوا الثيران المجهدة من المحاريث ، اجتمعوا على عشاء يسير ، وتحدثوا عن ظلم أسلافهم وجبروتهم ، وتغنوا بالفضيلة والسعادة الناشئتين مع الشعب الجديد .

ثم تغنوا بعظمة الآلهة وفضلها الذى ينـاله من يستمنحه ، وغضبها الذى لامفر منه لمن لايخشونها ، ثم وصفوا الحياة الريفية الممتعة ، والسعادة التى تجملها البراءة ، ثم يستسلمون لنوم هادئ لا ينغصه أبدا هم أو حزن .

والطبيعة لا تنقصهم شيئا من رغباتهم ومطالبهم . وفى هذا البلد السعيد أصبح الجشع غريباً ، وتبادل أهله الهدايا فصار كل معط يؤمن بأنه أفضل من غيره .

وأصبح الشعب التروجلودى يعد نفسه أسرة واحدة : فقطعان المـاشية تكاد يختلط بعضها ببعض ، والتعب الوحيد الذى كان يتخفف منه هذا الشعب عادة هو ألا يقتسم هذه القطعان .

من أرضروم فى ٦من جمادى الآخرة سنة ١٧١١ الميلادية .

الرسالة الثالثة عشرة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

لا أدرى كم أحدثك عن فضائل التروجلوديين ؛ ففى يوم من الأيام قال أحدهم : « إن أبى سيحرث حقله غداً ، لذلك سأستيقظ قبله بساعتين ، حتى إذا ذهب إلى حقله وجده محروثاً » .

وقال آخر لنفسه : يبدو لى أن أختى هويت شاباً من أقاربنا ، فينبغى لى أن أحدث أبى لأحمله على الموافقة على زواجهما .

وجىء إلى ثالث وقيل له : « إن اللصوص قد سلبوا قطيعك فقال : إنه لا يحزننى من ذلك إلا أن بالقطيع عجلة بيضاء ناصعة كنت أريد أن أقدمها قرباناً للآلهة » .

وسمع شخص يقول لآخر : « يجب أن أذهب إلى المعبد لأشكر الآلهة ، لأن أخى الذى يحبه أبى ويؤثره كثيراً وأحبه أنا كذلك ، قد استرد عافيته » .

وقال غيره : « إن الذين يزرعون الحقل المجاور لحقل أبى يتعرضون لوهج الشمس وحرها فى أثناء النهار فينبغى أن أزرع هناك شجرتين ليستطيع هؤلاء المساكين أن يفيئوا إليهما ، ويستريحوا تحت ظلالهما » .

وفى يوم من الأيام اجتمع عدد كبير منهم وشهدوا شيخاً يلوم شاباً اتهم بأنه ارتكب عملا شائناً ، فقال الشبان : « لا نظنه ارتكب هذا الجرم ، وإن كان قد فعله فليته يكون آخر من يموت من أفراد أسرته » .

وجيء إلى رجل منهم وقيل له : إن قوماً غرباء سلبوا متاع بيتك ، وذهبوا به كله ، فقال : « إن لم يكونوا ظالمين فعسى أن تمتعهم به الآلهة أكثر مما تمتعت به » .

لكن وفرة النعم لا تسلم من حسد الناس : فاجتمع جيرانهم ، وتعللوا بعلل باطلة ، وقرروا أن يسلبوا قطعانهم ، فلما علموا بذلك أرسلوا إليهم رسلا خاطبوهم بالعبارات التالية :

ماذا فعل بكم التروجلوديون ؟ هل خطفوا نساءكم ؟ هل سلبوا أنعامكم؟ هل أتلفوا حقولكم ؟ لا . نحن قوم عادلون نخاف الآلهة فماذا تريدون منا إذن ؟ أتريدون صوفاً تنسجون منه ثياباً ؟ أتريدون لبناً من دوابنا ، أو ثماراً من أرضنا ؟ ضعوا أسلحتكم ، تعالوا إلينا ، وسنعطيكم كل ذلك ؛ لكننا نقسم بأقدس أيماننا أنكم إذا دخلتم أرضنا أعداء لنا ، فسنعدكم شعباً ظالما . ونعاملكم معاملة الوحوش المفترسة .

لقد رفضت هذه العبارات فى ازدراء ، ودخل القوم المتوحشون مسلحين أرض التروجلوديين ، معتقدين أنهم غير مستعدين للكفاح ، وأنه لا سلاح لهم إلا براءتهم ، لكنهم كانوا على أتم أهبة للدفاع ، وضعوا نساءهم وأطفالهم بينهم ، وعجبوا من ظلم أعدائهم ، لا من كثرة عددهم ، وتحمست نفوسهم ، وأراد الابن أن يفتدى أباه ، والزوج أن يموت دون زوجه وولده ، وحرص الأخ على أن يحمى إخوته ، ودافع الصديق عن أصدقائه ، وحارب جميعهم من أجل شعبهم ، ومن قضى نحبه منهم حل محله آخر حماية للحمى ، وولعاً بالغاً بالانتقام .

تلك كانت معركة بين الظلم والفضيلة ... وهؤلاء الناس الجبناء الذين لم يسعوا إلا إلى الغنيمة لم يخجلوا من الفرار ، واستسلموا أمام فضائل التروجلوديين ، ولو لم يدركوا لها كنهاً .

إيرزيرون فى ٩ جمادى الآخرة سنة ١٧١١ الميلادية .

الرسالة الرابعة عشرة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

حينما نما الشعب على مر الأيام ، رأى أن الوقت آن ليختار له ملكا : واتفقوا على أن يكرموا بالتاج أصلحهم ، فاتجهت أنظارهم جميعاً إلى شيخ جليل بسنه وفضله العميم ، ولكنه لم يشأ أن يشهد هذا الاجتماع وتسلل إلى بيته ضيق النفس من الهم .

ولما أرسلوا إليه نواباً يخبرونه بأنهم اختاروه ملكا قال لهم : لم يشأ الله أن أكون الذى أوقع التروجلوديين فى مثل هذا الخطأ حين يعتقدون أنه ليس بينهم أعدل منى ! لقد شرفتمونى بالتاج لكنى لن أقبله إلا إذا كنتم مصرين على ذلك ، ولكن يجب أن تعلموا أنى سأموت ألماً لأنى شهدت مولد التروجلوديين الأحرار ، ثم أراهم اليوم يصبحون رعية الحاكم . وانهمر من عينيه سيل من الدموع وقال : ما أشقى يومى ! لماذا عمرت حتى شهدته ؟ ثم صاح قائلا بصوت حاد : أيها التروجلوديون أرى حقاً أن فضائلكم بدأت تثقل كاهلكم ، ففى الحالة التى كنتم فيها ، ولا رئيس لكم ، كنتم تحملون أنفسكم على الفضيلة حملا ، وفى غير هذه الحال لن تثبتوا عليها طويلا ، وستقعون فيما وقع فيه أسلافكم من شقاء . غير أن هذا الذى يبدو شديد العسر عليكم : فآثرتم أن تخضعوا لأمير وأن تطيعوا قوانينه لأنها أقل صرامة من خصائلكم . وتعلمون أنكم منذ الآن تستطيعون أن ترضوا مطامعكم ، وتنموا ثرواتكم وتضعفوا

أمام شهواتكم المرذولة ، وإذا لم تستطيعوا الخلاص من الكبائر فلستم في حاجة إلى الفضيلة . ثم توقف برهة عن الكلام ، وانهمر دمعه وبكى بكاء مراً لم يبكه أبداً ثم قال : وماذا تؤملون فيّ أن أصنع ؟ كيف يمكن أن آمر أحدكم بفعل ما ؟ أتريدون أن يصنع أحد صنيعاً فاضلا لأني أمرته به ؟ وكان يمكن أن يفعله دون تدخلي بدافع من كريم طبعه ؟

أيها التروجلوديون ! إنني في آخر حياتي ، ودمي قد جمد في عروقي ، وأوشك أن ألقى أسلافكم الكرام ، فلماذا تريدون مني أن أزعجهم وتضطروني أن أقول لهم : إني تركتكم تحت سلطان غير سلطان الفضيلة .

أرضروم في ١٠ من جمادى الآخرة سنة ١٧١١ الميلادية .

الرسالة الخامسة عشرة

من كبير الخصيان إلى جاردن الخصي الأسود بأرضروم

أرجو أن يكون الله رائدك فى تلك الجهات ، وأن ينجيك من جميع الأخطار .

ولو أنى لم أعرف مطلقاً هذه العلاقة التى تربط الناس بعضهم ببعض وتسمى المحبة ، ولو أنى منطو على نفسى ؛ فقد أشعرتنى بأنى ما زلت ذا قلب . وحينما كنت قاسياً مع جميع العبيد الذين يعملون تحت إمرتى كنت أنظر بسرور إلى طفولتك النامية .

وحان الوقت الذى وقعت فيه عينا سيدى عليك ، لأنه كان لزاماً أن تتحدث الطبيعة حينما حالت القيود بينك وبين الطبيعة .

ولن أصرح لك عما إذا كنت قد أحسست ألماً أو سروراً ، لأنك رقيت إلى مستواى . لقد كفكفت من دمعك ، وهدأت من صراخك ، وآمنت أنى أراك تولد مولداً جديدا ، وتخرج من خدمة يجب عليك فيها دائما أن تذعن وتخضع ، لتدخل فى خدمة تخولك الأمر والنهى . لقد عنيت بتربيتك والقسوة لا تنفصل أبداً عن التعليم . ولقد ظللت طويلا وأنت تجهل أنك عزيز علىّ ، والواقع أنك عزيز علىّ ، بل أقول : إنى أحبك كما يحب الأب ابنه ، إذا كان لقب الأبوة والبنوة يلائم

حالتنا التى صرنا إليها . ستجوب بلاداً مأهولة بالمسيحيين الذين لم يؤمنو قط[1] . ومن العسير أن تسلم من دنسهم ؛ وإلا فكيف يستطيع النبىّ أن يرعاك وأنت بين الملايين الكثيرة من أعدائه ؛ وأرجو أن يحج سيدى إلى مكة عند عودته ، لتتطهروا هناك جميعاً فى أرض الملائكة .

من قصر إصفهان فى ١٠ من جمادى الآخرة سنة ١٧١١ م .

(١) هذا رأى المؤلف ، وهو مسيحى ، ولعله يشير إلى أولئك المسيحيين الذين لم يؤمنوا بالمسيحية كما ينبغى . المراجع

الرسالة السابعة عشرة

من أوزبك إلى الشيخ نفسه

أيها الشيخ الصوفى ! إنى لا أستطيع أن أهدّئ من صبرى ، ولا أعرف كيف أنتظر ردّك السامى . إن عندى شكوكا ينبغى أن تستقرّ باليقين ، وأشعر أن عقلى هائم فاهده الطريق المستقيم ، أنر لى طريقى يا منبع الضياء ، وامحق بقلمك الإلهىّ المشكلات التى أعرضها عليك ، وارحمنى من نفسى ، فإنى أخجل من السؤال الذى أوجهه إليك :

من أين جاء المشرّع بتحريم هذه الأشياء التى سماها رجساً ؟ ولماذا حرّم علينا أن نمسّ جسم الميت ، وأوجب علينا لتطهير أرواحنا أن نغتسل باستمرار ؟

إنه يبدو لى أن الأشياء ليست طاهرة أو دنسة بذاتها . ولا أستطيع أن أدرك أى صفة تتصل بموضوع ما تجعل الأشياء هكذا : إن الوحل لا يبدو لنا قذراً إلا لأن نظرنا يتأذى به ، أو لأن بعض حواسنا الأخرى تنفر منه ، لكنه فى مادته لا يختلف عن الذهب أو الماس ، إن فكرة الدنس بمسّ جثة لم تأت إلينا إلا من التقزّز المركوز فى طباعنا ؛ وإلا فكيف نستطيع أن نتصوّر أن الأجسام التى لم تغتسل قط أجسام دنسة مالم يتأذّ بها شمّنا أو نظرنا ؟ الحواسّ إذاً — أيها الشيخ الصوفى — هى الحكم الوحيد فى طهارة الأشياء أو دنسها ؛ لكن الأشياء لا تظهر

بحال واحدة لدى جميع الناس ، فما يسبب شعور ارتياح عند بعضهم قد يحدث نفوراً وتقزّزاً عند آخرين .

ويترتب على الاعتماد على الحواس فى الحكم أنه لا يمكن استخدام قاعدة ثابتة فى الحكم على الأشياء إلا إذا قيل : إن كل شخص يستطيع — بحسب هواه — أن يقرر فيما يعنيه حكما ما ، ويميّز بين الأشياء طاهرها ونجسها .

ولكن أليس هذا أيضاً — أيها الشيخ الصوفى — مضاداً لقواعد التمييز التى أقامها ديننا العظيم ، وأسس القانون الذى سطرته يد الملائكة ؟

من ارضروم فى ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٧١١ .

الرسالة الثامنة عشرة

من محمد علي، خادم الأنبياء، إلى أوزبك في أرضروم

إنك توجه إلينا دائماً الأسئلة التي وجهت من قبل كثيراً إلى نبيّنا المقدس . وكأنك لم تقرأ الأقوال المأثورة عن العلماء ، ولم تقصد إلى الينابيع الصافية من آثار العقلاء ؛ إنك لو رجعت إليها لتلاشت شكوكك .

ما أشقى أولئك الذين جعلوا كل همهم دائماً شئون الأرض ، ولم ينظروا مطلقاً بعين متأملة في ملكوت السماء ، وأولئك الذين يعظمون رجال الدين ، ولا يجترئون على مخالطتهم أو الاقتداء بهم !

أرضيون أولئك الذين لا يتدبرون أسرار الخلود . إن أنواركم التي تهتدون بها أشبه بظلمات الأغوار ، وإن استدلالكم العقلي أشبه بالغبار الذي تثيره أقدامكم ، والشمس في كبد السماء في شهر شعبان الملتهب حرارة .

وهكذا أنت في أوج تفكيرك لا يمكنك أن تبلغ مستوى أقل الأئمة. وفلسفتك العقيمة أشبه ببرق يؤذن بالعاصفة والظلام : وأنت وسط العاصفة ، تعصف بك الريح كما تشاء .

في قم ، آخر شعبان سنة ١٧١١ .

هذه الرسالة يبدو فيها بوضوح أنها أساطير خيالية لا أصل لها في الدين ، ويتجلى فيها سعة خيال مونتسكيو ، وما عرف عنه من دعابات فكهة .

المراجع .

الرسالة التاسعة عشرة

من أوزبك إلى صديقه روستان

لم نقم فى توكات سوى ثمانية أيام ، وبعد مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما وصلنا إلى سميرن (أزمير) .

وليس بين توكات وأزمير مدينة واحدة تستحق الذكر . ولقد رأيت متعجباً ضعف الإمبراطورية العثمانية : هذا الجسم المريض لا يعتمد على علاج رفيق معتدل ، بل يعالج بأدوية عنيفة تضنيه ، وتستنفد جهده بلا انقطاع .

إن الباشوات لا يحصلون على مراكزهم إلا بسلطان المال ، لذلك يذهبون إلى المقاطعات التى يحكمونها وقد خسروا ما لديهم من مال ، فينهبون المقاطعات ويفسدون فيها كأنها بلاد مفتوحة . والجيش عات لا يستجيب إلا لنزواته والحصون مخرّبة ، والمدن مقفرة ، والحقول خاوية ، والزراعة والتجارة مهملتان إهمالا تاما .

وإهمال القِصاص شاع فى هذه الحكومة القاسية ، والمسيحيون الذين يزرعون الأرض ، واليهود الذين ينمون الضرائب معرضون لألوان قاسية من الاضطهاد .

وملكية الأراضى لا يطمأن إليها ، فتبع ذلك أن انحطت قيمتها ، وقَلَّت الرغبة فى اقتنائها ، لأن الحكام لا يقف فى سبيل مطامعهم عقد ملكية ولا ملكية ثابتة .

وهؤلاء الهمج تركوا الفنون وراءهم ظهرياً حتى فن الحرب . وفى الوقت الذى كانت فيه أوربا ترتقى رقياً مطرداً ظلوا هم فى جهالتهم الجهلاء، ولم يخطر ببالهم أن يأخذوا عن الأوربيين مخترعاتهم الحديثة إلا بعد أن حاربوهم بها مرات كثيرة .

ولم تكن لهم خبرة بالبحار ولا بأعمالها ، ويمكن أن يقال : إن حفنة من المسيحيين خرجوا من الصخر[1] أجهدوا العثمانيين ، وأرهقوا إمبراطوريتهم .

ولقصورهم فى أعمال التجارة سمحوا — بعد شىء من الجهد — للأوربيين الناشطين ذوى الإقدام بأن يمارسوها فى بلادهم ، وظنوا أنهم متفضلون على هؤلاء الأجانب بأن سمحوا لهم بأن يحصلوا الثراء فى ديارهم .

وفى هذه الأرجاء الشاسعة من البلاد التى جبتها لم أجد غير أزمير مدينة يمكن أن تعتبر غنية قوية ، والأوربيون هم الذين جعلوها كذلك ولو وكل أمرها إلى الأتراك لجعلوها أشبه بسائر المدن .

وهذه — يا عزيزى روستان — فكرة صادقة عن هذه الإمبراطورية التى كانت قبل قرنين من الزمان ميداناً لانتصارات بعض الفاتحين .

فى أزمير فى ٢ من رمضان سنة ١٧١١ .

(١) يريد اليونانيين .

الرسالة العشرون

من أوزبك إلى زوجته زاشي بقصر أصفهان

لقد أساءت إلىّ يا زاشي ، وأحس فى قلبي تقلبا ينبغى أن تخافيه إذا لم يدع لك بعادى عنك فرصة من الوقت تغيرين فيها من سلوكك ، وتهدئين فيها الغيرة العنيفة التى تأكل قلبي .

إنى أعلم أنك وجدت فى خلوة بنادر : الخصىّ الأبيض الذى سيدفع رأسه ثمناً لغدره وخيانته . كيف يبلغ بك النسيان حداً ألا تشعرى أنه غير مسموح لك بأن تستقبلى بحجرتك خصيا أبيض مادام فى خدمتك عدد من السود ؟ ومن لغو القول ما قلت لى : إن الخصيان ليسوا رجالا ، وأن طهرك يضعك فوق الأفكار التى يمكن أن يولدّها عنك عدم التكافؤ . وهذا قول لا يقنعك ولا يقنعنى . أما أنت فلأنك فعلت شيئا يحرّمه عليك قانون القصر ، وأما أنا فلأنك سلبت شرفى بتعرضك للنظرات ، أقول : للنظرات . وربما تلوثت بتصرفات خائن وجرائمه ، وفوق ذلك بحسراته وبيأسه الناشىء عن عجزه .

ربما قلت لى إننى كنت مخلصة دائما لك . عجبا ! أتستطيعين ألا تكونى مخلصة ؟ وكيف كنت تغافلين يقظة الخصيان السود الذين يرقبون الحياة التى تحيينها ؟ وكيف كنت تكسرين المزاليج والأبواب الموصدة عليك ؟ أنت تفخرين بالطهر الذى لم يترك للتجربة ،

وإلا لأمكن أن تسلبه منك ألف مرة نزواتك القذرة ، ولحرمت الإخلاص الذى تتشدقين به كثيرا .

وددت لو لم تفعلى قط ما يثير شكوكى ، وأن هذا الوغد لم تمتد يداه الدنستان إليك ، وأنك لم تمتعى نظره بمتاع سيده ، وأنك استترت بثيابك ، وأقمت هذا الحاجز اليسير بينك وبينه ، وأنك ألجأته إلى أن يستشعر فى نفسه هذا الاحترام المقدس نحوك ، لو كنت فعلت ذلك لغضّ بصره ، ولظل لجبنه مضطرباً أمام العقاب الذى هيأ نفسه له . وإن صحّ كل ما نسب إليك فلا أقلّ من أنك ارتكبت شيئا يخلّ بواجبك . وإذا كنت حملته على المخالفة دون أن يستفيد شيئا ، ودون أن يشبع نزواتك الجامحة ، فماذا عساك أن تفعليه لترضى هذه النزوات .

وماذا تريدين بعد أن تفعلى إذا استطعت أن تخرجى من هذا المكان المصون الذى تعتبرينه سجناً ، وهو لرفيقاتك ملجأ أمين يحميهن من أذى الرذيلة ، ومعبد مقدس يعالج ضعفك الجنسىّ ، وهو حمى لا يرام بالرغم من خور طبيعتكن ؟ أو ماذا تفعلين إذا تُركت وشأنك ، ولم يكن عندك من وسائل الدفاع عن نفسك سوى حبك إياى ، ذلك الحبّ الذى أسأت إليه إساءة بالغة ؟ والواجب الذى خنته خيانة زريّة .

ما أطهر تقاليد البلد الذى تعيشين فيه ! إنها خلصتك من جنايات أخسّ العبيد ! ينبغى لك أن تعترفى بفضلى إذ فرضت عليك أن تحبسى فى المكان الذى أنت به ، لأنى لا أجد مكانا غيره أجدر بأن تعيشى فيه .

إنك لا يمكن أن تحتملى رئيس الخصيان لأن عينيه ساهرتان على سلوكك ، ولأنه يسدى إليك نصائحه الرشيدة . لقد قلت : إن دمامته

بلغت حداً لا تحتملين معه رؤيته دون ألم ، ولكن فى رعاية مثله يضع المرء كنوزه الثمينة . والحق أن الذى يضايقك هو أن الخصى الأبيض الذى يدنس شرفك ليس فى مكان هذا الأسود . وماذا فعلت بك جاريتك الأولى ؟ إنها قالت لك : إن رفع الكلفة بينك وبين الجارية الصغيرة زيليد خارج عن حد اللياقة . هذا فقط هو سبب كراهيتك إياها .

يا زاشى ، يجب أن أكون قاضيا صارما ؛ فلست إلا زوجا لا يبتغى من بحثه إلا أن يراك بريئة . إن ما عندى من الحب لزوجتى الجديدة روكسان جعلنى أشعر برقة وحنان نحوها ، وينبغى أن يكون لك عندى مثله فلست أقل منها جمالا . سأقسم حبى بينكما . ولا تفوقك روكسان إلا بأن عفتها ممزوجة بجمالها .

من أزمير فى ١٢ من ذى القعدة سنة ١٧١١ .

الرسالة الحادية والعشرون

من أوزبك إلى كبير الخصيان البيض

لا بد أن تضطرب عند فض هذه الرسالة ، أو بالحرى ينبغى أن تكون قد اضطربت حينما أغضيت عن خيانة نادر . وأنت فى هذه الشيخوخة الباردة الهزيلة لا تستطيع — دون جرم — أن يمتد طرفك إلى الأشياء المنيعة التى أعدت لمتاعى ، وأنت الذى وكلت إليه ألا يسمح مطلقا لقدم خائنة أن تقف بباب المكان المنيع لتختلس النظرات من كل ما تقع عليه العين . لقد سمحت لمن وضعت فيهم الثقة أن يفعلوا ما لم تجترىء أنت عليه ، ولم تحسب حساب الصاعقة التى توشك أن تنقض عليك وعليهم .

ثم ما أنت ؟ إنك من الآلات الخسيسة التى أستطيع أن أحطمها كما أشاء ، وليس لك أن تعيش إلا فى طاعتى ، ولن توجد فى الدنيا إلا لتحيا خاضعاً لشريعتى ، أو لتموت بأمرى ، ولا تبقى على قيد الحياة إلا لتخدم سعادتى وحبى وغيرتى إذا تطلبت هوانك . ولا يمكن أن يكون لك همّ فى الحياة إلا خضوعك لى ، ولا روح إلا حيث أريد ، ولا امل إلا أن أهنأ :

إننى أعلم أن بعض نسائى يتألمن ألما لا صبر معه من القوانين القاسية التى يفرضها الواجب، وأن ظهور الخصىّ الأسود لهن باستمرار يضايقهن ، وانهن متعبات من هذه الأوامر المزعجة التى يردهن بها إلى رعاية حق

الزوج . إنى أعرف ذلك ، ولكنك أنت الذى سمح لهذه الفوضى أن تكون . ستعاقب عقابا زاجراً لكل من يخلّ بالثقة التى أمنحها .

إنى أحلف بجميع أنبياء الله ، وبعلى أعظم الأوصياء جميعاً ، أنك إذا قصرت فى واجبك فسأرى حياتك كحياة الحشرات التى أجدها تحت قدمىّ .

من أزمير فى ١٢ من ذى القعدة سنة ١٧١١ .

الرسالة الثانية والعشرون
من جارون إلى كبير الخصيان

كلما ابتعد أوزبك عن القصر لوى رأسه نحو نسائه المصونات . إنه يتنهّد ، ويسكب الدمع ويشتد ألمه ، وتقوى شكوكه ، ويريد أن يزيد من عدد حراسهنّ . إنه سيرسلنى إليكم مع جميع العبيد السّود الذين يصحبونه . إنه لم يعد يخاف على نفسه ؛ إنه يخاف على من هنّ أعزّ عليه من نفسه ألف مرة .

إنى غادٍ إليك إذن لأعيش تحت أمرك ، وأشاركك العمل ، إلهى ! ما أعظم شأنك ! كم من الأسباب تُعدُّ لسعادة رجل واحد !

يبدو أن الطبيعة وضعت النساء تحت قوامة الرجال ، ثم أخرجتهن منها ثانية ، وقد نشأت الفوضى بين الجنسين لأن حقوقهما متكافئة . أما نحن فقد دخلنا فى نمط لنسقٍ جديد : فأنشأنا الكراهية بيننا وبين النساء ، والمحبة بين الرجال والنساء .

ستصير جبهتى متجهّمة ، وسأرسل نظرات عابسة . وسيفرّ السرور من بين شفتىّ . سيكون ظاهرى هادئاً ، وروحى قلقة . لن أنتظر قط تجاعيد الشيخوخة لأظهر فيها أحزانى .

لقد كان يسرنى أن أكون فى حاشية سيدى ببلاد الغرب ، ولكنّ إرادتى ملك له ، لقد شاء أن أحرس له نساءه ، وسأحرسهن بإخلاص . وأنا أعرف كيف أسوس هذا الجنس الذى إذا حيل بينه وبين العبث بدا متكبرا ، والقضاء عليه أيسر من إذلاله . إنى تحت رعايتك .

فى أزمير ١٢ من ذى القعدة سنة ١٧١١ .

الرسالة الثالثة والعشرون

من أوزبك إلى صديقه إيبن فى أزمير

أبحرنا أربعين يوما وصلنا فيها إلى ليفورن ، وهى مدينة جديدة وهى دليل على عبقرية دوقات توسكانيا الذين جعلوا من قرية مملوءة بالمستنقعات أعظم مدن إيطاليا ازدهارا .

والنساء فيها يتمتعن بحرية واسعة : إنهن يستطعن رؤية الرجال من خلال بعض النوافذ التى تسمى غَشْيرات (Jalousies) : ويستطعن الخروج كل يوم مع بعض العجائز : ولا يضعن على وجوههن إلا قناعاً شفافا[1] . وإخوان أزواجهن وأعمامهن وأخوالهن والأحفاد يستطيعون رؤيتهن ، دون أن يستنكر الزوج من ذلك شيئاً .

إنه لمشهد رائع أن يرى مسلم لأول مرة مدينة مسيحية . ولن أتحدث عن الأشياء التى تسترعى الانتباه كاختلافنا فى المبانى والملابس والعادات الأساسية : إن فى جميع ماأرى حتى فى التنزهات شيئاً طريفاً يجعلنى أشعر شعوراً غريباً لا أستطيع التعبير عنه .

سنرحل غدا إلى مرسيليا ، ولن نطيل فيها الإقامة ، وخطتى أنا وريكا أن نتجه بلا توقف إلى باريس التى هى قاعدة الأمبراطورية الأوربية .

إن المهاجرين يؤمون دائماً المدن الكبيرة التى تعتبر كموطن عام لجميع الأجانب . وداعاً . وكن على يقين من أننى مقيم على حبك .

من ليفورن فى ١٢ من شهر صفر سنة ١٧١٢ .

---

(١) شفا : لايستر ماوراءه ستراً تاماً .

الرسالة الرابعة والعشرون

من ريكا إلى إيبن في أزمير

لقد حللنا باريس منذ شهر ، كنا فيه فى حركة دائبة . فالمرء قبل أن يسكن فى حاجة إلى إعداد تام ، وإلى أن يجد الناس الذين يتجه إليهم ، وإلى أن يؤثث مسكنه بالأشياء الضرورية التى يحتاج إليها دائماً .

باريس كبيرة كإصفهان ، فالمنازل فيها عالية إلى درجة أن الناس يحلفون أنها لم تعمر إلا بالفلكيين[1] . ومن السهل أن تدرك أن مدينة مبنية فى الهواء ، فيها ست بيوت أو سبعة بعضها فوق بعض ، غصّت بالسكان ، إذا خرج جميع سكانها فى الشارع فإنه يضيق بهم .

قد لا تصدقنى فى ذلك ، فمنذ شهر من وجودى هنا ، كنت لا أجد أحداً يسير فى المدينة . ليس فى الدنيا أناس يستغلّون أجسامهم كالفرنسيين ، إنهم يجرون ، بل يطيرون ، فعربات آسيا البطيئة ، وخُطا جمالنا المنتظمة ، تصيبهم بدُوار . وأنا الذى لم أتعود مطلقاً هذا الانطلاق ، أغدو وأروح على قدمىّ دون أن أغير مشيتى ، أنطلق أحياناً كما ينطلق المسيحى فلا أكاد أسير حتى أتلطّخ من رأسى إلى قدمىّ ، ولا أستطيع أن أغفر ما ينالنى من ضربات الأذرع المتتالية بانتظام . وحدث أن رجلا كان آتياً من ورائى ، فصدمنى صدمةً أدارتنى نصف

(١) أى سكنوها لعلوها لرصد الكواكب .

دائرة ، وصدمني آخر من الناحية الأخرى فأوقعني لجأة حيث صدمني الأول، ولم أسر إلا مائة خطوة حتى تحطمت كأني سرت عشرة فراسخ .

ولا تظن أني أستطيع الآن أن أحدثك بعمق عن أخلاق الأوربيين وعاداتهم ، لأني أنا نفسي لم أكون عنها إلا فكرة يسيرة ، فلم يكن لدىّ وقت إلا لأعجب مما أرى .

إن ملك فرنسا أعظم ملوك أوربا . إنه لا يمتلك مناجم الذهب كجاره ملك أسبانيا ، لكنه أوسع منه ثراء ؛ لأنه يستغل غرور رعيته وحبهم للفخر ، وهذا مورد لا ينفد كما تنفد المناجم ، فإذا أراد أن يثير حرباً ضروساً ، أو يعين عليها فليس له مورد إلا أن يبيع ألقاب الشرف ؛ فبمعجزة الغرور الإنساني يدفع مرتبات جنده ، ويقوّى حصونه ، ويعدّ أساطيله .

ومن جهة أخرى فإن هذا الملك ساحر عظيم ، إذ يؤثر بسلطانه أيضاً على تفكير رعيته فيجعلهم يفكرون كما يريد ؛ فإن لم يكن فى خزانته سوى مليون جنيه ، وهو فى حاجة إلى مليونين ، فما عليه إلا أن يقنعهم بأن جنيها يساوى جنيهين فيصدقوه ، وإذا كانت حرب شديدة الوطأة ، وهو مفلس ، فلا يكلفه ذلك إلا أن يُدخل فى روعهم أن قطعة الورق مال فيسلموا له بذلك ؛ بل بلغ الأمر إلى أن جعلهم يعتقدون أنه يشفيهم من شتى الآلام إذا لمسهم ؛ فما أعظم قوته وسلطانه على نفوسهم !

إن ما أحدثك به عن هذا الملك لا ينبغى أن يثير عجبك ؛ إذ أن هناك ساحراً آخر أعظم منه قوة : سلطانه على الملك نفسه أعظم من سلطان الملك على سائر الناس . هذا الساحر يسمى البابا : فلطالما أقنع الملك أن

ثلاثة ليست إلا واحداً ، وأن ما يؤكل من الخبز ليس خبزاً ، وأن ما يشرب من النبيذ ليس نبيذاً ، وأمثلة كثيرة من هذا النوع .

وليبقى الملك متعلقاً به دائماً ، ولئلا يدع له قط أن يفقد ما اعتاده من الإيمان به ؛ فقد درج على أن يرسل إليه من وقت لآخر بعض مبادىء الدين ليعمل بها ؛ فمنذ سنتين أرسل إليه كتاباً كبيراً يسمى : دستوراً ، وأراد أن يضطر هذا الملك وشعبه — مهدداً بعقوبات جسيمة — أن يؤمنوا بكل ما حوى هذا المكتوب . أما الملك فقد نجح معه ، إذ خضع من فوره وأعطى بذلك مثلا لرعيته ، ولكن بعضهم تمردوا ، وقالوا : إنهم لا يريدون أن يصدقوا مطلقا بكل ما جاء فى هذا المكتوب . إن النساء كن المحركات لهذه الثورة ، فأحدثن انقساما فى البلاط ، وفى كل المملكة ، وفى كل الأسر . إن هذا الدستور حرّم عليهنّ أن يقرأن كتابا يقول جميع المسيحيين إنه نزل من السماء . وانه قرءانهم : ولغيظهن من الإهانة التى وجهت إلى جنسهن أثرن القوم كلهم ضدالدستور ، وضمن الرجال إلى جانبهن إذ لم يكونوا راغبين مطلقا فى هذه الفرصة أن يمتازوا على النساء بشىء . ومع ذلك يجب الاعتراف بأن المفتى لم يسىء تعليل الرأى ، ورأى علىّ العظيم يوجب تعلم مبادىء قانوننا المقدّس : وبما أن النساء خَلْقٌ أدنى منا ، وقد أخبرنا بأنهن لن يدخلن الفردوس قط ، فلماذا نوجب عليهن أن يُقبلن على قراءة كتاب لا غاية من قراءته إلا معرفة الطريق إلى الفردوس ؟

سمعت عن الملك أموراً تدخل فى العجائب ، ولا أشك فى أنك لن تتردد فى تصديقها .

يقال : إنه حينما اشتبك الملك فى حرب مع جيرانه الذين تحالفوا جميعاً عليه ، كان فى مملكته عدد لا يحصى من أعداء له غير ظاهرين يحيطون

به من كل جانب ، ويقال أيضا : إنه بحث عنهم فى مدة تربو على ثلاثين عاما ، وبالرغم من عناية بالغة لا يدركها فتور ، من بعض أتباعه الذين يحظون بثقته ، فإنه لم يستطع أن يظفر بواحد منهم . إنهم يعيشون معه ، إنهم فى بلاطه ، وفى عاصمته ، وفى جيشه ؛ وفى محاكمه ، ومع ذلك يقال : إنه ليَحزُنه أن يموت قبل أن يعرفهم . يقال : إنهم موجودون بوجه عام ، ولكن لا وجود لهم على وجه التخصيص : إنهم جسم ، ولا أعضاء . وبلا شك ، كأن الله أراد أن يعاقب هذا الملك لأنه لم يكن عنده حظ من الاعتدال نحو أعدائه الذين انتصر عليهم ، فأعطاه من الأعداء أعداء غير ظاهرين لهم من العبقرية والحظ ما يفوق عبقريته وحظه .

سأستمر فى الكتابة إليك ، وسأخبرك بأشياء بعيدة كل البعد عن طبيعة الفرس وذكائهم . إنها هى الأرض التى تحملنا جميعا ؛ لكن الناس فى القطر الذى أعيش فيه ، والناس الذين يعيشون فى القطر الذى أنت به — يختلفون أشد اختلاف .

من باريس فى ٤ من ربيع الآخر سنة ١٧١٢ .

الرسالة الخامسة والعشرون

من أوزبك إلى إيبين في أزمير

تسلمت رسالة من ابن أخيك رعدى ، أخبرنى فيها بعزمه على الرحيل من أزمير إلى إيطاليا ، وأن هدفه الوحيد من رحلته أن يتعلم، ويصبح بالتعلم أكثر منك فضلا . إنى أهنئك بأن يكون لك ابن أخ سيكون لك هناءة وسلوى فى الشيخوخة .

إن ريكا يكتب إليك رسالة طويلة ، وقد أخبرنى أنه حدثك كثيرا عن هذه البلاد التى نحن فيها . إن حيويّة تفكيره تجعله يلتقط الأشياء بسرعة ، أما أنا فلأنى أبطأ تفكيرا ، فلست فى حال تسمح لى بأن أقول لك شيئاً ذا بال .

إنك موضوع أحاديثنا الرقيقة : ولا نستطيع أن نوفى القول عن استقبالك الجميل فى أزمير ، ولا عن الخدمات التى تدفعك المحبة إلى أن تقدّمها لنا كل يوم . أيمكن أيها الكريم - إيبن - أن تجد أينما كنت أصدقاء شاكرين للمعروف مخلصين مثلنا ؟

أأستطيع أن أراك قريبا ، لأستعيد معك تلك الأيام السعيدة التى مرت سريعة حلوة بين صديقين ! ؟ وداعاً .

من باريس فى ٤ من شهر ربيع الآخر سنة ١٧١٢ .

الرسالة السادسة والعشرون

من أوزبك إلى روكسان بسراى أصفهان

ما أسعدك ياروكسان بكونك فى بلاد فارس الجميلة ، وأنك لست فى هذه الأجواء المسمومة حيث لا يعرف الناس الحياء ولا العفة !

ما أسعدك ! تعيشين فى قصرى كما تقيم البراءة بعيدة كل البعد عن شرور الإنسانية ، وتجدين نفسك — مع السرور — سعيدة بالعجز عن الزلل ، بعيدة عن أن تمتد إليك نظرة آثمة من رجل : فحماك نفسه فى الحفلات وحريتها لم يستطع أن يرى ثغرك الجميل ، ولم تقصرى قط فى ستره ببرقع مصون .

ما أسعدك ياروكسان ! عندما تكونين فى الريف يكون لديك عدد من الخصيان الذين يمشون أمامك ليقتلوا كل جرىء لا يفر حتى لا تقع عيناه عليك .

وما أشد حزنى فى أيام زواجنا الأولى لأنى لا أزال فيها ! وما أقل صبرى عن رؤيتك ! ولكنك مع ذلك لم تشبعى رغبتى فيك ، بل على عكس ذلك أشعلت رغبتى فيك بالإباء العنيد ، والحياء النافر ، وكأنك لم تفرقى بينى وبين غيرى من الرجال الذين يحق لك أن تختفى منهم دائما ... أتذكرين ذلك اليوم الذى اختفيت فيه منى بين عبيدك الذين أطاعوك .

تخدعونى ، ففررت من بحثى عنك ؟ وذلك اليوم الذى ذرفت فيه دموعك الضارعة .. أتذكرين ذلك الوقت الذى فقدت فيه كل رسائلك المستمدة من شجاعتك ؟

لقد أخذت خنجرا وهددت بأن تذبحى به زوجا يحبك ، إذا استمر فى مطالبتك بشىء تحبينه أكثر من حبك إياى . شهران مرا فى هذه المعركة بين الشهوة والحياء . وأمعنت فى طهرك الأبىّ ، ثم ظللت ثلاثة أشهر لا تستطيعين فيها أن تنظرى إلى دون أن يحمر وجهك ، وكأن محياك الخجل يؤنبنى ... ، ولم أشعر أننى ملكتك ملكا تاما ؛ فقد كنت تحرمينى من كل ما تملكين إبداءه من جاذبية وفتنة ، وقد كنت نشوان بما لدىّ من متع عظيمة لا أظفر منها بشىء .

ولو أنك نشأت فى هذه البلاد التى نحن فيها الآن ما كنت تضطربين هذا الاضطراب ؛ فالنساء هنا فقدن كل تصوّن : فهن يبرزن للرجال بوجه مكشوف كأنهن يرغبن فى هزيمتهن ، إنهن يبحثن عنهم بنظراتهن ، ينظرن فى الطرقات وفى بيوتهن أيضا . واستخدام الخصيان غير معروف عندهن . ويقابل البساطه النبيلة ، والحياء المحبب الذى يسودكن وقاحة شرسة هنا لا يمكن أن يألفها الإنسان .

نعم ـ ياروكسان ـ لو كنت هنا لاستشعرت الهوان فى هذا العار الشنيع الذى تردى فيه جنسكن ، ولفررت من هذه الأماكن الفاحشة ، ولتنهدت من أجل مأواك الأمين الذى تجدين فيه الطهر ، وتطمئنين فيه

على نفسك ، ولا تتعرضين فيه لأى خطر يزعجك ، وأخيرا تستطيعين فيه أن تحبيني دون خوف من أن تفقدى شيئا من حبك إياى .

وعندما تجملين وجهك البهى بأجمل الألوان ، وحينما تتعطرين بأنفس العطور ، وعندما تتزينين بأجمل ثيابك ، وحينما تحاولين أن تتفوقى على أترابك فى الرقص وبحلاوة الغناء ، وحينما تنافسيهن — برقة وظرف — فى الجاذبية والحلاوة والمرح . حينما تفعلين شيئا من ذلك لا أستطيع ان أتخيل أن شيئا ما عندك لا يحوز إعجابى ، وحينما أراك فى تواضع تحمرين خجلا إذا التقت نظراتك بنظراتى وتتسللين إلى قلبى بكلماتك الرقيقة الملاطفة ، لا أعرف طريقا للشك فى حبك ياروكسان .

ولكن كيف ينبغى أن أفكر فى نساء أوربا ! إن فنهن فى صبغ وجوههن وفى أنواع الزينة التى يتجملن بها ، وعنايتهن بأنفسهن ، ورغبتهن الملحة فى نيل الإعجاب ممن يهتم بهن ، كل هذه بقع تدنس شرفهن ، وإهانات لأزواجهن . وليس معنى هذا ياروكسان أنى أفكر فى أنهن يدفعن الجريمة إلى مدى بعيد حتى أن سلوكا كهذا ينبغى أن يظن منه أنهن يسرفن فى الفجور إسرافا شنيعا تقشعر منه الأبدان ، ويسىء إساءة بالغة إلى الثقة الزوجية ، والوفاء لها . وهناك عدد قليل تُركن للانطلاق إلى هذا المدى : إنهن جميعا يحملن فى قلوبهن حظاً من الفضيلة رسخ فيها ، ورثته من بيوتهن وأضعفته التربية لكنها لم تقض عليه ، ، إنهن يستطعن التحلل من واجباتهن الخارجية التى يتطلبها الحياء ، ولكن إذا كان الأمر يتعلق بأن يسرن الخطوات الأخيرة فإن الطبيعة تثور .

وهكذا ترين أننا عندما نحجبكن ، ونضيق عليكن ، ونحرسكن بالعديد من العبيد ، وعندما نكبح جماح شهواتكن إذا أرادت الانطلاق ، فليس

ذلك لأننا نخشى خيانتكن، بل ذلك لأننا نعلم أن الطهر مهما عظم لا يسلم، وأن أقل دنس يلوثه .

إنى أشفق عليك ياروكسان ، فطهرك الذى ثبت طويلا على الاختبار جدير بزوج لا يغادرك مطلقا ، وهو الذى يستطيع بنفسه أن يكبح نزواتك التى لا تخضع إلا لعفتك .

باريس فى ٧ من رجب سنة ١٧١٢ .

الرسالة السابعة والعشرون

من أوزبك إلى ناصر بأصفهان

نحن الآن فى باريس : تلك المدينة الرائعة المنافسة لمدينة الشمس . وعندما غادرت أزمير كلفت صديقى إيبن أن يسلمك صندوقا به هدايا لك ، وستتسلم هذه الرسالة من هذا الطريق نفسه .

وبالرغم من أن بينى وبينه خمسمائة فرسخ أو ستمائة فإنى أعرّفه أخبارى ، وأعرف أخباره بسهولة ، كما لو كان بإصفهان وكنت فى قم . إننى أرسل رسائلى إلى مرسيليا التى ترحل منها باستمرار سفن إلى أزمير ، ومن هناك يرسل منها ما يخص فارس عن طريق القوافل الأرمينية التى ترحل كل يوم إلى إصفهان .

ريكا يتمتع بصحة تامة : فقوة بنيته ، وشبابه ، ومرحه الطبيعى تجعله دائماً يتغلب على كل ما يلاقيه .

أما أنا فلست فى عافية ، لأن جسمى وعقلى مجهودان ، ولأنى أستسلم لأفكار يشيع فيها الحزن يوما فيوما ، وصحتى التى بدأت تضعف جعلتنى أتجه بمشاعرى نحو وطنى ، وجعلت هذه البلاد التى نحن فيها غريبة جداً علىّ .

لكنى أستحلفك يا نصير أن تدع نسائى يجهلن حقيقة حالى ، لأنهن إن كن يحببنى فإنى أحب أن أحبس دموعهن ، وإن كن على عكس ذلك فإنى لا أريد أن أزيد من غطرستهن .

وإذا عرف خصيانى أننى فى خطر ، وأمنوا العقاب على الملاطفات الدنيئة فإنهم سيصغون من فورهم إلى صوت المداعبة من هـذا الجنس الذى يسمع الصخر ، ويحرك ما لا حياة فيه .

وداعاً يا نصير . وقد سرّنى أنى قدمت لك الأدلة على ثقتى بك .

من باريس فى ٥ من شعبان سنة ١٧١٢ .

الرسالة الثامنة والعشرون

من ريكا إلى ......

رأيت أمس شيئاً غريباً إلى حد ما ولو أنه يحدث كل يوم فى باريس. وذلك أن الناس يجتمعون فى آخر العشاء، ثم يمثلون مشهداً سمعتهم يسمونه هزليا. وأكثر الحركات على منصة عالية فسيحة تسمى مسرحا، وعلى جانبيه مقاصير صغيرة تسمى (ألواجاً) فيها رجال ونساء يمثلون معاً تمثيلا صامتاً يشبه كثيراً ما هو متبع فى بلادنا (فارس).

هنا محبة تيمها الحب تعبر عن ضناها، وأخرى أكثر حيوية تلتهم حبيبها بعينيها، وهو يلتهمها كذلك، وجميع الأهواء والميول بادية على الوجوه، مُعبَّر عنه أفصح تعبير. وليست التمثيلية أقل حياة لأنها صامتة. وهناك لا تظهر الممثلات إلا بنصف أجسامهن ويحملن عادة فراء مراعاة للحشمة يسترن بها أذرعهن. وفى أسفل المسرح مجموعة من الناس واقفة تسخر من الممثلين الذين فوقه، وهؤلاء يضحكون من الأولين.

ولكن الذين يحملون أكبر نصيب من الجهد فئة قليلة، اختيرت لهذا العمل، تَقَدَّمَ سنُّ أفرادها تقدماً لا يطيقون معه التعب الذى يتحملونه، إنهم مضطرون إلى التنقل السريع من مكان إلى مكان. ويمرون من أماكن لا يعرفها غيرهم، ويصعدون بمهارة من طابق إلى طابق، ولا تكاد تجدهم أعلى حتى تراهم فى الأسفل، وتجدهم فى كل مقصورة، ويغوصون حتى يقال إنهم قد فقدوا، ثم يظهرون مرة أخرى

وكثيراً ما يتركون مكان التمثيل ليذهبوا إلى تمثيلية بمكان آخر . ويرى أيضاً أولئك الذين يغدون ويروحون على عكازات فى سهولة كسائر الناس الذين يمشون على أرجلهم وذلك إعجاز ما كان يمكن أن يصل إليه الوهم . وأخيراً يذهب الناس إلى مسارح تمثل فيها هزليات خاصة : وتبدأ الهزلية بانحناء الرءوس للتحية ، ثم بالعناق ، ويقال إن هذا التعارف أعطى رجلا الحق فى أن يضمه آخر ضماً شديداً . ويبدو أن المكان يشعر بالشفقة . وقد قيل إن الأميرات اللائى يحكمن هذا المكان لم يكن عنيفات مطلقاً ، ما عدا ساعتين أو ثلاثا فى اليوم يكن فيه عنيفات بعض العنف . ويمكن أن يقال إنهن فى سائر الأوقات رقيقات لينات ، والنشوة تغادرهن بسهولة .

وكل الذى أحدثك به يكاد يجرى مثله تماما فى المكان الذى يسمونه (أوپرا) وكل ما بين الحالين من فرق أن المكان الأول ، حديث ، والأوبرا بها غناء . وبالأمس قادنى أحد أصدقائى إلى مقصورة تخلع فيها إحدى الممثلات الرئيسيات ، وتعرفنا تعرفا وثيقاً استدعى أن أتسلم فى اليوم التالى رسالة منها هذا نصها :

« سيدى . . .

« إننى أتعس فتاة فى الدنيا ، وقد كنت دائماً أعف ممثلة فى الأوپرا . ومنذ سبعة أشهر أو ثمانية كنت فى المقصورة التى رأيتنى فيها أمس . وحينما كنت فى زى كاهنة لإلهة الصيد جاء إلىّ شماس ، لم يحترم ثيابى البيضاء الكهنوتية ولا طرحتى البيضاء وعصابتى ، وخدع براءتى . وعبثاً بالغت له فى بيان شناعة التضحية التى فعلتها معه ، فأمعن فى الضحك ثقة منه بأننى أبعد ما أكون عن القداسة . ومع ذلك فأنا حبلى لا أجرؤ لكبر بطنى على الظهور ثانية على خشبة المسرح . أما من ناحية الشرف

فإنى مرهفة إلى حد لا يمكن تصوره ، وأنا دائماً على الرأى القائل : إن الفتاة الأصيلة تفقد عفتها أيسر مما تفقد حياءها . ومن هذه الرهافة يسهل عليك أن تدرك أن هذا الشاب الشماس لم يكن لينجح معى،لولا أنه وعدنى بأن يتزوجنى،وبهذا الباعث الشرعى سار بى فى الإجراءات المألوفة فى مثل هذه الحال ، وبدأ بالنهاية التى كان ينبغى أن تكون آخر شىء ، فصرت بعد أن دنس شرفى بغدره غير راغبة فى العمل بالأوبرا ، لأنهم — وهذا سر بينى وبينك — لا يعطوننى مطلقا ما يكفى لحياتى ، ولأنى منذ الآن تتقدم بى السن ، وأفقد مظاهر الجاذبية ، أما أجرى فباق على ما هو عليه ، بل يبدو أنه سينقص على مر الأيام . وقد علمت من رجل بحاشيتك أن بلادك تقدر الراقصة الماهرة تقديراً كريماً . فإذا صرت فى أصفهان وأتانى الحظ مسرعاً . فإذا تفضلت بأن تمنحنى رعايتك وصحبتنى معك إلى هذا البلد فإنك بذلك تقدم معروفا إلى فتاة بعفتها وسلوكها لن تستسلم لما يحرمها من أن تكون جديرة بإحسانك وفضلك . إننى . . . »

باريس فى ٢٠ من شوال سنة ١٧١٢ .

الرسالة التاسعة والعشرون

من ريكا إلى إيبن في أزمير

البابا رأس المسيحيين ، وهو معبودهم القديم الذى اعتادوا تمجيده . وقديماً كان الملوك أنفسهم يرهبونه ، لأنه يخلعهم فى يسر كما يفعل سلاطيننا العظام مع ملوك أرمينيا وجورجيا . والآن لم يعد أحد يخشاه ، ويقول هو عن نفسه : إنه وارث أحد المسيحيين الأوائل المسمى القديس بطرس . والحق إنه ميراث ضخم : لأن لديه كنوزاً هائلة ، وقطراً كبيرا تحت سلطانه .

والأساقفة هم رجال القانون الذين يخضعون له ، ثم إن لهم تحت سلطانه عملين مختلفين أشدّ اختلاف : إذا اجتمعوا فعلوا ما يفعله البابا من إعداد نصوص العقيدة وإذا انفردوا لم يكن لهم عمل قط إلا الإعفاء بفتاواهم من تنفيذ القانون . ذلك لأنك تعلم أن الديانة المسيحية مثقلة بعدد لا حصر له من الشعائر الصعبة . ولما كان من المسلم به أن القيام بهذه الواجبات الدينية لا يكون أيسر إلا بأساقفة مبشرين بفتاواهم ، فقد أخذوا هذا الجانب الأخير من العمل رعاية للمصلحة العامة : فمثلا إذا أراد الإنسان ألا يصوم ، أو أراد ألا يلتزم بمراسيم الزواج ، أو ألا يفي بنذره ، أو أن يتزوج غير عابىء بالموانع القانونية ، بل فى بعض الأحيان لو أراد أن يحنث فى قسمه ، فما عليه إلا أن يذهب إلى الأسقف أو إلى البابا فيمنحه الإعفاء فى الحال .

والأساقفة لا يضعون نصوص الدين من تلقاء أنفسهم . فهناك عدد لا يحصى من الفقهاء ، وجمهرتهم من النسّاك ، يثيرون فيما بينهم كثيراً من المسائل الجديدة فى الدين : ويدعونها للجدل طويلا ، وتظل حربُ الرأى الضروس قائمة حتى ينتهى الأمر فيها إلى قرار .

وهكذا أؤكد لك أنه لم تكن قط مملكة مسرحا للحروب الأهلية كمملكة المسيح . إن الذين يُخرجون إلى حيز الوجود رأياً جديداً يُدعون فى أول الأمر مارقين . ولكل بدعة اسمها ، وكأن هذا الاسم كلمة السر عند الذين يعتنقونها . وليس كل من يريد الابتداع مبتدعا : فما هو إلا قسمة الخلاف مناصفة ، ويُميز الذين يُتهمون بالبدعة من سواهم ، ومهما يكن التمييز واضحاً أو غير واضح ، فإنه يجعل إنساناً ناصع البياض كالثلج ، ويمكن أن يعد من الأورثوذكس .

إن ما أقوله لك لا بأس منه فى فرنسا وألمانيا : لأنى سمعت الناس يقولون : إن فى أسبانيا وإيطاليا بعض العباد الذين لا يعرفون المزاح ، يحرقون الإنسان كما يحرق الهشيم . وإذا وقع إنسان فى أيدى هؤلاء الناس(١) ، فالسعيد منهم من يسبّح الله دائماً بحبات(٢) صغيرة من الخشب فى يده ، أو يلبس من ثياب الرهبان ، أو زار أحيانا المقاطعة المسماة غاليسيا(٣) ! وإلا فهو مسكين وقع فى ورطة أى ورطة . فإذا حلف كالوثنيين أنه من الأرثوذكس ، فإنه من المحتمل جداً ألا يمهل حتى

---

(١) رجال محكمة التفتيش .

(٢) مسبحة .

(٣) كانت عاصمة سنتياجو ، وفيها قبر القديس سان جاك دى كومبوستل ، وهو قبر يزار ويحج إليه المسيحيون .

تفحص حاله ، ويحرق كما يحرق المبتدعون ، ومهما بيّـن أنه من المميزين ، فإنه بلا امتياز ، ويصير رماداً حتى قبل التفكير فى أن يستمع إليه .

إن القضاة الآخرين يظنون المتهم بريئاً ، أما هؤلاء فيرون المتهم دائما جانياً . وفى حالة الشك تصبح قاعدتهم فى الفصل الميل إلى القسوة . ويبدو أن ذلك لاعتقادهم أن الناس أشرار . لكنهم من ناحية أخرى يحسنون الظن بهم إذ لا يصمونهم أبداً بأنهم أهل للكذب : ويقبلون شهادة الأعداء الأساسيين والنساء ذوات السيرة السيئة ، وشهادة الذين يمارسون مهناً مخزية . وهم فى حكمهم يجاملون من يلبسون الثوب الكبريتى[1] مجاملة يسيرة : بأن يقولوا لهم : إنهم متألمون لرؤيتهم فى هذه الثياب التعسة ، وأنهم ذو رقة ، يمقتون الدم ، وأنهم متألمون لرؤيتهم محكوماً عليهم ، لكنهم يجدون عزاءهم أنهم يصادرون جميع ثروات هؤلاء التعسين ، ويستأثرون بها لأنفسهم .

ما أسعد الأرض التى يسكنها أبناء الأنبياء ! إن هذه المشاهد غير مألوفة فيها . والدين الكريم الذى حملته الملائكة إليها يحتمى بحقيقته نفسها ، فليس فى حاجة مطلقا فى بقائه إلى هذه الوسائل العنيفة .

من باريس فى ٤ من شوال سنة ١٧١٢ .

---

(١) ثوب يلبسه المحكوم عليهم بالإعدام .

الرسالة الثلاثون

من ريكا إلى الشخص نفسه في أزمير

أهل باريس فى درجة من التطلع والفضول تصل إلى حد الإفراط ، إذ أنه عند ما وصلت إليها كانت تتطلع إلىّ الأنظار كأننى هابط من السماء : فالشيوخ والرجال والنساء والأطفال كلهم يحبون أن يرونى . وإذا خرجت أطلّ الناس جميعاً من النوافذ ، وإذا حللت فى التويلرى رأيت دائرة من الناس أحاطت بى ، والنساء أيضا يكوّنّ حولى قوسا مزدانا بشتى الألوان . وإذا كنت فى مسرح أتفرج فيه أجد أول ما أجد مائة منظار تصوب نحو وجهى . وخلاصة القول : إن الأنظار لم تتجه إلى أحد كما اتجهت إلىّ . وسمعت أحيانا أن أناسا لا يكادون يخرجون من حجراتهم يقولون فيما بينهم : يجب أن نعترف أن سحنته سحنة فارسىّ . والشىء الذى يدعو إلى العجب أنى وجدت صورتى فى كل مكان : تنتشر فى جميع الدكاكين ، وفوق المدافىء . ويعلقون صورتى ما داموا يخشون ألا يظفروا برؤيتى فى وضوح .

وأرى أن الشرف العظيم لا يكون إلا بما يبرره ، ولا أرى نفسى شيئاً بالغ الغرابة ولا نادر الوجود . ومع أنى أحسن الظنّ بنفسى لم أتصور مطلقا أننى جدير بأن أقلق راحة مدينة كبيرة لم أعرف فيها قط . وقد حملنى ذلك على أن أخلع الثياب الفارسية وأرتدى الأوربية لأرى

هل يبقى فى سحنتى شىء مُعجِب . وهذه التجربة عرفتنى قيمتى الحقيقية ، إذ أننى لما تخلصت من كل حلية أجنبية قدرت تقديراً أدق ، وكان من حقى أن أتألم من الخياط الذى أفقدنى انتباه الجمهور وتقديره فى لحظة واحدة ، وحرمتنى حلته اعتبارى ، واهتمام الناس بى ؛ وكأنى لم أكن شيئاً مذكورا ، فصرت أحياناً أقضى ساعة فى جماعة دون أن يلتفت إلىّ أحد ، أو يتيح لى فرصة أن أفتح فمى ؛ ولكن إذا حدث عرضاً أن يخبر أحدٌ الجمع أننى فارسىّ سمعت حولى على الفور لغطاً : فيقول قائل : وى ! وى ! هل السيد فارسىّ ؟ هذا أمر غريب ! كيف يمكن أن يكون الإنسان فارسياً !

باريس فى ٦ من شوال سنة ١٧١٢ .

الرسالة الحادية والثلاثون

من رهيدى إلى أوزبك فى باريس

إننى الآن فى فينيس[1] ياعزيزى أوزبك . يستطيع المرء أن يرى جميع مدن الدنيا ثم يملكه العجب إذا وصل إلى فينيس ، ويظل مأخوذاً بأن يرى مدينة وأبراجاً ومساجد تخرج من سطح الماء ، ويرى عدداً من الناس لايحصى فى مكان كان ينبغى أن يرى فيه سمكا .

لكن هذه المدينة النجسة ينقصها أثمن كنز فى الدنيا : أعنى الماء الطاهر ، فمن المستحيل أن يتطهّر المرء فيها طهراً شرعياً ، ونبينا الطاهر يكرهها ، إنه لاينظر إليها من علياء سمائه إلا ساخطاً .

ولولا ذلك ياعزيزى أوزبك لكنت مفتونا بالحياة فى مدينة تزداد ثقافتى فيها يوما فيوما : تعلمت فيها أسرار التجارة ، وعرفت ما يشغل الأمراء وأساس تكوين حكومتهم . ولم أغفل شيئاً من أحوال الأوربيين إلا عرفتها حتى خرافاتهم . وعكفت على دراسة الطب والطبيعة والفلك ، واهتممت بدراسة الفنون حتى أتخلّص من السحب التى كانت تغطى ناظرىّ فى الوطن الذى ولدت فيه .

من فينيس فى ١٦ من شوال سنة ١٧١٢ .

---

(١) البندقية .

الرسالة الثانية والثلاثون

من ريكا إلى ......

بالأمس ذهبت لأشاهد بيتاً يجتمع فيه نحو ثلثمائة شخص يعيشون في مسكنة إلى حدّ ما . وقد بدا لي أن أخف لزيارة هذا البيت لأن الكنيسة والمباني لا تستحق الاهتمام .

والذين يقطنون في هذا البيت مرحون ، فكثير منهم كانوا يلعبون الورق ، أو ألعابا أخرى لا أعرفها مطلقاً . ولما هممت بالخروج خرج معي واحد منهم ، وعندما سمعني أسأل عن طريق ماري (Marais) وهو أبعد أحياء باريس ، قال لي إني ذاهب إليه ، وسأقودك فاتبعني . وهداني إلى الطريق بحال تدعو إلى العجب وخلصني من كل ارتباك ، ونجاني موفقاً من المركبات والعربات . فلما كدنا نصل دفعني حب التطلع إلى أن أسأله : أأستطيع ياصديقي الطيب أن أعرف ما أنت[1] ؟ فأجابني : إنني أعمى ياسيدي . فقلت له : وكيف يمكن أن يكون ذلك ؟ أأنت أعمى ؟ ولم لم ترج السيد الفاضل الذي كان يلعب الورق معك أن يقودنا ؟ فقال : إنه أعمى كذلك ، ثم قال : منذ أربعمائة سنة ونحن ثلثمائة أعمى في هذا البيت الذي وجدتني فيه . والآن ينبغي أن أتركك ، وهاك الشارع الذي سألت عنه ، أما أنا فسأدخل في غمار الناس ، ثم أدخل هذه الكنيسة وأقسم لك أنني سأحير فيها أكثر الناس الذين لن يستطيعوا أن يحبروني .

من باريس في ١٧ من شوال سنة ١٧١٢ .

(١) ما أنت ؟ أي ما حقيقة حالك ، وإلا لسأل بمن التي هي للعقلاء .

الرسالة الثالثة والثلاثون

من ريكا إلى .....

النبيذ غال جداً فى باريس لكثرة الضرائب المفروضة عليه ، كأنهم يريدون أن ينفذوا أحكام القرآن الذى يحرّمه .

عند ما أفكر فى الآثار المشئومة لهذا الشراب لا أستطيع أن أمتنع عن اعتباره أخطر هدية قدمتها الطبيعة للإنسان . وإن كان شىء يعيب حياة ملوكنا ، ويسىء إلى سمعتهم فهو إفراطهم فى الشراب ، إنه أفتك مورد مسموم جزاء ظلمهم وقسوتهم .

أقولها خزياً للناس : إن القانون حرّم الخمر على أمرائنا ؛ لكنهم يشربونها بإفراط يحط من قدرهم ، ويحرمهم شرف الانتساب إلى الإنسانية . هذه عادتهم وعلى عكس ذلك فهى عادة سمح بها للأمراء المسيحيين ، لكن لم يلحظ أنهم حينما يشربونها يرتكبون أى خطأ . والعقل الإنسانىّ هو التناقض بعينه . وفى الفجور الداعر يتمرّد الإنسان ضد التعاليم . وقد وُضع القانون ليجعل الناس أكثر استقامة ، لكنه فى أكثر الأحيان لا يستغلّ إلا فى جعلهم أكثر إجراماً . وإنى إذ أستنكر هذا الشراب الذى يقضى على العقل ، لا أستنكر المشروبات التى تُنعش الإنسان .

وحكمة الشرقيين تبدو فى البحث عن أدوية لعلاج الحزن كعنايتهم بمقاومة الأمراض الخطرة ، وإذا أصيب أوربىّ بضرّ فليست لهم وسيلة

لعلاجه إلا قراءة شيء للفيلسوف المسمى سنكا ، لكن الأسيويين أرشد من الأوربيين وأعلم بالطب فى هذا الأمر ، إذ يتعاطون مشروبات جديرة بأن تجعل الإنسان مرحاً مبتهجاً ، وتهوّن عليه ذكريات آلامه .

ليس شيء أدعى للحزَن من أن يلتمسَ المرء عزاءه من أن الشرّ فى الدنيا لا بد منه ، وأنه لا فائدة من العلاج ، ومن نحس الطالع ، ومن مشيئة القدر ، ومن شقاء الإنسانية ، ومما يستدعى السخرية أن نبغى تخفيف الآلام بأن نعتقد أن الإنسان ولد بائساً ، والأولى أن نرتفع بروح الإنسان فوق تفكيره ، وأن ننظر إليه باعتبار أنه ذو مشاعر بدلا من أن نعتبره متعقلا .

والروح فى اتصالها بالجسم مكبوتة به دائماً ؛ فإذا كانت دورة الدم شديدة بطيئة ، أو لم يكن للعقول حظ من الصفاء ، أو مقدار كاف منه وقعنا فى الضنى والحزن . ولكننا إذا تناولنا بعض المشروبات التى يمكن أن تغير من حال أجسامنا ، فإن الروح إذ ذاك تكون جديرة بأن تتلقى إيحاءات تفرّج عنها ، وتستشعر مسرّة دفينة لرؤيتها الآلة الجسمية تستعيد — كما يقولون — حركتها وحياتها .

من باريس فى ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٧١٢ .

الرسالة الرابعة والثلاثون

من أوزبك إلى إيبن فى أزمير

نساء فارس أجمل من نساء فرنسا ، لكن الفرنسيات أظرف منهن ، ولا تملك ألا تحب الأوليات ، كما تعجب بالأخريات . فالفارسيات أرق ، وأكثر حياء ، والفرنسيات أكثر مرحا وظرفا .

والجاذبية فى فارس أتت من الحياة المنتظمة التى تحياها النساء بها : فهن لا يلعبن الميسر ، ولا يسهرن ، ولا يشربن النبيذ قط ، وقليلا ما يخرجن فيتعرضن للهواء .

ويجب أن تعترف بأن القصور أعدت لرعاية الصحة أكثر مما هيئت للشهوات والمسرات . إنها حياة تسير على وتيرة واحدة ليس فيها إثارة مطلقاً ، وجميع من فيها مرهق بالتبعية وبالواجب . والمتع نفسها فى القصر عنيفة ، والمسرات قاسية لا تكاد ترتشف إلا لتكون دليلا على السيطرة والخضوع للرجال .

والرجال كذلك فى فارس ليس لهم من المرح ما للفرنسيين ، فلا ترى فيهم مطلقاً هذه الطلاقة الروحية ، ولا مظهر الرضا الذى تجده هنا فى وجوه الناس مهما اختلفت أحوالهم ، ومنزلتهم الاجتماعية .

والأمر فى تركيا أسوأ من ذلك ، فقد تجد أسراً تناسلت ، وانحدر الأبناء من الآباء ولا تجد منهم ضاحكا منذ أنشئت دولة السلاطين .

وهذه الرصانة لدى الأسيويين نتيجة لقلة الاختلاط بينهم ؛ فلا يرى بعضهم بعضا إلا إذا اضطروا إلى الاجتماع فى حفل . والمحبة التى هى الرباط الجميل بين القلوب ، والتى جعلت الحياة هنا عذبة — لا يكاد الأسيويون يعرفونها . إنهم ينقبضون فى بيوتهم ، حيث يجدون فيها دائماً من يلقاهم من معاشريهم ، بحيث تبقى كل أسرة منعزلة عن سائر الأسر .

وإلى ذلك أقص عليك ما قاله لى يوما رجل من أهل تلك البلاد التى أنا فيها . قال : إن أكبر ما أستنكر من تقاليدكم أنكم مضطرون إلى الحياة مع عبيد تستشعر قلوبهم ونفوسهم الهوان من حالهم التى هم عليها . فهؤلاء الأنذال يضعفون فى أنفسكم مشاعر الفضيلة التى يكتسبها المرء من الطبيعة ، ويقضون على هذه المشاعر منذ الطفولة لشدة ملازمتهم لكم . تخلصوا إذن من أوهامكم : فماذا ينتظر من تربية تؤخذ عن بائس يقوم شرفه على حراسة نساء غيره ، ويفخر بأخس عمل يزاوله آدمىّ ، وهو محتقر حتى فى فضيلة الإخلاص وهى مزيته الوحيدة بين سائر صفاته ، لأنه لم يتمسك بها إلا بدافع الحسد والغيرة واليأس ، ويتحرق شوقا إلى الانتقام من الجنسين على السواء ، فهو شر نماذج الجنس البشرى ، اللذين يزدريانه ، ويرضى بأقسى ألوان العسف من الجنس القوىّ ، ما دام فى استطاعته الإساءة إلى الجنس الضعيف ؛ ويتخذ من نقصه ، ودمامته وتشويه خلقته كل فخار ، إذ وصلت به إلى ما هو عليه من مكانة ، وليس له اعتبار ، لأنه غير جدير بأن يكون ذا خطر ، وعليه أن يلزم دائماً الباب الذى نيط به أشد من المزلاج والمتاريس التى يغلق بها الباب ، ويزهو بأنه يقضى خمسين سنة من حياته فى هذه المهنة الحقيرة التى يحرس فيها غيرة سيده ، ويمارس كل ما فطر عليه من خسة .

باريس فى ١٤ من ذى الحجة سنة ١٧١٣ .

ترى ياعزيزى إبين أنني أخذت عن أهل هذه البلاد ، تأييد الآراء المتطرّفة وحرصهم على مخالفة المألوف .

وقد قرر النبيّ الحكم في هذه المسألة ، ونظم حقوق الرجال والنساء ، وقال : يجب على النساء أن يعظمن أزواجهن ، وعلى الأزواج أن يكرموا زوجاتهم ، وللرجال على النساء درجة من الفضل .

من باريس فى ٢٦ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٣ .

الرسالة الخامسة والثلاثون

من أوزبك إلى ابن عمه جمشيد

ما رأيك فى المسيحيين أيها الدرويش الجليل ؟ أتعتقد أنهم يوم الدين سيكونون كالأتراك المنافقين الذين سيكونون حميراً لليهود يقودونهم بأسرع الخطى إلى جهنم ؟ إننى أعلم علم اليقين أنهم لن يصلوا مطلقاً إلى منازل الأبرار ، ولن يشفع لهم أبداً علىّ العظيم . ولكن هل تعتقد أنهم لحرمانهم السعادة بأن يجدوا مساجد فى بلادهم سيكونون فى العذاب السرمدىّ ،وأن الله سيعاقبهم لأنهم لم يدينوا بدين لم يعرفهم إياه؟أستطيع أن أقول لك : إننى امتحنت كثيراً من هؤلاء المسيحيين لعلى أجد عندهم فكرة عن علىّ العظيم خير الناس[1] فوجدتهم لم يسمعوا عنه شيئاً أبداً . إنهم لا يشبهون مطلقاً هؤلاء الكفار الذين عرضهم أنبياؤنا عليهم السلام على حد السيف لأنهم رفضوا أن يؤمنوا بمعجزات السماء ، بل الأولى أن يشبّهوا بهؤلاء الأشقياء الذين يعيشون فى ظلمات الوثنية قبل أن ينبثق نور الهداية الإلهية لنبينا العظيم .

ومن جهة أخرى إذا اختبرنا دياناتهم من كتب وجدناها أصلا لديانتنا . وكم ملكنى الإعجاب من أسرار الحكمة الإلهية التى يبدو لى أنها أرادت بذلك أن تمهد للتطور الدينى العام ! وقد سمعت الناس يتحدثون عن كتاب لأحد فقهائهم عنوانه : المضارة المنتصرة La polygamie,

---

(١) هذا رأى الشيعة أما المسلمون فيؤمنون أن محمداً هو خير الناس .

Triomphante فيه أبان أن تعدد الأزواج مأمور به عند المسيحيين. وغسل المعمودية عندهم صورة للطهر الشرعى عندنا. والمسيحيون لم يخطئوا إلا فى تقدير قيمة الأثر لهذا الطهر الأول، وفى أنهم يعتقدون أنه يجب أن يغنى عن سائر الأطهار. وأن قساوستهم ورهبانهم يصلون سبع مرات[1] فى اليوم مثلنا، ويؤملون أن يتمتعوا بالفردوس حيث يتعمون باللذات الكثيرة بعد البعث.

إن عندهم مثلنا صوماً مفروضاً، وقمعاً لشهوات الجسد يرجون به من الله مغفرة ورضوانا. ويقدسون الملائكة الأطهار، ويسيئون الظن بغيرهم. وعندهم تصديق خالص للمعجزات التى يجريها الله على يدى رسوله إلى عباده. ويعترفون مثلنا بأن أعمالهم وحدها لا تكفى، بل هم فى حاجة إلى من يشفع لهم عند الله. إنى أرى فى كل مكان الديانة المحمدية ولو أنى لا أجد فيها محمداً. ومن حسن الحظ أن الحقيقة تنطلق وتبدد دائماً الظلمات التى تحيط بها، وسوف يأتى يوم لا ترى فيه الأبدية على الأرض إلا المؤمنين الصادقين. والدهر الذى يفنى كل شىء سيفنى ذنوب البشر، وسيعجب الناس عندما يرون أنفسهم تحت لواء واحد، وسيفنى كل شىء حتى القوانين، وسترفع المثل المقدسة من الأرض، وتوضع فى السجلات السماوية.

من باريس فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ١٧١٣.

---

(١) الصلوات فى الإسلام خمس كل يوم لا سبع.

الرسالة السادسة والثلاثون

من أوزبك إلى رهيدي في ڤينيس

القهوة شائعة فى باريس ، تقدم فى عدد كبير من المحال العامة ، التى يجلس الناس فى بعضها يتحدثون ، وفى بعضها الآخر يلعبون الشطرنج : ومن بين هذه المحال محل يعد القهوة إعداداً يمنح الذكاء من يشربها ، وأقل ما يقال : لا يخرج من المقهى خارج إلا وهو يعتقد أنه صار فى ذكائه خيراً مما كان قبل دخوله إياه أربع مرات .

لكن الذى يسوءنى من هذه العقول النيرة أنها لاتقدم نفعاً لوطنها ، وإنما تتسلىّ مواهبهم بأشياء تافهة ، وخذ مثلا لذلك أنى لما وصلت إلى باريس رأيت القوم فى نقاش مستعر حول موضوع تافه ، لا يمكن تصور تفاهته ، إذ كان عن شهرة شاعر يونانى قديم ، مات منذ ألفى سنة، ولا يعرف موطنه ، ولا تاريخ مولده على وجه التحديد . وقد اتفق الطرفان المتنازعان على أنه كان شاعراً ممتازاً ، وإنما كان الخلاف فى تقدير حظه من الإجادة والإحسان : فمن هؤلاء الذين يوزعون المجد والشهرة من يضع الشاعر فوق قدره ، ومنهم من يراه دون ذلك ، ومن أجل ذلك قام الصراع ، وحمى الوطيس . وكان أحد الجانبين رفيقاً فى نقاشه ، وكان الآخر عنيفاً فى أسبابه ، وكانت مفاكهاتهم ومداعباتهم شديدة المرارة . فكان عجبى من طريقة المناقشة لا يقل عن عجبى من موضوعها . فقلت فى نفسى : لوأن إنسانا بلغ به الطيش إلى أن يهاجم سمعة مواطن شريف أمام هؤلاء المتحمسين للشاعر الإغريقى لما تحمس

كل هذا التحمس . وأعتقد أن الحماسة المرهفة من أجل الأحياء أولى أن تكون أشد من التحمس للأموات . ثم قلت : مهما كانت الحال فإنى أرجو الله أن يحفظنى من حقد النقاد لهذا الشاعر الذى لم يسلم من حقدهم الممقوت بعد أن غبر فى قبره ألفى سنة !

إنهم يلوحون بأيديهم فى الفضاء متوعدين ولا عدو أمامهم ، فماذا يكون حالهم إذا ثار غضبهم لمواجهة عدو من أعدائهم !

إن من حدثتك عنهم آنفاً يتجادلون بلغة عامية مبتذلة ، ومع ذلك ينبغى أن نميزهم عن نوع آخر من المتنازعين الذين يستخدمون لغة بربرية كأنها تزيد شيئاً فى حدة المتنازعين وعنادهم . فهناك أحياء ترى كثيفة بالسكان ، غاصة بهذا النوع من الناس : يتغذون بالخلاف ، ويعيشون على البراهين المعتمة ، والنتائج الخاطئة . وهذه حرفة يموت أصحابها جوعاً لكنهم لا يقلعون عنها .

ويُرى شعب بأسره ، قد طرد من بلاده ، فعبر البحار ليقيم فى فرنسا ، ولم يحمل معه مايتقى به ضرورات العيش سوى موهبة رائعة فى الجدل . وداعاً .

من باريس فى آخر ذى الحجة سنة ١٧١٣ .

الرسالة السابعة والثلاثون

من أوزبك إلى ايسبن فى أزمير

لقد طعن ملك فرنسا فى السنّ ، ولم يحدث فى تاريخنا أن ملكا حكم مثل مدته فى طولها . ويقال عنه ؛ إن لديه قدرة على أن يفرض طاعته :

وعلى النهج الذى يدبر به أمر أسرته وحاشيته ، يسوس دولته . وكثيرا ما سمعه الناس يقول : بأنه لا يستهويه من أنظمة الحكم فى العالم إلا حكم الأتراك ، أو سياسة شاه إيران المعظم ، فكثيرا ما ينهج فى الحكم نهجاً شرقياً .

لقد درست أخلاقه فوجدت بها تناقضاً أعيانى تفهمه : فمثلا كان أحد وزرائه فى الثامنة عشرة من عمره ، بينما كانت عشيقته فى الثمانين من عمرها ! وكان يحب التدين ولا يطيق الدقة فى اتباع أولئك الذين يدعون إلى الدين . وهو يفر من صخب المدن ، وقليلا ما يتحدث إلى الناس، ولكن ليس له همّ من الصباح إلى المساء إلا أن يحمل الناس على الحديث عنه .

وهو مولع بالغنائم والانتصارات ، ولكنه بمقدار حبه إياها يكره أن يرى قائدا مظفراً على رأس جنده ، كما لو كان هذا القائد على رأس جيش أعدائه .

ويخيل إلىّ أنه وحده قد فاض عليه الغنى بدرجة لا يؤملها أى

أمير ، وقد أرهقه الفقر إلى حال لا يحتملها أى شخص من الناس .

وهو يحب أن يكافىء من يخدمه : لكنه يبذل فى سخاء لمن يسامرونه ولبطالة رجال بلاطه ، أكثر مما يبذل لقواده نظير حملاتهم الموفقة . وقد يؤثر — كثيرا — رجلا يساعده فى خلع ملابسه أو يقدم له منشفة حين يجلس إلى مائدة الطعام ، على قائد كسب له معارك وفتح مدنا . ولا يؤمن بأنه ينبغى للملك أن يهتم بتوزيع مكارمه ، ولا بالبحث عما إذا كان من يمنحه العطايا أهلا لها أو غير أهل ، ويرى أن مجرد اختياره لمن يمنحه يضفى عليه صفة الأهلية .

وكذلك نراه يهب رجلا فرّ من واجبه فرسخين معاشاً ضئيلا ، وينعم على آخر — قد هرب أربعة فراسخ — منصبا حكوميا كبيرا .

إنه يعنى بفخامة مبانيه : حتى إنه يزيّن حدائق قصره بتماثيل يفوق عددها سكان مدينة كبيرة . وحرسه الخاص يشبه فى قوّته حرس أمير دانت له كل التيجان ؛ فجيوشه موفورة العدد ، وموارده عظيمة ، وأمواله لا تنفد .

باريس فى ٧ من المحرم سنة ١٧١٣ .

الرسالة الثامنة والثلاثون

من ريكا إلى إيبن فى أزمير

إنها لمسألة كبيرة لدى الرجال أن يعرفوا ما إذا كان الأولى أن تسلب النساء الحرية أو تبقى لهن. ويبدو لى أن هناك أسبابا تؤيد سلبها وأسبابا تعارضه. فإذا قال الأوربيون: ليس من الكرم أن نجعل من نحبهن بائسات، فإن رجالنا الأسيويين يجيبون بأن من الهوان أن يتنازل الرجال عن سلطانهم على النساء، وقد منحتهم الطبيعة إياه فإذا قيل لهم: إن العدد الهائل من النساء المحجبات يضايقنا، أجابوا بأن عشرا من النساء المطيعات، أقل إزعاجا من واحدة غير مطيعة.

فإذا عارضوا بدورهم قائلين: إن الأوربيين لا يعرفون السعادة مع نساء لا يخلصن لهم، أجيبوا بأن هذا الإخلاص الذى يفخرون به كثيرا لا يمنع الملل الذى يستتبع إشباع الشهوات باستجابة نسائنا لنا، وأن اطمئناننا إلى امتلاكهن لا يدع لنا مجالا لرغبة منا ولا لخوف منهن. وأن قليلا من التدلل مِلْح يثير الرغبة ويمنع الفجور.

وربما حيّر رجلا أعقل منى أن يقرّر أنه إذا كان الأسيويون يجتهدون فى البحث عن الوسائل الخاصة التى تهدّئ من قلقهم فإن الأوربيين يجتهدون أيضا فى ألا يكون عندهم قلق مطلقا.

وبالجملة فقد قالوا: إذا كنا سنصبح بائسين بصفتنا أزواجاً فسنجد

وسيلة للتعويض بصفتنا عشاقا . وإذا حُقّ لزوج أن يشكو من خيانة زوجته ، فذلك لأنه ليس فى العالم سوى ثلاثة أشخاص من هذا القبيل . وسيصيرون دائماً مضغة فى الأفواه إذا أصبحوا أربعة .

ومسألة أخرى : هى معرفة ما إذا كان القانون الطبيعى أخضع النساء للرجال ؛ قد قال لى بالأمس فيلسوف من ذوى الكياسة : لا ؛ فالطبيعة لم تفرض قانونا كهذا . وما لنا من السلطان عليهن هو فى الحقيقة طغيان . ولم يتركن لنا هـذا السلطان إلا لأنهنّ أسمح ، ويستتبع ذلك أنهن أسمى إنسانية وتفكيرا ، وذلك يوجب أن نسلم لهن بالتفوّق إذا كنا محقّقين ، أو نجحد ذلك لأننا لسنا منصفين .

وإذا كان حقًّا أنه ليس لنا على النساء إلا سلطان جائر ، فليس أقلّ منه سلطانهن علينا بجمالهن الذى لا يقاوم . وسلطاننا ليس مهيمناً عليهن فى كل موطن لكن سلطان جمالهن عالمىّ فمن أين إذن يأتى امتيازنا عليهن؟ أيكون ذلك لأننا أقوى منهن ! هذا فى الحقيقة ظلم فنحن نستخدم شتى الوسائل لإضعاف شجاعتهن ، وستكون القوى متكافئة إذا تساوت التربية. ولنختبرهن فى المواهب التى لم تضعفها التربية قط لنرى هل نحن أقوى منهن ؟ ويجب أن نعترف — وإن كان هذا الاعتراف يخدش مقوماتنا — بأن الشعوب التى كانت أرقى خلقا وتهذيباً كان للنساء فيها سلطان على أزواجهن ، وهذا السلطان يقدم على القانون عند المصريين بفضل إيزيس وعند البابليين بفضل سميراميس . ويقال : إن الرومان حكموا جميع الشعوب لكنهم خضعوا لنسائهم . ولا أتكلم مطلقا عن السورمات (Sourmates) الذين كانوا فى عبودية هذا الجنس (النساء) ، وقد مثّلت بهم لأنهم كانوا همجاً إلى حدّ كبير .

الرسالة التاسعة والثلاثون

من الحاج لبي إلى اليهودي بن جوزدى
معتنق المحمدية فى أزمير

يبدو لى يابن جوزدى أن آيات باهرة تمهد لمولد الرجال الممتازين : كأنما الطبيعة تعانى نوعاً من الأزمة . وكأن القدرة الإلهية لا تخلق إلا بجهد !

لم يكن شيء أعجب من مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد قضت العناية الإلهية منذ بدء الخليقة أن يرسل إلى الناس هذا الرسول العظيم ليقيد الشيطان . فأنشأ نوراً قبل أن يوجد آدم بألفى سنة ، ومرّ هذا النور من مختار من ولد آدم إلى مختار ، ومن جد إلى جد من آباء محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى وصل إليه . وهذه شهادة صادقة على أنه من نسل آباء أطهار .

وقد قضت مشيئة الله بسبب هذا النبيّ نفسه ، ألا يولد طفل إلا إذا تطهرّت المرأة ، وختن الرجل .

ولد النبيّ مختونا ، وظهر البشر على محياه منذ ولادته . واهتزت الأرض ثلاث مرات كأنها هى التى ولدته ، وخرت الأوثان كلها ساجدة ، ونكست عروش الملوك . وألقى الشيطان فى قاع البحر ، ولم يخرج منه إلا بعد أن سبح أربعين يوماً ، ثم هرب إلى جبل قابس . ومنه نادى الملائكة بصوت رهيب . وفى تلك الليلة وضع الله حداً بين

الرجال والنساء ، لا يتعداه أحد منهم ، وبطل سحر السحرة واستدعاء الموتى للإخبار بالغيب ، وسُمِع من السماء صوت يقول : لقد أرسلت إلى الدنيا حبيبي الأمين[1] .

وعلى حدّ قول المؤرخ العربي إسبن آبن Jspen Apen : اجتمعت سلالات الطير ، والسحب والرياح ، وجميع كتائب الملائكة لتربية هذا الطفل ، وتنازعوا هذا الفضل . فقالت الطير مغرّدة : إن الأوفق أن نربيه لأننا نستطيع بسهولة أن نجمع له ثماراً شتى من جميع الأنحاء، فهمهمت الرياح قائلة : بل نحن أحق بتربيته لأننا نستطيع أن نحمل إليه من جميع الجهات الروائح العطرة التي يستمتع بها ، وقالت السحب : لا . لا . بل يجب أن يعهد به إلى عنايتنا لأننا سنحمل إليه في كل لحظة النسيم النديّ. وقالت الملائكة غاضبة : وماذا أبقيتم لنا؟ ولكن سمع صوت من السماء ، انفض به النزاع . يقول : إنه لن يرفع من أيدي البشر ، فقد قدّرت السعادة لثديين يرضعانه ، وليدين تعلمانه المشي ، ولبيت يؤويه ، وسرير يريحه !

بعد هذه الآيات البينات — يا عزيزي جوزدي — لا بد أن يكون القلب حديداً حتى لا يؤمن بقانونه المقدّس . وماذا يمكن أن يفعله الله أكثر من ذلك ليمهد لرسالته الإلهية ، إلا أن يخرق قانون الطبيعة ، أو يهلك البشر الذين يريد أن يقنعهم ؟

من باريس في ٢٠ من رجب سنة ١٧١٣ .

---

(١) في هذا الكلام خلط بين الوقائع والأساطير .

الرسالة الأربعون

من أوزبك إلى إيبن في أزمير

إذا مات عظيم ، اجتمع الناس من أجله في المسجد ، وصلوا عليه ، ورثوه بخطب عدّدوا فيها مناقبه .

أريد أن تُلغى الاحتفالات الجنائزية : لأنه ينبغي أن تبكى الناس عند ولادتهم لا عند موتهم ، وإلا فما فائدة هذه الاحتفالات أو مظاهر الجزع التي تبدو عند راحل وهو على شفا الموت ، بل ما فائدة دموع أسرته ، وآلام أصدقائه غير مضاعفة الشعور بفقده ؟

لقد بلغنا من العمى درجة لا ندرى معها متى ينبغى أن نحزن ، ولا متى ينبغى أن نبتهج . ونكاد لا نشعر إلا بحزن مزيّف أو سرور مزيّف .

عندما أرى الزعيم الهندى ، يذهب كل سنة — في حماقة — إلى الميزان ، ويزن نفسه كالعجل ، وأرى أتباعه يبتهجون بأن هذا الأمير قد صار أكبر حجما ، وأثقل وزنا ، أى أصبح أعجز عن إدارة شئونهم ، عندما أرى هذا وذاك — يا إيبن — أرثى لهذا العته الإنسانىّ .

من باريس في ٢٩ من رجب سنة ١٧١٣ م

الرسالة الحادية والأربعون
من كبير الخصيان الأسود إلى أوزبك

منذ وقت قريب يا سيدى العظيم مات إسماعيل : أحد خصيانك السود ، وإنى لا أستطيع أن أتأخر عن إحلال خصى مكانه . وإذ كان الخصيان من الندرة بمكان، فقد فكرت فى أن أستخدم لذلك أحد عبيدك السود بالريف : ولكنى إلى الآن لم أستطع أن أحمله على تحمل ما يتكبده من يخصص لهذه المهمة . ولما كنت أرى أن نتيجة هذه العملية لمصلحته ؛ فقد ملت بالأمس إلى أن أستخدم معه بعض الغلظة . وباتفاق مع المشرف على حدائقك أمرت أن يجعلوه — بالرغم منه — صالحا لأن يقدم لك أحب الخدمات إلى قلبك ، وليعيش مثلى فى الأماكن المصونة التى لا يجرؤ أحد فيها على شىء حتى على النظرة ، ولكنه أخذ يعوى كأنهم أرادوا أن يسلخوه ، وجاهد كثيراً حتى تخلص من أيدينا ، وأفلت بذلك من السكين المشئومة . وقد علمت أخيراً أنه كتب إليك يطلب منك العفو مستنداً إلى أن هذه الخطة لم تخطر ببالى إلا لرغبة جامحة منى فى الانتقام منه لسخريات لاذعة سخر بها منى كما يزعم . ولكنى مع ذلك أحلف لك بمئات الآلاف من الأنبياء أننى لا أتصرف إلا للإحسان فى خدمتك التى هى وحدها أحب شىء لدى ، ولا أرعى شيئا سواها — وإنى أجثو تحت قدميك .

من سراى فاطمة فى ٧ من المحرم سنة ١٧١٣ .

الرسالة الثانية والأربعون

من فساران إلى أوزبك : سيده العظيم

لو كنت هنا — يا سيدى العظيم — لظهرت أمام نظرك بريئا ، ومع ذلك لا أجد ورقا كافيا لأكتب إليك فيه جميع الإساءات التى وجهها إلىّ — منذ سفرك — كبير خصيانك الأسود أشقى الناس .

وبدعوى أننى سخرت من حاله التعسة ، يصب على رأسى ألوانا من الانتقام لا تنفد ، ويثير علىّ مشرف حدائقك القاسى ؛ فلا يزال يكلفنى منذ رحيلك — أعمالا فوق الطاقة جعلتنى أفكر كثيراً فى الخلاص من الحياة حتى لا أعيش لحظة وأنا غير متحمّس لخدمتك . وكم من مرة قلت لنفسى : إنّ سيدى يفيض رقّة ، وأنا أشقى عبد على الأرض !

وأصرّح لك يا سيدى العظيم أننى لم أعتقد أنه قدر لى أحط دركات البؤس ، لكن هذا الخصىّ الغادر يستخدم معى أقصى ما لديه من مكر سيء . فمنذ بضعة أيام ، أصدر — بما له من سلطة خاصة — أمراً بأن أعدّ لخدمة السيدات المصونات ، ومعنى هذا أن يفعل بى ما هو أفظع من الموت ألف مرة .

إن الذين شقوا بأن خصاهم آباؤهم القساة عند ولادتهم يجدون عزاءهم فى أنهم لم يعرفوا عند كبرهم حالة غير الحالة التى رأوا أنفسهم

عليها ، لكن أن تهدر إنسانيتى ، وأحرم استعدادى الجنسىّ فذلك يميتنى من الألم إن لم أمت من العملية الوحشية التى تراد بى .

وإننى أقبّل قدميك – يا سيدى الجليل – بضراعة بالغة أن تفعل بى ما يجعلنى أحس بفضلك السامى ، حتى لا يقال : قد صار رجل بأمرك ، أتعسَ مخلوق على وجه الأرض .

من حدائق فاطمة فى ٧ من المحرم سنة ١٧١٣ .

الرسالة الثالثة والأربعون

من أوزبك إلى قادان بحدائق فاطمة :

ليعمر السرور قلبك ، ولتشكر هذه الرسالة المكتوبة ، ولتدع كبير الخصيان وقيّم الحدائق إلى تقبيلها . وقد حرّمت عليهما أن تمتد يدهما عليك حتى أعود . مرهما أن يشتريا الخصيّ المطلوب . أدّ واجبك كما لو كنت أمام عيني ، واعلم أنه بمقدار إحساني العظيم يكون عقابي إذا قصّرت في واجبك .

من باريس في ٢٥ من رجب سنة ١٧١٣ .

الرسالة الرابعة والأربعون

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

فى فرنسا ثلاث طبقات : رجال الكنيسة ، ورجال الجيش ، ورجال القضاء ، وكل واحدة من هذه الطبقات يتسلط عليها ازدراؤها للطبقتين الأخريين . وعلى سبيل المثال ينبغى أن يحتقر الشخص لأنه أحمق ، وما حماقته إلا لأنه من رجال القضاء .

ولا يوجد أناس حتى من أحط أصحاب الحرف إلا وهم يجادلون فى سموّ حرفتهم التى اختاروها . وكل منهم يتعالى على كل ذى حرفة مخالفة لحرفته بنسبة الفكرة التى تكونت عن سموّ هذه الحرفة .

والناس جميعاً أشبه فى قليل أو كثير بهذه المرأة التى نالت خيراً من أحد ملوكنا ، فدعت الله له كثيراً ، وسألته ملحة أن يجعله حاكما لمقاطعتها إيريفون .

وقد قرأت فى إحدى الرسائل أن سفينة فرنسية لدى رسوها على شاطىء غينيا نزل بحارتها إلى الأرض ليشتروا بعض الخراف ، فأخذوا إلى الملك الذى كان يقضى بين رعيته تحت شجرة . وكان جالساً على العرش : وما هو إلا قطعة من الخشب ، وكان مزهواً به كأنه جالس على عرش المغول العظيم ، وكان يحرسه ثلاثة من الجنود أو أربعة بأيديهم حراب من خشب ، وعليه مظلة تشبه الخيمة ، تقيه وهج الشمس ، وحليته

هو وزوجته الملكة تتكون من جلد أسود وبعض الخواتم . هذا الأمير أتفه من مسكين ، ومع ذلك سأل هؤلاء الأجانب هل يتحدثون عنه كثيراً فى فرنسا : وكان يعتقد أن اسمه لا بد أنه ذاع من قطب إلى قطب أكثر من ذيوع اسم ذلك المظفر الذى أسكت الدنيا ، وظن أنه لا بد أن يجعل العالم كله يتحدث عنه .

ولما تغدى خان التتار ، نادى جندى : كل أمراء الأرض يستطيعون أن يتغدوا إذا شاءوا ، وإن هـذا الهمجى الذى لا يجد طعاماً إلا اللبن ، وليس له بيت يؤويه ، ولا يعيش إلا على قطع الطريق والتلصص يرى جميع ملوك الدنيا كأنهم عبيده ، ويسبهم باطراد كل يوم مرتين .

من باريس فى ٢٨ من رجب سنة ١٧١٣ .

الرسالة الخامسة والأربعون

من ريكا إلى أوزبك فى ....

سمعت أمس صباحا بينما كنت لا أزال فى سريرى طرقا عنيفاً على بابى ، الذى فُتح فجأة ، أو على الأصح قد اقتحمه رجل كنت التقيت به فى أحد المجتمعات ، وبدا لى أنه كان خارجا عن طوره .

وكان زيه أقل جدا من أن يكون متواضعاً ، وشعره المستعار لم يكن ممشوطا ، ولم يجد وقتاً ليخيط قبعته السوداء ، وقد أهمل فى يومه هذا احتياطه الحكيم لستر ما اختلّ من مظهره .

وقال لى : انهض ، إننى فى حاجة إليك طول اليوم ، فسأشترى أشياء شتى ، وسيريحنى أن أكون معك ، لكن ينبغى أن نذهب أولا إلى شارع سانت أونورى (Saint - Honoré) لأفاوض مُوثقاً للعقود مكلفا ببيع أرض تساوى خمسمائة ألف جنيه ، وأرجو أن يؤثرنى بها . وفى مجيئى إلى هنا وقفت لحظة عند ضاحية سان جرمان (Saint — Germin) حيث أجرت مسكنا بألف قطعة ذهبية ، وأرجو أن يتم العقد اليوم .

ولم أكد ألبس حتى أنزلنى بسرعة ، وقال : لنبدأ بشراء العربة ، ولنجهز مرافقها ، وقد كان أن اشترينا — سوى العربة — سلعاً بمائة ألف فرنك فى أقل من ساعة ، وتم ذلك سريعا لأن صاحبنا لم يساوم فى شىء ، ولم يحسب حسابا لشىء ولم يستقر أبدا . وسبح خيالى فيما أرى ،

وكنت إذا تأملت فى حال هذا الرجل التبس علىّ أمره : أهو غنى أم فقير ؟ ولم أستطع الجزم برأى عنه .

وأخيرا خرجت من هدوئى ، وأخذت الرجل ناحية ، وقلت له : سيدى ، من الذى سيدفع الثمن لكل هذا ؟ فقال : أنا ، تعال إلى حجرتى ، سأريك الكنوز الهائلة ، والثروات التى يطمع فيها أكابر الملوك ، ولكنها لن تكون لك ، وإنما ستشاطرنى فيها دائماً ، فوافقته ، وصعدنا إلى الطابق الخامس ، وارتقينا بسلم إلى السادس ، فرأيت فيه كوخاً مفتوحا للرياح الأربع ليس فيه إلا (دستان) أو ثلاث من أحواض الطين ملأى بسوائل مختلفة . ثم قال لى : إنى استيقظت مبكرا وفعلت أولا ما درجت على فعله منذ خمس وعشرين سنة ، وهو الذهاب إلى عملى ، ثم رأيت اليوم المشهود قد أقبل ليجعلنى أغنى رجل على وجه الأرض . أترى هذا السائل القرمزىّ ؟ إن له الآن جميع الخواص التى يتطلبها الفلاسفة لتحويل المعادن إلى معادن أخرى ، وقد استخلصت منه هذه الحبوب التى تراها ، وهى فى حقيقتها ذهب وإن كانت أقل منه وزنا . هذا هو السر الذى اهتدى إليه نيكولاس فلامل ، وظلّ ريموند ليل وملايين غيرهما يبحثون عنه ولا يجدونه ، عرفته أنا ، واليوم أجد تابعا سعيدا لى . وأرجو الله ألا أستخدم هذه الكنوز التى بعثها إلىّ إلا فى مرضاته !

فخرجت ، ونزلت ، أو الأولى أن أقول : أسرعت إلى هذا السلم ثائر الغضب تاركا هذا الرجل الغنى فى مستشفاه — وداعاً ياعزيزى أوزبك ، وسأراك غدا ، وإذا شئت فسنعود معاً إلى باريس .

باريس فى آخر رجب سنة ١٧١٣ .

الرسالة السادسة والأربعون

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

أرى هنا أناسا يتشاحنون بلا نهاية فى أمر الدين ، لكنهم فيما يبدو يجادلون أيضاً من لا يرعون الدين .

إنهم ليسوا فقط خير المسيحيين ، بل هم أيضاً من خير المواطنين وهذا ما يؤثر فىّ كثيراً ؛ لأنى أجد فى بعض الأديان الباقية أن رعاية القوانين ، ومحبة الإنسان للإنسان ، والبر بالوالدين من أولى التعاليم الدينية .

أفلا ينبغى لذلك أن يكون أول هم للرجل المتدين الذى يريد أن يبلغ رضا خالقه الذى شرع هذا الدين الذى يعتنقه ، وآمن طريق لذلك هو أن يراعى آداب المجتمع وواجبات الإنسانية .

وإذا فرض دين من الأديان ليكون قاعدة للسلوك ، فلنفهم من ذلك أن الله يحب الناس ولذلك شرع لهم الدين ليكونوا سعداء .

وإذا كان الله يحب الناس فينبغى أن نطمئن إلى إرضائه (تعالى) بأن نحبهم كذلك وبأن نقوم نحوهم بما يوجبه الإحسان والإنسانية . وألا نخالف القوانين التى جعلوها أساساً لحياتهم . وبهذا فقط نكون أكثر اطمئنانا إلى رضا الله مما لو أقمنا نوعا ما من الشعائر ، لأن الشعائر فى ذاتها لا تدل على مبلغ الصلاح ، ولا تكون محمودة الأثر إلا فى حالات معينة ، ومع التسليم بأن الله قد أمرنا بها ، فإنها محل بحث كبير قد يضل فيه الإنسان ، إذ عليه أن يختار لنفسه شعائر دين من أديان شتى .

فالإنسان يناجى ربه كل يوم بهذه الصلاة : « مولاى : إنى لا أصغى أبداً إلى المشاحنات التى لا تنقطع وتتناول ذاتك ، وأرغب فى عبادتك كما تريد ، ولكنى كلما سألت رجلا كيف أعبدك أراد أن أكون على مذهبه . وإذا شرعت أصلى لك لم أدر بأى لغة يجب أن أناجيك ، ولا على أى وضع ينبغى أن أكون : فأحد الناس يقول لى : يجب أن أصلى لك قائماً ، وآخر يقول : صل قاعداً ، وثالث يطالبنى بأن أجثو على ركبتىّ . وليت الأمر يقف عند هذا الحد ؛ فنهم من يزعم أنه يجب علىّ أن أغتسل كل صباح بالماء البارد ، وآخرون يؤكدون أنك تنظر إلىّ فى غضب شديد لأنى لم أختن . ولقد حدث لى يوما ما أنى أكلت أرنباً فى نزل للقوافل ، وكان بالقرب منى ثلاثة رجال ؛ أفزعونى بأن أكدوا لى أنى اعتديت على حدودك اعتداءاً بالغاً ؛ ورأى أحدهم أن الحيوان كان دنساً ؛ وقال الثانى : إنه كان مخنوقا . وقال الثالث إنه لم يكن سمكا . ومر بنا برهمىّ فرجوته أن يقضى بيننا فقال : إنهم مخطئون ؛ لأنه يبدو لى أنك لم تقتل هذا الحيوان بنفسك . فقلت له : وإذا كنت قد قتلته ؟ فقال بصوت حاد : آه .. لقد جئت شيئاً إداً لا يغفره الله أبداً، ومن يدريك لعلّ روح أبيك قد حلت فى هذا الحيوان ؟ كل هذه الأشياء يا مولاى أوقعتنى فى حيرة لا أجد منها مخرجا . ولا أستطيع أن أحرك رأسى إلا وأنا مهدد بمعصيتك ومع ذلك أبغى رضاك ، وأبذل فى ذلك حياتى التى ظفرت بها منك . وليت شعرى هل أنا مخدوع ؟ إننى أعتقد أن خير وسيلة أبلغ بها رضاك أن أكون مواطناً صالحاً فى المجتمع الذى نشأت فيه ، وأبا صالحاً للأسرة التى وهبتنى إياها .

باريس فى ٨ من شعبان سنة ١٧١٣ .

الرسالة السابعة والأربعون
من زاشى إلى أوزبك فى باريس

لدىّ خبر هام أفضى به إليك : هو أننى صالحت زفيس فأصبح القصر قسمة بيننا ، وصار الوفاق تاماً ، ولا ينقصنا إلا وجودك بيننا فى هذه الأماكن التى يسودها السلام ، فتعال إلينا — يا عزيزى أوزبك — لينتصر الحب انتصاراً تاماً .

لقد أعددت لزفيس وليمة عظيمة ، دعوت إليها والدتك ونساءك ، والمقرّبات من حظاياك ، وعماتك وكثيرات من بنات عمومتك ، وقد جئن على الخيل يسترهن سحاب كثيف من براقعهن وثيابهن .

وفى اليوم التالى للوليمة رحلنا إلى الريف ترويحاً عن أنفسنا ، فامتطينا جمالنا واحتل كل أربعة منا هودجاً .

وإذ كانت رحلتنا مفاجئة فلم يكن هناك وقت لإعلان المنطقة بها ليخلوا لنا الطريق ، ولكن كبير الخصيان الدائب فى خدمتك اتخذ احتياطاً بالغاً لسترنا ، بأن جعل بيننا وبين الناس ستاراً كثيفاً فلا يرانا أحد ، ولا نرى أحداً .

ولما وصلنا إلى النهر الذى لا بد لنا أن نعبره ، وضعت كل منا فى صندوق — كما هو متبع دائماً — وحملت إلى السفينة ؛ لأن النهر كما قيل

لنا كان غاصاً بالناس ، ولكن شخصاً دعته منيته إلى أن يقترب من مكاننا المغلق علينا فتلقى ضربة مميتة من الحرس سلبته إلى الأبد بهجة الحياة ، وشخصاً آخر وجد يستحم عارياً على الشاطىء لقى حتفه كصاحبه . وهكذا ضحى خصيانك المخلصون بهذين الرجلين البائسين صيانة لشرفك وشرفنا .

ثم استمع إلى سائر مغامراتنا : عندما كنا فى وسط النهر هبت ريح شديدة واكفهر الجو إلى درجة مخيفة أيأست الملاحين من النجاة وأغمى علينا جميعاً من الذعر . وأذكر أنى كنت أسمع صوت الخصيان ونزاعهم: فمنهم من يقول : يجب أن ننذرهن بالخطر ، ونخرجهن من سجنهن ، ومنهم من لا يرى ذلك ، أما رئيسهم فكان ثابتاً على أن الموت أفضل عنده من أن يخدش شرف سيده ، ومستعداً أن يطعن بخنجر صدر من يقدم اقتراحاً جريئاً كهذا ، وأسرعت إلىّ إحدى جوارىّ خالعة ثيابها لتساعدنى على النجاة ، لكن خصياً أسود جذبها بعنف ، وردها إلى المكان الذى خرجت منه . وإذ ذاك كنت مغمى علىّ ، ولم أفق إلا بعد زوال الخطر .

ما أتعب الرحلات ! وأشقها على النساء ! إن الرجال لا يتعرضون إلا للأخطار التى تهدد حياتهم ، لكننا فى كل لحظة نخاف أن نفقد حياتنا أو شرفنا .

وداعاً يا عزيزى أوزبك وإنى أعبدك دائما .

سراى فاطمة فى ٢ من رمضان سنة ١٧١٣

الرسالة الثامنة والأربعون

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

إن الذين يحبون أن يتعلموا لا يجدون فى أوقاتهم فراغا ، فمع أنى لا أضطلع بعمل هام أرانى مشغولا دائما ، أقضى وقتى فى البحث وأدوّن فى المساء ما لحظته ورأيته وسمعته طول يومى ، وكل شىء يشوقنى ويثير عجبى ، وأنا فى ذلك كطفل لا تزال أعضاؤه غضّة تنفعل انفعالا بالغاً لأدنى مؤثر .

وقد لا تصدقنى إذا قلت لك : إننا استقبلنا استقبالا حسناً فى جميع الهيئات والمجتمعات ، والفضل فى ذلك يرجع إلى فطنة ريكا ومرحه الفطرىّ ، وأنه يألف ويُؤلف .

لم يعد مظهرنا كغرباء يثير أحدا ، وصرنا نتمتع بما نرى من عجب الفرنسيين إذا رأوا سلوكنا مهذّبا ، فهم يتوهمون أن بلادنا لا يمكن أن تنجب رجالا مهذبين ، ولكنى مع ذلك أعترف أنهم يستحقون أن يخلصوا من مثل هذه الأوهام .

لقد قضيت بضعة أيام فى منزل ريفىّ قريباً من باريس عند رجل ذى مكانة ، مولع باجتماع الناس عنده ، وله زوجة محبّبة جمعت إلى التواضع العظيم مرحاً ينقص سيداتنا الفارسيات بسبب حياتهن المحافظة .

ولأنى رجل غريب كان أحب الأشياء إلىّ أن أدرس – كعادتى – أخلاق هذه الجماعات من الناس الذين كانوا يفدون إلى هذا البيت بلا انقطاع ، وكان يتكشف لى دائما جديد من سلوكهم وطباعهم .

وقد جذب انتباهى لأوّل وهلة رجل منهم أعجبتنى بساطته فألفته وألفنى ، وأصبحنا متلازمين .

وفى يوم من الأيام – ونحن فى جمع حافل – جلسنا جانبا نتحدث ، وتركنا الأحاديث تسير بنا كما تشاء ، فقلت له فيما قلت : « قد ترون فىّ أن تطلعى إلى المعرفة يربو على أدبى ، ومع ذلك أرجو أن تأذنوا لى بأن أسأل بعض الأسئلة ، لأنه مما يؤلمنى أن أعاشر قوما لا أحسن عشرتهم ، أو أخالطهم دون أن أعرف منازلهم .

إنى مشغول منذ يومين بهؤلاء الناس ، وكل منهم شغل فكرى طويلا ، ولو ظللت أتكهن لأخبارهم ألف سنة ما عرفتها ، فحالهم أخفى علىّ من نساء ملكنا العظيم . فأجابنى : « أعتقد أنك أمين على السرّ جدير بالثقة ، فسلنى عما تشاء من أخبارهم أجبك من فورى » .

فسألته : من هذا الذى يحدثنا كثيرا عن ولائمه التى أقامها لعظمائكم وسقطت الكلفة بينه وبين سراتكم ، وتحدث كثيراً عن وزرائكم ، وقد قيل لى : إنه رجل لا يُرأم ألأنه من ذوى الأقدار ؟ إن ملامحه تدل على الضعة ، ومخايله لا توحى مطلقاً بأنه من السّراة ، هذا إلى أننى لم أره يتمتع بأى نصيب من الثقافة . إننى غريب لكن يبدو لى أن هناك مقداراً من آداب السلوك تشترك فيه الأمم بوجه عام ، وهذه الآداب لا أرى منها شيئا فى هذا الرجل ، فهل سادتكم أسوأ سلوكا من سادة الأمم الأخرى ؟ .

فأجابنى ضاحكا : إنه فلاح زاد غنى عن الناس ، وقل عنهم نسبا ، إن مائدته أفخر الموائد لو استطاع أن يقرر الأكل فى بيته ، إنه سفيه جدا لكنه يتفوق بطباخه، فعرف له هذا الفضل ولم ينكره ، وقد سمعت ثناءه عليه طول يومنا هذا .

فقلت له : ومن هذا الرجل البدين المتشح بالسواد الذى أجلسته تلك السيدة إلى جانبها ، كيف يلبس الحداد المقبض ، ومظهره يبدو عليه المرح ومحيّاه يفيض بشرا ، لا يكاد أحد يحدثه حتى يبتسم ابتسامة رقيقة ، ومع تواضعه البالغ فى زينته ، يبدو أكثر تأنقاً من نسائكم .

فقال لى : إنه واعظ ، وأسوأ ما فى هذا أنه رئيس الوعاظ ، فهو كما ترى يعرف عن الزوجات أكثر مما يعرف أزواجهن ، ويعرف منهن مواضع الضعف كما يعرفن مواطن ضعفه . فقلت له : وكيف يكون ذلك ؟ إنه دائم الحديث عن الغفران ؟ فأجابنى : ليس هذا شأنه فى كل حال ، فهو أحيانا يهمس فى أذن حسناء يذكرها بسقطتها ! وأحيانا ينفجر فى الجماهير خطيباً وواعظاً ثم يعود فى الحياة الخاصة وديعاً كالحمل . فقلت له : يبدو لى أن الناس يوقرونه ، وينظرون إليه بعين الاعتبار . فأجاب : وكيف لا ؟ يكرّمونه لأنه رجل لا غنى عنه ، إنه يضفى بهجة على الحياة الخاصة بنصائحه ، وخدماته ، وزياراته المرموقة . ويعرف كيف يذهب ما بالرأس من ألم أكثر من أى رجل خبير بالحياة ، إنه رجل ممتاز .

فقلت له : إذا لم أضجرك بأسئلتى فقل لى : من هذا الرجل الذى أمامنا ، الرثّ الثياب ، الذى تعبس أساريره أحيانا ويتكلم لغة ليست كلغة سائر الناس ، ويتظرف فى حديثه لكنه ليس خفيف الروح ؟ فأجابنى : إنه شاعر ، إنه سخرية الجنس البشرى كله . إن هؤلاء الناس يزعمون أنهم ولدوا شعراء ، وهذا حق ، وسيظلون كذلك طول حياتهم ، أى أنهم

سيظلون كل عمرهم أضحوكة الناس، لذلك لا يرفق بهم أحد؛ ويصب عليهم الازدراء صبًّا. إن الجوع هو الذى دفعه إلى دخول هذا البيت الذى استقبله صاحباه بطبيعتهما وأدبهما المعهودين. إنه تغنى بزواجهما عندما تزوجا، وقال فى ذلك خير ما قال فى حياته، لأنه تنبأ لهذا الزواج بالسعادة وقد كان ما تنبأ به. ثم استطرد قائلا: قد لا تصدقنى - لأنك تتشبث برأيك الذى كونته على ما طبعت عليه كشرقىّ - إذا قلت لك إن عندنا أيضا زواجا سعيدا، ونساء يخضعن لسلطان الفضيلة كنسائكم، والزوجان اللذان تتحدث عنهما يستمتعان بهدوء لا يشوبه قلق، ويظفران بمحبة الناس وتقديرهم، ولا عيب فيهما إلا أنهما لسماحتهما الفطرية يستقبلان فى منزلهما أحيانا أخلاطاً من الناس مما يجعلهما أحيانا يعاشران أهل السوء، وليس معنى هذا أننى لا أستسيغ هذا التصرف، إذ يجب أن نحيا مع الناس كما خلقنا، فمن الناس من يعرفون بطيب العشرة مع أنهم يتصفون برذائل دقيقة خفية، ربما كان منها ما هو كالسم أكثره خفاء أشده خطرا.

فقلت له فى صوت خفيض: ومن هذا العجوز الذى يبدو الحزن على محياه؟ لقد حسبته لأول وهلة غريبا! ففضلا عن أنه يخالفكم فى الزىّ يرقب كل ما يجرى فى فرنسا، ولا يرضى عن حكومتكم؛ فأجابنى قائلا: إنه محارب قديم، همه أن يذكر مستمعيه بمفاخره العسكرية الذائعة الصيت ولا يُطيق أن يسمع أن فرنسا كسبت معارك لم يشترك هو فيها، أو يثنى أحد على حصار لم يكن له فيه نصيب، ويرى نفسه جزءا من تاريخنا، ويخيل إليه أن فرنسا قد انتهت بانتهاء خدمته العسكرية، ، وينظر بزهو إلى جروح أصابته قد زالت آثارها كما زالت الملكية. وهو مخالف فى حياته لرأى الفلاسفة الذين يرون أنه ينبغى أن يحيا المرء فى حاضره، أما الماضى فلا وزن له، ويخالف أيضا لمسلك الأبطال الذين يحبون أن يعيشوا فى الخلف بذكرى أمجادهم. ذلك لأنه يتشبث بالماضى ولا يعيش إلا فى المعارك

التى صنعها بخياله وتنسم الزمان المغابر ، فقلت له : ولم ترك الخدمة العسكرية؟ قال : ما تركها ، وإنما هى التى تركته ، ثم وضع فى وظيفة صغيرة سيقضى فيها سائر حياته متحدثا عن مغامراته ، ولن يتجاوز ذلك فقد سُد أمامه طريق المجد .

فقلت له : ولماذا ؟ قال : لأن عندنا ـ فى فرنسا ـ قاعدة مرعية هى ألا نرقى مطلقا الضباط الذين ضعف جلدهم فى أعمالهم الفرعية ونعتبرهم من الذين ضاقت أفكارهم بعكوفهم على توافه الأمور ، فأصبحوا غير جديرين أن يضطلعوا بما هو أعظم من الأعمال .

ونحن نعتقد أن الرجل الذى لا يتحلى بصفات القائد حتى سن الثلاثين لن يظفر بها أبداً ، وتلك الصفات كأن يلمح بنظرة واحدة مساحة كبيرة من الأرض بأوضاعها المختلفة ، وهذه البديهة الحاضرة تسعف صاحبها فى حالة الانتصار ، وتدبر له أمره أحسن تدبير إذا كانت الهزيمة . ولذلك أعدت عندنا مناصب خطيرة لهؤلاء الرجال العظماء الممتازين الذين منحهم الله مع شجاعة القلب عبقرية تنطوى على البطولة ، ووظائف هينة تناسب أهلها من ذوى المواهب المحدودة . ومن هؤلاء المحدودى المواهب جماعة يشيخون فى حرب غامضة ، ولا ينجحون إلا فى العمل الرتيب الذى ألفوه طول حياتهم ، فلا ينبغى مطلقا أن نشرع فى تحميلهم المسئوليات الجسام عندما يسرى الضعف فى قواهم .

وبعد برهة ملكنى الفضول مرة أخرى ، فقلت له : لقد عاهدت نفسى ألا أسألك مرة أخرى إذا تفضلت فأجبتنى عن هذا السؤال الأخير : من هذا الشاب الفارع ، الغزير الشعر ، المتحلى بقليل من الذكاء وكثير من السفاهة ؟ وأنى له أن يعلو صوته على صوت سائر الجمع ويؤمن بأنه أهل لغشيان المجتمعات الراقية ؟ فأجابنى : إنه من ذوى الثراء الواسع . . .

ولم يتم جوابه حتى دخل أناس وخرج آخرون ، وقام من قام ، وجاء شخص شرع يتحدث مع صاحبي ، وبقيت كما كنت لا أعرف شيئاً عما سألت عنه . وبعد برهة شاءت المصادفة أن يقترب مني هـذا الشاب ، ثم يوجه إلى الحديث قائلا : إن الجو جميل يا سيدى فهلا تفضلت بأن نجول معاً جولة فى الطابق الأرضى ؟ فاستجبت له فى أبلغ أدب ممكن . وخرجنا معاً ثم قال لى : جئت إلى الريف لإرضاء السيدة ربة المنزل ، فعلاقتى بها لا يكدرها شيء . إن من النساء نساء غير معتدلات المزاج ، فماذا نصنع لهن ؟ إنى أرى أجمل الباريسيات لكنى لم أحبس نفسي على واحدة منهن ، ولكنهن جميعاً يخشينني ، وأسر إليك أنني لست ذا شأن . فقلت له : يبدو لى أن مهام عملك أو وظيفتك هى التى تحول بينك وبين أن تعقد صلة بإحداهن ؟ فأجابنى : لا يا سيدى ، فليس لى عمل إلا أن أغضب زوجاً ، أو أنكب أبا . وأحب أن أزعج المرأة التى تظن أنها تملكنى وأضعها على قيد أنملتين من الهلاك .

نحن عصبة من الشباب تقاسمنا على هذا النحو باريس كلها التى لم تهتم بأدنى تصرف لنا .

فقلت له : أفهم من هذا أنك أحدثت لنفسك ضجة أعظم من تلك التى تليق بمحارب كبير الخطر ، واعتبارا أسمى من اعتبار حاكم جليل المقدار ، ولو كنت فى فارس لما استمتعت بهذه المزايا ، ولصرت معنياً بالمحافظة على النساء لا ساعياً فى إرضائهن .

ثم غلى الدم فى رأسى ، واحمر وجهى ، وأعتقد أنى لو تماديت قليلا فى الحديث لما منعنى مانع من العنف معه .

ماذا تقول فى بلد يتسامح فيه أهله مع أمثال هؤلاء الناس ؟ وكيف يترك حياً رجل هـذه حرفته فى المجتمع ؟ وكيف تكون الخيانة والغدر

وخطف الناس ، والخداع ، والظلم مؤدية إلى التقدير والاعتبار ؟ وكيف يقدر مجتمع ما شخصا لأنه اختطف بنتاً من أبيها ، أو امرأة من زوجها ، أو يعكر المجتمعات الوادعة الطاهرة ؟

ما كان أسعد بنى على ! كانوا يحمون أسرهم من الفجور والإغراء ! إن ضوء النهار ليس أسطع من الشعلة التى تتوهج فى قلوب نسائنا : إن بناتنا ليضطربن إذا جال فى أذهانهن أنه سيأتى يوم يحرمن فيه الفضيلة التى ترفعهن إلى صف الملائكة ومنازل الأطهار .

أمسقط رأسى العزيز الذى يتمتع بأولى نظرات الشمس ، إنك لم تتدنس بهذه الجرائم البشعة التى تضطر الشمس إلى أن تتوارى منها خجلا كما تفعل حينما تطل على الغرب المظلم بأرجاسه .

باريس فى ٢٥ من رمضان سنة ١٧١٣ .

الرسالة التاسعة والأربعون

من ريكا إلى أوزبك فى ....

بالأمس — وأنا فى حجرتى — رأيت درويشاً يدخل علىّ فى زىّ غريب ، وكانت لحيته تتدلى إلى حزامه وهو من حبل ، وكانت قدماه حافيتين . وكانت ثيابه رمادية غليظة مخرّقة فى بعض أجزائها . وبدا لى فى جملته شديد الغرابة حتى إن أول فكرة طرأت على ذهنى أن أستدعى مصوّراً ليتخذ منه طُرفة .

لقد قرظنى — أول الأمر — تقريظاً عظيما أفهمنى فى خلاله أنه من أهل الفضل ، وأنه إلى ذلك راهب . ثم قال : بما أنك يا سيدى عائد قريبا إلى البلاط الفارسىّ حيث تحتل هنـاك رتبة سامية . فقد جئت أسألك رعايتك ، ولأرجوك أن تطلب من الملك مأوى صغيرا بالقرب من كاسبان لرجلين أو ثلاثة من رجال الدين ، فقلت له : إن أبى إذن يريد أن يذهب إلى فارس ؟ فقال لى : أنا ياسيدى ؟ حاشاى أن أفعل ذلك . إننى قروىّ ، ولا أبغى بديلا بحالتى التى أنا عليها ولو جمع لى حظ الرهبان بجميع بلدان العالم . فقلت : ياللشيطان ! ماذا تريد منى إذن ؟ فأجاب : إذا حصلنا على هذا المأوى فإن آباءنا بإيطاليا سيرسلون إليه اثنين أو ثلاثة من رجال الدين . فقلت له : يبدو أنك تعرف هؤلاء

الرجال ؟ فقال : لا ياسيدى ؛ أنا لا أعرفهم . فقلت عجباً ! وماذا يهمك من أن يذهبوا إلى فارس ؟ فقال : إنه مشروع جميل أن نجعل اثنين من الرهبان يتنسمان هواء كاسبان ، فهذا مفيد جداً لكل من أوربا وآسيا ! فقلت له : إنه من الضرورى أن يهتم الملوك بداخلية بلادهم ! وهذا الذى تمهد له يسمى المستعمرات اللطيفة ! اذهب عنى ؛ فأنت وأمثالك لم تخلقوا لتنقلوا من بلد إلى بلد ، وإنما الأولى بكم أن تزحفوا كالديدان على الأرض التى ولدتم بها .

فى باريس فى ١٥ من رمضان سنة ١٧١٣ .

الرسالة الخمسون

من ريكا إلى .....

رأيت أناساً جُبِلوا على الفضيلة فلا يكادون يشعرون بها ، ويلتزمون بأداء واجبهم دون انحراف ، كأنما يؤدونه بدافع من غريزتهم . وفضلا عن أنهم لا يتحدثون عن تلك الفضائل النادرة فإنهم يتحلون بها وإن بدا لأول وهلة أنهم عطل منها . هؤلاء هم الناس الذين أحبهم لا هؤلاء الفضلاء المعجبين بفضلهم الذين ينظرون إلى العمل المجيد كأنه معجزة ينبغي أن يتحدث الناس عنها .

وإذا كان التواضع فضيلة ضرورية للذين منحهم الله مواهب عظيمة ، فماذا يمكن أن يقال عن تلك الحشرات التى تجرؤ على أن تُظهر زهواً يُزرى بأعظم الرجال ؟

إنى أرى فى كل مكان أناساً يتحدثون عن أنفسهم بلا انقطاع ، وأحاديثهم مرآة تبدى دائماً حالتهم الممجوجة : إنهم يحدثونك عن أتفه الأشياء التى حدثت لهم ، ويهتمون بأن يعظموها فى عينيك . إنهم — فى زعمهم — قد صنعوا كل شيء ، ورأوا كل شيء ، وقالوا كل ما يقال ، وفكروا فى كل ما يستطيع فكر أن يتناوله : إنهم نماذج عالمية ، وموضوع للموازنة لا ينتهى ، ومنبع لأمثلة لا ينضُب . ياله من ثناء ممجوج أن يمدح المرء نفسه !

منذ أيام أرهقنا رجل من هذا النوع بالحديث عن نفسه وعن نبوغه ومواهبه ساعتين كاملتين ، فلما وجد من القوم فتورا ، وعدم تأثر لما يقول ، كفّ عن الكلام ، وعاد إلينا الحديثُ فتناولنا أطرافه . وكان هناك رجل بدا الهمّ عليه فأخذ يشكو الملل الذى شاع فى الأحاديث وقال : ما هذا ؟ أنصاب دائماً بالحمق الذين يسرفون فى الثناء على أنفسهم، وينسبون كل شيء إليهم ؟ فأجابه المتحدث الأول من فوره : أصبت كان ينبغى ألا يفعلوا إلا ما أفعل إننى لا أزكى نفسى أبداً : فأنا ثرىّ ، ومن أسرة نبيلة ، وواسع النفقة ، ويقول أصدقائى : إننى على حظ من الذكاء ، لكننى لا أتكلم عن شيء من ذلك كله . وإذا كان عندى من الصفات ما أعتدّ به فى جميع الأحوال فهى تواضعى .

عجبت لهذا الأحمق ، وبينما كان هو يتكلم بصوت عال ، قلت بصوت خفيض : ما أسعد الإنسان المغرور الذى لا يتحدث عن نفسه ، ويخشى من يسمعه ، ولا يعرّض نفسه لاصطدام فضله بغرور غيره !

من باريس فى ٢٠ من رمضان سنة ١٧١٣ .

الرسالة الحادية والخمسون

من هارجوم مبعوث الفرس لدى المسكوف إلى أوزبك

لقد كتبوا إلىّ من أصفهان أنك غادرت فارس ، وأنك الآن في باريس . وهل ينبغي أن أعلم أخبارك من سواك لا منك ؟

إن أوامر ملك الملوك أبقتني في هذا البلد منذ خمس سنوات أتممت فيها كثيراً من المفاوضات الهامة .

إنك تعلم أن القيصر هو الملك المسيحي الوحيد الذى ترتبط مصالحه بمصالح الفرس ؛ لأنه عدوّ الترك مثلنا ، وأن مملكته أكبر من مملكتنا ؛ فحدوده تمتدّ إلى ألف فرسخ من موسكو على امتداد ملكه إلى حدود الصين .

إنه السيّد المطلق المالك لحياة رعاياه وأموالهم ، وشعبه كله عبيد له ما عدا أربع أسرات ، ولكن ملك الملوك ، خليفة الأنبياء ، الذى عرشه فوق السماء لا يفرط في إظهار سلطانه الرهيب .

وفي هذا الجوّ المخيف ببلاد المسكوف لا يعتقد المرء قط أن العقوبة لأى ذنب ، هي النفي ، ومع ذلك إذا غضب على عظيم من العظماء نفي من فوره إلى سيبيريا .

وكما أن دين نبيّنا يحرّم علينا شرب النبيذ ، فإن الأمراء يحرّمونه في روسيا .

وهم يستقبلون ضيوفهم استقبالا غير استقبالنا : فإذا دخل أجنبيّ بيتاً قدم له الزوج زوجته فيقبلها الضيف مجاملة للزوج .

وبالرغم من أن الآباء عند عقد الزواج لبناتهم يشترطون عادة ألا يضربهن الأزواج بالسوط ، فإنك لا تدرى إلى أى مدى تحب الزوجات المسكوفيات أن يُضربن : إنهن لا يستطعن أن يدركن أنهن ملكن قلوب أزواجهنّ إلا إذا ضربوهن ضرباً مبرّحاً . وغير هذا السلوك من الأزواج دليل منهم على عدم اكتراثهم الذى لا يغتفر بزوجاتهم . وهاك رسالة لواحدة من هؤلاء الزوجات كتبتها أخيراً إلى أمها :

« أمى العزيزة :

إننى أتعس زوجة فى العالم ، إننى لم أدع شيئاً يحببنى إلى زوجى إلا فعلته ، ولكنى لم أنجح فى ذلك مطلقاً . فمثلا كان لدى أمس أعمال كثيرة بالمنزل ولكنى تركتها وخرجت ، وظللت طول النهار خارج الدار ، واعتقدت لذلك أن زوجى سيضربنى ضرباً مبرّحاً ولكنه لم يفعل ، بل لم ينبس ببنت شفة . ولكن أختى تجد من زوجها عكس ما أجد من زوجى فهو يضربها كل يوم ، وهى لا تستطيع أن تعدّه رجلا إلا إذا فاجأها بالضرب المميت ، ولذلك هما متحابان ، وينعمان بوفاق لا ترى الدنيا مثله . وهذا يجعل أختى فخورة جداً ، أما أنا فلن أدع زوجى طويلا أن يزدرينى ، وقد قرّرت أن أحمله على حبى مهما كان الثمن ؛ بأن أثير حفيظته حتى يقدم لى علامة الحبّ (١) ، وحتى لا يتسنى له أن يقول : إننى لن أضربها ، ولن أرضى أن أعيش فى بيته دون أن يفكر فىّ . وأقل ضربة منه بسبابته سأصرخ لها صراخاً حاداً حتى يظن الناس أن

(١) الضرب .

الأمور تجرى عندى كما أحبّ ، وإذا جاء أحد الجيران لإنقاذى خنقته .

وإنى أضرع إليك — يا أمى — أن تتفضلى علىّ بأن تتفاهمى مع زوجى هذا الذى يعاملنى هذه المعاملة الشنيعة . وإنى أذكر أن أبى — وقد كان رجلا طيباً — لم يكن سلوكه معك كسلوك زوجى معى ، إذ أذكر أنى كنت وأنا صغيرة أرى أبى يبدى لك فى كثير من الأحيان دلائل المحبة . وأختم رسالتى بأن أبعث إليك قبلاتى . »

والمسكوف لا يستطيعون أن يخرجوا من بلادهم ليسيحوا فى الأرض ، فعزلتهم قوانين بلادهم عن سائر شعوب العالم ، ولذلك احتفظوا بعاداتهم القديمة ، وحرصوا عليها حرصاً شديداً حتى إنه لا يمكن أن يتصوّروا أن هناك عادات أخرى غير عاداتهم . ولكن الملك الذى يحكم البلاد الآن أراد أن يغير كل شىء . وهناك خلاف كبير بينه وبين رعيته سببته لحيته ، وليس رجال الدين — بفضل جهالتهم — أقلّ خلافاً من الشعب معه . إنه حريص على أن تزدهر الفنون ، ولا يهمل مطلقاً فى أن يحمل إلى أوربا وآسيا أمجاد أمته التى ظلت منسية حتى الآن ، ولا يكاد أحد يعرفها غير نفسها .

وأخذ الملك يطوف بدولته الشاسعة قلقاً مضطرباً دائما تاركا فى كل مكان يحلّ به آثاراً لقسوته الطبيعية .

إنه تركهم ، وكأنهم لم يستطيعوا أن يشبعوا مطامعه ، فتركهم ليبحث فى أوربا عن مقاطعات وممالك أخرى يحكمها .

إنى أقبلك — يا عزيزى أوزبك ، وأستحلفك أن توافينى بأنبائك .

من موسكو فى ٢ من شوال سنة ١٧١٣ .

الرسالة الثانية والخمسون

من ريبكا إلى أوزيك فى ....

كنت ذات يوم بمجتمع رفهت فيه عن نفسى إلى حد كبير . لقد ضم هذا الجمع سيدات مختلفات الأعمار ، فواحدة فى الثمانين من عمرها ، وثانية فى الستين ، وثالثة فى الأربعين ومعها بنت أخت فى العشرين أو الثانية والعشرين .

وبدافع خفىّ اقتربتُ من هذه الشابة ، التى همست فى أذنى قائلة : « ماذا تقول فى خالتى التى تريد فى سنها هذه أن يكون لها عشاق فتتأنق فى فى زينتها ؟ » فقلت لها : إنها مخطئة ، وهذه حال أليق بك . وبعد قليل كنت قريباً من خالتها التى قالت لى : « ما قولك فى هذه السيدة التى بلغت على الأقلّ ستين سنة ، وقضت اليوم أكثر من ساعة فى زينتها ؟ » فقلت لها : إنه من الوقت الضائع ، وكان ينبغى أن تكون لها جاذبيتك حتى تفعل ذلك .

ثم اتجهت إلى السيدة التى بلغت الستين ورثيت لحالها عندما أسرّت إلىّ : « هل رأيت أدعى إلى السخرية من هذه السيدة التى بلغت الثمانين من عمرها وتتجمل بأشرطة نارية اللون ، وتريد أن تجعل نفسها شابة ، وقد نجحت فى ذلك لأنها تقترب من الطفولة !

فقلت لنفسى : عجبا ! يا إلهى ! ألا ندرك أبدا إلا حماقات سوانا ؟ !

ثم قلت : قد يكون من السعادة أن نجد عزاء فى ضعف الآخرين ومع ذلك فقد شرعت فى الترفيه عن نفسى قائلا : كنى صعودا فلنهبط الآن ، ولنبدأ بالعجوز التى فى القمة : سألتها : سيدتى إنك شديدة الشبه بهذه السيدة التى فرغت الآن من حديثى معها ، ويبدو لى أنكما أختان وأنكما متقاربتان فى السن ! فقالت لى : « حقا ياسيدى ؛ فإنه إذا ماتت إحدانا وجب أن تفزع الأخرى ، فليس بيننا من العمر أكثر من يومين اثنين » . ولما فرغت من هذه السيدة التى فقدت رونقها اتجهت إلى تلك التى فى الستين ، وقلت لها : « يجب أن تفصلى ياسيدتى فى الرهان الذى عقدته . لقد راهنت على أنك أنت وهذه السيدة فى سن واحدة (وأشرت إلى ذات الأربعين) . فقالت : ليس بينى وبينها فيما أعتقد إلا ستة أشهر ، فقلت : هذا حسن . ثم انحدرت إلى التى فى الأربعين وقلت لها : تفضلى علىّ بأن تجيبينى : أهو من قبيل المزاح مناداتك لهذه الآنسة التى على الطرف الآخر لهذه المائدة على أنها ابنة أختك وأنت شابة مثلها ، ويبدو فى وجهها من تجاعيد السن ما لا يبدو فى وجهك الذى يمتاز بالرونق والبهاء . . . فقاطعتنى قائلة : مهلا مهلا ! أنا خالتها ، لكن أمها كانت تكبرنى على الأقل بخمس وعشرين سنة ، ولم نكن لأمّ واحدة : ولقد سمعتها تقول : إننى وابنتها ولدنا فى وقت واحد . فقلت : هذا ما ظننته يا سيدتى تماما ، ولم أكن مخطئا فى عجبى ! . .

ياعزيزى إوزبك : إن النساء اللائى يشعرن بأنهن انتهين قبل الأوان لفقد جمالهن يرغبن فى العودة إلى الشباب . وكيف لا يخدعن سواهنّ وهنّ يخدعن أنفسهن بأن يهربن من التفكير فى السنّ ، وهو أشد الأفكار إيلاماً لهنّ .

فى باريس — فى ٣ من شوال سنة ١٧١٣ .

الرسالة الرابعة والخمسون

من ريكا إلى أوزبك في . . . .

كنت صباح اليوم فى حجرتى وهى كما تعرف لا يفصلها عن سائر الحجرات إلا حاجز خشبى رقيق جداً ، مثقب من مواضع كثيرة منه فلذلك يسمح بأن يسمع الإنسان ما يدور من حديث فى الحجرة المجاورة. وكان هناك رجل يغدو ويروح فى الغرفة بخطى واسعة يقول لآخر : لا أدرى ما هذا ؟ كل شىء يسير على غير ما أرغب فمنذ ثلاثة أيام لم أقل قط إلا ما يشرفنى وخضت فى أحاديث شتى دون أن أثير أى انتباه نحوى ، وإن كان الحديث قد وجه إلىّ مرتين . وقد كنت أعددت بعض أفكار رائعة يسمو بها حديثى لكنهم لم يتيحوا لها أن تحضرنى . وكانت لدى قصة جميلة أقصها ولكنى كلما هممت بسردها وجدت إعراضا كأنه متعمد . كما هيأت فى خاطرى كلمات طيبة اختمرت فى ذهنى أربعة أيام دون أن أجد أى فرصة لاستعمالها ، فإذا استمر الحال على هذا المنوال فسأعتقد فى النهاية أننى أحمق . إن ظهورى فى المجتمع هو حظى الذى أنشده ، ولن أدعه يفلت من يدى . لقد رجوت أمس أن تلمع مواهبى وأنا أتحدث إلى ثلاث عجائز أو أربع ، لم يكرهننى على شىء ، لكن كان لزاماً علىّ أن أتحدث أجمل الأحاديث وجعلت أتصرف فى القول ربع ساعة ، دون أن يعرننى أدنى انتباه ، بل كن يقطعن حديثى كما تقطع الآلهة المشئومة حبال العمر

أتريد أن أقول لك : إن الوصول إلى الشهرة فى الظرف يتكلف كثيرا ؟ إننى لا أدرى كيف وصلت أنت إليها . فقال الآخر : تراودنى فكرة هى أن نتفق على أن نعمل معاً متعاونين لتحقيق هذه الغاية . وفى كل يوم نعدّ ما ينبغى أن يقال ، ثم نشترك فى إلقائه ، فإذا همّ أحد أن يقاطعنا فى أثناء سرد أفكارنا اجتهدنا فى جذبه إلى صفنا ، فإذا لم يأت معنا طوعا عنّفناه . وينبغى أن نختار المجتمعات التى تتقبل ما عندنا ، والأشخاص الذين يرجى من بعضهم أن يبتسم لما نقول ، ومن بعضهم الآخر أن يضحكوا مقهقهين . وسنعطى كل حديث طابعه المناسب ، وسيعجب الناس بحيوية تفكيرنا ، وحضور بديهتنا ، وسنحتمى بتبادل إيماءات الرأس . وستلمع اليوم ، وغداً ستلحق بى فى الشهرة . سأدخل معك بيتا . وسأكتب لنفسى مظهرا لك ما أكتب . يجب أن أجيبك إجابة فكهة كالتى أجاب بها آنفاً ذلك الرجل الذى لقيناه معا فى الشارع ، ثم التفت إليك قائلا : إن الرجل لم يكن يتوقع ذلك ، وقد ملكه العجب . ثم سأنشر بعض أشعارى ، فتقول أنت : لقد كنت معه وهو يعدّها ، وكان ذلك ونحن نتناول العشاء ، ولم تحتج منه إمعاناً فى التفكير . ومع ذلك سيسخر بعضنا من بعض كثيرا ، وسيقول الناس . انظروا كيف يهجم كل منهما على الآخر ، وكيف يتصارعان ولا يدّخران وسعا فى النزاع . ثم انظروا . ما أروع تخلصه ! أى حضور بديهة هذا ! إنها معركة حقيقية ، ولكنهم لن يقولوا : إننا كنا بالأمس متناوشين .

وينبغى أن نشترى بعض الكتب المشتملة على كلمات طيبة مختارة أنشئت ليستعملها الذين ليس لهم حظ من الفصاحة ، ويتخذونها نماذج لهم يحتذونها ، ومحاكاة النماذج لها أثرها فى كل شىء . وأريد أن نكون — قبل مرور ستة أشهر — فى حالة تمكننا من تناول الحديث ساعة كاملة نعمرها بروائع الكلم ؛ لكن ينبغى أن ننتبه إلى شىء هام هو أثر

ما نقوله فى الناس ؛ إذ ليس كافياً أن نقول الكلام الرائع فحسب ، بل ينبغى أن نحرص على أن نجد له صدى فى النفوس وأن ينتشر فى كل مكان ، وبدون ذلك سنفقد كثيرا مما نريد تحقيقه ، وأعترف لك أنه ليس شيء أدعى للحزن من أن يقال كلام جميل فيموت فى أذن أحمق يسمعه ولا يعيه .

وفى الحق إننا نجد فى كثير من الأحيان شيئاً من التعويض ، وذلك التعويض هو ما نقصه أحيانا من ترهات تمر دون أن يتنبه أحد إليها .

إنه الشيء الوحيد الذى نتعزى به فى هذه الحال . هذا ياعزيزى هو الموقف الذى يجب أن نقفه . افعل ما أقوله لك ، وأنا أعدك أن تصل — قبل ستة أشهر — إلى مكان فى الأكاديمية . ومعنى ذلك أننى أقول لك: إن العمل لن يكون طويلا . وعند وصولك إلى هذه الغاية يمكنك أن تقلع عن فنك ، وستكون رجل بيان ولو أنك ذو بيان .

ويلاحظ — فى فرنسا — أن الرجل لا يكاد يدخل فى جماعة حتى يكسب ما يسمى روح الجسم . ستنطبق عليك هذه القاعدة ، ولن أخشى عليك شيئاً إلا أن ترتبك من شدة التصفيق لك .

من باريس فى ٦ من ذى القعدة سنة ١٧١٤ .

الرسالة السادسة والخمسون

من أوزبك إلى ايبن فى أزمير

لعبُ الميسر شائع فى أوربا ، وإنها لحرفة أن يكون الإنسان لاعباً ، ولقب اللاعب يحلُّ محل شرف النسب ، والثراء ، والاستقامة : ويضع من يحمله فى مرتبة أشراف الناس ، دون اختبار ، ومع أن كل إنسان يعرف أن مثل هذا الحكم قائم غالباً على الضلال ، فإنهم قد اتفقوا على ألا يسلكوا الطريق السوى .

والنساء خاصة أكثر انكباباً على اللعب . حقاً إنهن لا يسترسلن فيه أيام شبابهن إلا تيسيراً لشهوة هى أحب إلى نفوسهن ، وكلما تقدمت بهن السن قويت رغبتهن فى اللعب ، ثم تطغى هذه الرغبة على الرغبات الأخرى .

إنهن يرون دمار أزواجهن ، وعندهن فى جميع مراحل العمر الوسائل التى توصلهن إلى ذلك ! من الشباب الغض إلى الشيخوخة الفانية : فيبدأ اضطراب الثروة بالثياب والعربات والخدم والحشم ، ويضاعفه مطالب الزينة ، ويجهز على الثروة لعب الميسر .

رأيت أحياناً تسع نساء أو عشراً : وبعبارة أدق تسعة قرون أو عشرة ، قد اصطففن حول مائدة ، فرأيتهن فى أملهن ، وفى خوفهن ، وفى سرورهن ، وفى حدتهن بنوع خاص : إذا رأيتهن قلت : إنه ليس لديهن وقت ليهدأن ،

وأن حياتهن ستفارقهن قبل اليأس . وسترى نفسك فى شك فيما إذا كان أولئك الذين يدفعون لهن المـال دائنين أو وارثين لهن .

ويبدو لى أن نبينا الكريم لرغبته الأصيلة فى أن يحرّم علينا كل ما يحدث اضطراباً لعقولنا حرّم علينا الخمر التى تخمرُ[1] عقولنا . وبنصوص صريحة حرّم علينا لعب الميسر . ولأنه رأى من المستحيل نزع الأسباب التى تستثير الرغبات ، أجتهد فى أن يخمدها ، ويخفف من حدّتهـا .

إن النكاح بالنسبة إلينا لا يثير فينا اضطرابا ولا حقدا : إنه شهوة مضنية تترك النفس فى هدوء : إن جمهرة النساء ينجيننا من سلطانهن ، فيخفض حدة اشتهائنا لهن .

من باريس فى ١٠ من ذى الحجة ١٧١٤ .

---

(١) تخمر : تستر .

الرسالة السابعة والخمسون

من أوزبك إلى رهيدى فى ڤينيس

الفجار هنا يستحوذون على عدد لا حصر له من بنات الهوى ، والنسّاك يسيطرون على عدد كبير من الدراويش . وهؤلاء الدراويش أعطوا عهوداً ثلاثة : من طاعة وفقر وعفة . ويقال : إن الأولى روعيت أكثر من سواها ، وأما الثانية فلم توجد قط ، وأدع لك أن تحكم على الثالثة .

ومهما كان ثراء هؤلاء الدراويش فإنهم لا يتخلون أبداً عن صفة الفقر ، بل قد يتخلى سلطاننا العظيم عن مظاهر أبهته ، ورفيع ألقابه ، أما هم فلا يتخلون عن لقب الفقر الذى يقيهم من أن يصبحوا فقراء . وهم فى ذلك محقون .

والأطباء ، وبعض هؤلاء الدراويش الذين يسمّون رجال الاعتراف[1] ، هم هنا دائماً إما محل تقدير كريم أو ازدراء مهين ، ومع ذلك فإنه يقال : إن الورثة يستريحون إلى الأطباء أكثر مما يستريحون إلى رجال الاعتراف .

كنت يوماً فى دير لهؤلاء الدراويش ، فاستقبلنى منهم شيخ اكتسب وقاره من شعره الأبيض استقبالا كريماً ، وبعد أن أرانى الدير كله ،

(١) الذين يعترف أمامهم (Les confesseurs)

صحبنى إلى الحديقة ، حيث أخذنا فى الحديث ؛ فقلت له : ما عملك يا أبى فى هذه الجماعة ؟ فأجابنى ، وقد بدا على مُحيّاه الرضا بسؤالى : أنا المفتى فقلت له : المفتى ؟ إننى مذ كنت بفرنسا لم أسمع شيئاً عن هذا العمل ، فقال : وى ! ألا تدرى ما المفتى ؟ لا بأس ، استمع إلىّ فسأعطيك عنه فكرة واضحة ، لا تدع لك رغبة فى مزيد ، وأنشأ يقول : هناك نوعان من الذنوب : كبائر تحرّم الفردوس تحريماً باتا ، وصغائر تغضب الله حقاً ، ولكن غضبه لا ينتهى إلى حرماننا من النعيم . وعملنا يقوم على التمييز بين هذين النوعين من الخطايا .

وإننا إذا استثنينا بعض الفجار ، فإن جميع المسيحيين يريدون أن يظفروا بالفردوس ، وليس منهم قط من لا يحرص على أن يدخلها بأيسر ثمن ممكن ، فإذا بانت له الكبائر بيانا واضحا ، فإنه يحاول ألا يرتكبها . وهنا يبدأ العمل .

ومن الناس من لا ينزعون إلى حظ عظيم من الكمال ، ولا طموح عندهم مطلقا ، فلا يهتمون بأن يبلغوا أعلى الدرجات ، وحسبهم أن يدخلوا الجنة ، فإذا دخلوها فهذا منتهى أملهم ، لا يريدون أقل منه ولا أكثر ، إنهم أناس يؤثرون الغضب من السماء بدلا من أن ينالوا منها ، يقول قائلهم لله (تعالى) : « مولاى : إنى أنجزت بتشدد الشروطَ التى فرضتها علىّ ، فلا ينبغى لك إلا أن تنجز وعدك لى . لم أفعل أكثر مما طلبت منى ، ومع ذلك أرجو أن يكون إحسانك إلى أكثر مما وعدتنى » . ثم قال هذا الشيخ : إذن فنحن يا سيدى قوم لا غنى عنهم . ومع ذلك فليس هذا كل شأننا ، وسترى لنا شأنا آخر .

الحدث لا يفعل الجريمة ، وإنما المعرفة هى التى ترتكبها : فمن يفعل إثماً ، ويمكنه أن يعتقد أنه لم يفعل شراً يكون هادىء الضمير . وبما أن هناك عدداً لا يحصى من الأفعال المشتبه فى حكمها فإن المفتى يستطيع أن يعطيها درجة من الخيرية لم تكن مستقرة لها ، بأن يصفها كذلك بشرط أن يثبت أنه لا ضرر منها ، أو يحذفها برمتها .

وهأنذا أقول لك سر المهنة التى شبت فيها وأريك دقائقها . إن لكل شىء دوراً فى الحياة ، حتى الأشياء التى تبدو أنها تافهة الأثر .

فقلت له : يا أبى ، هذا حسن ، ولكن كيف ترضون الله ؟ إذا كان فى بلاط صوفىّ عظيم ، رجل مثلك ، يصنع معه ما تصنع أنت ضد إلهك ، بعد أن بيّن الفرق بين أوامره ونواهيه ، وعلم أتباعه فى أى حالة يجب أن ينفذوها ، وفى أى حالة أخرى يستطيعون أن يخالفوها ؟ إنه يرفعه من فوره على (الخازوق) .

وإذ ذاك حييت المفتى ، وتركته دون أن أنتظر جوابه .

من باريس فى ٢٣ من المحرم سنة ١٧١٤ .

الرسالة الثامنة والخمسون

من ريكا إلى رعدى فى فينيس

فى باريس — يا عزيزى رعدى — مهن كثيرة ؛ فهناك يأتى إليك رجل مفضال يعرض عليك السر فى الحصول على الذهب مقابل يسير من المال تنفحه إياه .

ويأتى آخر يعرض عليك أن تعاشر جنيات الريح بشرط ألا تكون قد استمتعت قط بالنساء ثلاثين سنة .

وتجد عرّافين مهرة إلى درجة أنهم يقصّون عليك تاريخ حياتك لكن بشرط واحد : هو أن يتحدثوا قبل ذلك مع خدمك ربع ساعة فقط .

وأخريات يصلحن بفنهن ما أفسد الدهر ، ويعرفن كيف يرددن الجمال الذاهب إلى الوجوه ، بل يستطعن أن يستدعين امرأة فى قمة الشيخوخة لتنزل إلى الشباب الغضّ .

هؤلاء الناس جميعاً يعيشون ، أو يبحثون عن عيشهم فى مدينة هى أم الابتكار .

وإيرادات المواطنين فى هذه المدينة لا تثبت على حال مطلقاً ، ولا تعتمد إلا على الذكاء والحرفة ، وكل له حرفته التى يعتز بها أيما اعتزاز .

ومن أراد أن يحصى جميع رجال القانون الذين يتتبعون إيراد بعض

المعابد ، كان كمن أراد أن يعدّ رمال البحر أو عبيد ملكنا .

وفى باريس عدد لا حصر له من مدرسى اللغات والفنون والعلوم ، وهم جميعا يعلّمون ما يجهلونه ، وهذه موهبة جديرة بالتقدير ، لأن التظاهر بالمعرفة لا يحتاج إلى كثير من الذكاء إنما الذى يحتاج إلى ذكاء لا حدّ له هو أن يعلّم المرء ما يجهل .

ولا يمكن أن يقع الموت هنا إلا فجأة ، لأنه لا يستطيع أن يمارس سلطته إلا بهذه الطريقة ، وذلك لأن فى كل ركن من أركان المدينة أناساً لديهم دواء ناجع يشفى جميع الأمراض التى يستطيع الإنسان أن يتخيلها .

وجميع الدكاكين نصبت عليها شباك غير مرئية تصطاد المشترين ، وقد يخرجون منها أحيانا وقد اشتروا بأثمان معتدلة . وقد تلاطف بائعة رجلا ساعة كاملة ليشترى حزمة (خلة) لتسليك الأسنان .

ولا يخرج إنسان من هذه المدينة إلا وقد صار أكثر حذراً واحتياطا منه وقت أن دخلها ؛ فإنه لطول ما مارس التعامل المالى مع غيره تعلّم المحافظة على المال ، وهذه هى الفائدة الوحيدة التى يجنيها الأجانب من هذه المدينة الفاتنة .

من باريس فى ١٠ من صفر سنة ١٧١٤ .

الرسالة التاسعة والخمسون

من ريكا إلى أوزبك فى ....

كنت بالأمس فى منزل اجتمع فيه أخلاط من الناس ، واستأثرت بالحديث عجوزان قضتا صباحهما كله فى التصابى ، فقالت إحداهما : ينبغى أنى أعترف أن رجال اليوم غير رجال الأمس الذين خالطناهم فى شبابنا ؛ فقدكانوا مهذبين ظرفاء ملاطفين . أما رجال اليوم فهم فى غلظة لا تطاق فقال رجل يبدو أنه مرهق بالنقرس[1] : إن كل شىء قد تغير ، ولم يعد الزمان كما كان ، فمنذ أربعين سنة كان جميع الناس فى صحة جيدة يغدون ويروحون مرحين ضاحكين راقصين ، والآن يعيش الناس جميعاً فى همّ لا يطاق . وبعد برهة اتجه الحديث نحو السياسة ؛ فقال سيد عجوز : يا إلهى ! إن الدولة لم يعد بها حكم حازم ! أتجدون الآن وزيراً كالسيد كولبير ؟ لقد عرفته جيداً . كان من أصدقائى ، وكان يأمر أن يصرفوا لى مرتبى قبل أى إنسان كائناً من كان . أى نظام مالىّ رائع كان يسود فى عهده ! كان الناس جميعاً فى رخاء ، لكننى الآن قد أفلست. عند ذلك شرع رجل من رجال الدين يقول :

لقد تكلمت عن الزمان الحافل بالمعجزات الخارقة فى عهد ملكنا الذى يقهر ، وهل هناك شىء أعظم من الجهود التى بذلها للقضاء على الإلحاد ؟ وقال آخر بنغمة الرضا، ولم يكن تكلم من قبل : أتستهينون بإلغاء

---

(١) النقرس : داء الملوك .

المبارزة ؟ فهمس فى أذن بعض القوم قائلا هذه ملحوظة صائبة : إن هذا الرجل مفتون بمرسوم الإلغاء ، ويقدره تقديراً حسنا . حتى إنه منذ ستة أشهر ضُرب مائة عصا حتى لا يتمرد عليه .

يبدو لى — يا أوزبك — أننا لا نحكم على شىء أبداً إلا إذا طبقناه دون أن نشعر على أنفسنا .

ولا يأخذنى العجب إلا من الزنوج الذين يرسمون الشيطان أبيض ناصعاً ويرسمون آلهتهم سوداً كالفحم ، وأعجب من بعض الشعوب الذين ينحتون فينيس بثديين تتدليان حتى فخذيها . ومن جميع الوثنيين الذين يصورون آلهتهم بوجوه آدمية ، ثم يشتركون فى عبادتها ، وبحق يقال : إن الذين يثلثون الآلهة لو اتخذوا لهم إلها واحداً لجعلوه مثلث الجوانب .

ياعزيزى أوزبك . عندما أرى الناس يزحفون فوق الذرة — أعنى الأرض التى ما هى إلا نقطة صغيرة فى الكون — وأراهم يفرضون أنفسهم كنماذج للحكمة الإلهية لا أدرى كيف أوفق بين ضآلتهم وإمعانهم فى العته .

من باريس فى ١٤ من صفر سنة ١٧١٤ .

الرسالة الستون

من أوزبك إلى ايبن فى أزمير

تسألنى : هل فى فرنسا يهود ؟ ألا فاعلم أنه حيث كان المال كان اليهود . وتسألنى : ماذا يعملون فيها ؟ فأقول لك : يعملون هنا تماما ما يعملون فى فارس ؛ فليس هناك شبه أقوى من تشابه يهودى أسيوى ويهودى أوربى .

إنهم يبدون مع المسيحيين كما يبدون معنا عناداً دينياً لا يقهر ، يبلغ درجة الجنون .

إن اليهود لم يجدوا فى أوربا هدوءاً كالذى يتمتعون به عندنا . وقد بدءوا فى البيئات المسيحية يهذبون روح التعصب التى تثيرهم ، ولم يرض عنهم الأسبان فطردوهم ، وأتعبهم — فى فرنسا — المسيحيون الذين يختلقون شيئاً ما فى عقيدتهم عن ملكهم . ويلاحظ أن التحمس لنشر الدين يختلف باختلاف التعلق به ، وحبه ، وتقديره تقديراً واعياً ، وليس ضرورياً أن نمقت أو نضطهد من لا يقدر ديننا .

ومما نتمناه أن نفكر نحن المسلمين أيضا بتعقل فى هذا الموضوع كما يفكر المسيحيون الذين استطاعوا أن يكونوا فكرة طيبة عن الوئام بين على وأبى بكر ، ونترك للعناية الإلهية أن تقدر منازل الأنبياء[1]

---

(١) قد يوهم كلامه أن علياً وأبا بكر رضى الله عنهما نبيان . ولكنهما من أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن خلفائه الراشدين . (المراجع)

المقدسين . وأود أن نكرمهم بمظاهر الإجلال والاحترام ، بدلا من أن نفاضل بينهم بلا جدوى ، ونبحث عما يستحقون بفضلهم من منازل أعدها الله لهم بين أهل اليمين ، أو فى المقربين تحت درجات العرش .

من باريس فى ١٨ من صفر سنة ١٧١٤ .

الرسالة الحادية والستون

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

دخلت يوما ما كنيسة مشهورة هى كنيسة نوتردام ، وبينما كنت أتأمل بإعجاب هذا المبنى الرائع التقيت برجل من رجال الكنيسة ، دفعه إلى الكنيسة حب الاستطلاع كما دفعنى ، وتناول الحديث ما فى وظيفته من راحة بال . فقال لى : إن أكثر الناس يحسدنا على سعادة حالنا ، وهم على حق وإن كان لحالنا مساوئها ؛ فنحن لم نعزل من الدنيا قط إلا لندعى إليها فى كثير من الأحوال ، ولذلك كان علينا فى الحياة أن نمثل دوراً يصعب جداً أن ننهض بأدائه .

إن شأن الناس معنا عجيب ، فهم لا يستطيعون أن يقبلوا منا استحسانا ولا استهجانا ، فإذا دعوناهم إلى صلاح جعلونا موضع سخرية وإذا أقررناهم على ماهم عليه اعتبرونا أقل من سلوكنا . وليس شىء أدعى إلى الهوان من أن يفكر واحد منا أنه موضع للريبة من الناس حتى من الزنادقة أنفسهم ، فنحن إذن مضطرون إلى أن نلتزم سلوكا غامضاً على الفسقة فلا نسلك معهم سلوكا محدداً ونضعهم فى شك نحصل به على اعترافاتهم ، وهذا يستلزم كثيراً من الذكاء ، لأن حالة الحياد هذه شاقة : لأن أصحاب الدنيا يخاطرون فى كل فرصة ، وينطلقون متوثبين ، فإما أن يدفعهم النجاح إلى غايتهم ، وإما أن يتخلى عنهم فهم أكثر منا نجاحا . وفضلا عن هذا فإننا لا نظفر فى عالمنا بتلك الحال التى تتحقق فيها

السعادة التامة ، والهدوء المريح المحمودان من الناس فما نكاد نظهر في المجتمع حتى يثار معنا الجدل ، ويتصدى الناس لنا بعنف يسألوننا مثلا عن فائدة الصلاة من رجل لا يؤمن بوجود الله ، وعن ضرورة الصوم من رجل آخر ينفي — طول حياته — خلود الروح ، فعملنا دائب ، ولا ينبغي أن يسخر منا الساخرون . هذا ، والرغبة في استمالة غيرنا إلى آرائنا يسبب لنا أذى لا ينقطع ، وذلك مرتبط بمهنتنا ، وهو أمر يدعو إلى السخرية تماما أن يبيض الأوربيون وجوه الإفريقيين خدمة للنوع الإنساني . إننا نحدث اضطرابا في الدولة ، ونتأذى نحن أنفسنا بفرض مبادىء ليس لها أصل في الدين . ونحن في ذلك أشبه بفاتح الصين الذي دفع رعاياه إلى ثورة عامة لأنه ألزمهم بأن يحلقوا شعورهم ، أو يقلموا أظفارهم . وحماستنا نفسها التي تدعونا إلى أداء الواجبات التي حملنا إياها ديننا المقدس هي في غالب الأحيان حماسة خطرة : ليست مصحوبة بمقدار كاف من الحكمة . ومما يحكى — قريباً من هذا — أن إمبراطوراً يدعى تيودور عرض على حد السيف سكان مدينة من المدن حتى نسائها وأطفالها ثم تهيأ للدخول في الكنيسة ، لكن مطرانا يدعى إمبرواز أغلق الأبواب في وجهه لأنه مجرم منتهك للحرمات ، وتلك بطولة منه ، ثم تاب هذا الإمبراطور من جريمته الشنعاء ، ورضيت عنه الكنيسة . ثم ذهب فجلس بين القسيسين ، لكن المطران السالف الذكر أخرجه ، فكان هذا تعصبا منه ، والواجب أن يحذر الإنسان من تحمسه وماذا يهم الدين أو الدولة إذا كان لهذا الملك مكان بين القساوسة أو لم يكن !

من باريس في غرة ربيع الأول سنة ١٧١٤ .

الرسالة الثانية والستون

من زيليس إلى أوزبك في باريس

قد بلغت ابنتك السابعة من عمرها فرأيت أن الوقت قد حان لإدخالها في الأجنحة الداخلية من القصر ، وأنه لاداعي مطلقاً لانتظار بلوغها العاشرة لنعهد بها إلى الخصيان السود . إذ لم يعهد الناس أن يحرموا بنتاً — في سن مبكرة — من حريات الطفولة ، ويمنحوها تربية دينية بين جدران مصونة حيث يكون الطهر والحياء .

ولست أرى رأى هؤلاء الأمهات اللائى لا يحجبن بناتهن إلا قبيل تزويجهن ثم يفرضن عليهن حياة القصور بما فيها من تضييق شديد ، دون أن يهيئن أنفسهن لهذا النوع من الحياة . وهل يجدر بنا أن ننظر دائماً إلى حكم العقل دون أن نحسب حساباً لسلطان العادة !

ومن العبث أن يحدثنا الناس عن خضوعنا للشهوات التى أودعتها فينا الطبيعة ، إذ لا يكفى الإحساس بها ، بل يجب أن نعالجها حتى نستطيع احتمالها فى فترة المراهقة الدقيقة التى تبدأ فيها العواطف الجنسية تظهر وتشجعنا على الاستقلال .

فلو أنه لا يربطنا بكم — معشر الرجال — إلا الواجب ، فإن من الممكن أن ننسى أحياناً هذا الواجب ، وإذا كان الرباط نتيجة لميل فقد يضعفه ميل أشد منه . وعندما يعطينا القانون رجلا فإنه يحرمنا من سائر الرجال ، ويباعد بيننا وبينهم كأن بيننا مائة ألف ميل .

إن الطبيعة العاملة لخير الإنسان لا تقتصر على أن تحقق له رغباته ، وإنما أرادت لنا أن تكون هذه الرغبات فى أنفسنا حتى نكون آلات حية يستمتعون بها ، فهى تضعنا فى نار الشهوات لتجعلها تعيش فى هدوء ، ولو أن الناس فقدوا حساسيتهم ، فقد هيأتنا الطبيعة لنردها إليهم ، دون أن نستطيع تذوق تلك الحالة السعيدة التى منحناها إياها .

ومع ذلك — يا أوزبك — لا تتصور أنك فى حال أسعد من حالى ، فقد ذقت كثيراً من اللذات التى لا تعرفها ، وسبح خيالى دائماً لمعرفة قيمتها ، لقد عشت أما أنت فلم تجلب لنفسك إلا الضنى . إننى — فى السجن الذى وضعتنى فيه — أكثر حرية منك ، فأنت تضاعف اهتمامك ببقائى فى السجن ، وأنا أستمتع بقلقك وشكوكك وغيرتك وهمومك ، وكلها دلائل أكيدة على تعلقك بى .

استمر — ياعزيزى أوزبك — فى السهر على ليلا ونهاراً ، ولا تقنع بالاحتياط المعتاد ، وضاعف هنائى بتحقيق ما تهنأ به ، واعلم أننى لا أخشى شيئاً إلا عدم اكتراثك بى .

سراى أصفهان فى ٢ من ربيع الأول سنة ١٧١٤ .

الرسالة الثالثة والستون

من ريكا إلى أوزبيك فى . . . .

أعتقد أنك تريد أن تقضى حياتك فى الريف ، وما كنت أفتقدك فى أول الأمر إلا يومين أو ثلاثة ، وها أنت ذا قد حرمتنى رؤيتك خمسة عشر يوما . إنك فى بيت رائع حقـًا ، تجد فيه جماعة توافق هواك ، وتتصرف فيه كما تريد ، ولست فى حاجة بعد ذلك إلى مزيد كى تنسى العالم كله :

أما أنا فإنى أكاد أحيا الحياة نفسها التى عهدتنى أحياها ، أنطلق فى الدنيا وأخبر أحوالها ، ونفسى تفقد بشكل غير محسوس كل ما بقى لهـا من أسيويتها ، وتتشرب بلا عناء العادات الأوربية ، فلم أعد أعجب أن أرى خمس نساء أو ستا فى منزل مع خمسة رجال أو ستة ، ولا أرى فى ذلك غرابة .

وأستطيع أن أقول : إننى لم أعرف النساء إلا منذ جئت إلى هنا ، وقد تعلمت منهن فى شهر ما لم أكن لأتعلمه فى القصر فى ثلاثين سنة .

فعندنا الأخلاق متشابهة ، لأنها متكلفة ، فلا ترى الناس يظهرون كما هم ولكن كما يضطرهم المجتمع أن يكونوا : وفى هذه العبودية القلبية والفكرية لا تسمع منهم غير الخوف الذى ليست له إلا صورة واحدة من التعبير ، خلافاً للطبيعة التى تعبر عن نفسها بصور شتى .

المواربة ، هذا الفن الشائع عندنا الملازم لنا ، غير معروف هنا فكل شيء يعبر ، وكل شيء يظهر ، وكل شيء يسمع ، والقلب يتكشف كالوجه ، وفى الأخلاق ، وفى الفضائل ، بل فى الرذيلة نفسها ، يرى دائماً شيء من الانطلاق مع الفطرة .

وينبغي - لإرضاء النساء - نوع آخر من الاستعداد فوق ما تقر به أعينهن ، قوامه مرح الروح الذى يسليهن ، ويبدو أنهن يتطلبنه فى كل لحظة ولا يمكن أن يكتفين منه إلا بأزمنة ممتدة لا انفصال بينها .

وهذه الفكاهة بطبيعتها إنما كانت لتجميل الحياة ، ويبدو أنها أصبحت طابعاً عاما للأمة : فهم يمزحون فى مجلس الوزراء ، وفى قيادة الجيش ومع السفير . والمهن لا تكون موضعاً للتهكم والازدراء إلا بمقدار حظها من الجد ، فالطبيب لا يكون موضع دعابة إلا إذا كانت ثيابه أقل إيحاء للحزن ، وإلا إذا قتل مرضاه بدعاباته .

فى باريس فى ١٠ من ربيع الأول سنة ١٧١٤ .

الرسالة الرابعة والستون

من رئيس الخصيان السود إلى أوزبك فى باريس

إننى يامولاى العظيم فى ضيق لا أستطيع أن أعبر لك عنه ؛ فالقصر فى فوضى وارتباك شنيع ، والحرب دائرة الرحى بين نسائك . والانقسام يسود خصيانك ، ولا تسمع إلا الشكاوى والهمس والتأنيب . وتنبيهاتى لا يعبأ بها ، وكأننا فى وقت أبيح فيه كل شيء ، ولم يبق لى فى القصر من الرياسة إلا لقب لا قيمة له .

وليس فى نسائك واحدة إلا ترى نفسها أفضل من سائر أترابها بنسبها وجمالها وثرائها وذكائها وبمحبتك إياها . وليس منهن إلا من تفخر ببعض هذه الصفات التى تفوق بها سواها . وأخذت أفقد صبرى الجميل شيئاً فشيئا ، ومع هذا الصبر شقيت بأن أسخطتهن جميعا . ولم تنفع معهن حكمتى ، ولا رعايتى لهن ، وهى موهبة نادرة غريبة جدا فيمن يشغل المنصب الذى أشغله .

أتريد — يامولاى العظيم — أن أكشف لك عن السر فى كل هذه الفوضى ؟ ما يكنه قلبك لهن ، وحنانك عليهن فلو تركت طريق التأنيب والتحذير ، وأطلقت يدى فى تأديبهن . ولم تلن لشكواهن ، ولم تتأثر لدموعهن وأحلتهن على باكيات ، وأنا الذى لا يرق أبداً ، فإنى أضعهن من فورى تحت النير الذى يجب أن يرزحن تحته ، وأطامن مزاجهن المتعجرف المتحرر .

خطفت فى الخامسة عشرة من عمرى من موطنى بقلب إفريقية، وباعونى أول الأمر إلى سيد كان فى حوزته أكثر من عشرين امرأة أو حظية. وقد أدرك من مظهرى الصارم، ومن صمتى، أننى أصلح لخدمة القصر، فأمر بأن أعد لذلك، فأجريت لى عملية كانت قاسية فى أول الأمر، لكنها جعلتنى فيما بعد سعيدا لأنها قربتنى من آذان سادتى، وجعلتنى موضع ثقتهم. ودخلت هذا القصر الذى كان بالنسبة إلى عالما جديدا. وكان كبير الخصيان به أقسى رجل رأيته فى حياتى، ويحكم فيه بسلطان مطلق، فلم يكن يسمع به كلام، ولا انقسام ولا شحناء، بل سكون عميق يسود جميع الأرجاء. وكانت جميع نسائه يأوين إلى فراشهن فى وقت واحد على مدار السنة، ويستيقظن فى وقت واحد، ويدخلن الحمام متعاقبات فى نظام، ويخرجن منه لأدنى إشارة تصدر منا إليهن، وفى سائر أوقاتهن كن محجوبات دائما فى حجراتهن، وكانت هناك قاعدة تحملهن على الاستقامة التامة فى سلوكهن، وتراعى باهتمام بالغ لا يوصف. هذه القاعدة هى: إن أقل خروج على الطاعة لا بد من العقاب عليه دون عفو. وقد قال لى مرة: إننى عبد، لكنى عبد لرجل هو سيدى وسيدك، وإنى أستخدم ما خولنى من سلطان عليك. فاذا عاقبتك فإنما هو الذى عاقبك، لأنه هو الذى أعارنى اليد التى عاقبتك بها.

إن هؤلاء النساء لا يدخلن حجرة سيدى قط إلا إذا استدعين إليها ويتقبلن هذا الفضل بحبور وقد يرين أنفسهن محرومات فلا يشكون. وأخيرا أقول: لقد كنت أقل العبيد السود فى هذا القصر الهادىء، لكننى كنت فيه أكثر احتراما منى فى قصرك هذا، وأنا القيم على جميع من فيه وما فيه.

ومنذ عرف كبير الخصيان عبقريتى وجه نظره إلى، وكلم عنى سيدى

أنني الرجل الكفء بأن يعمل وفق هواه ، الجدير بأن يخلفه فى مكانه الذى يشغله ، ولم تكن حداثة سنى مثاراً لعجبه ، وأعتقد أن يقظتى تحلّ محلّ التجربة الطويلة . ماذا أقول لك ؟ لقد نجحت كل النجاح فى نيل ثقته حتى لم تعد هناك عقبة دون أن يضع فى يدى مفاتيح الأماكن المصونة التى يحرسها من أمد بعيد ، وتحت سلطان هذا الرئيس الكبير تعلمت فنّ القيادة الصعب ، وتخرّجت فى الأصول التى لا تلين فى الحكم ؛ ودرست تحت قيادته قلوب النساء ، وعلمنى أن أستغل ضعفهنّ ؛ وألا أدهش من سموّهنّ . وكثيراً ما كان يحلو له أن يرينى كيف يستدرجهن إلى الخروج على الطاعة ، ثم يردهنّ إليها سريعاً دون أن يشعرن ، ويريد بذلك أن أبدو أنا نفسى منقاداً له فى بعض الأوقات . وينبغى أن نراه فى هذه الأوقات التى يجد النساء فيها على وشك اليأس ؛ وهن فى حال بين الرغبة فى رجائه أو تأنيبه ، ويقابل دموعهن دون أن يرقّ لهنّ ثم يستشعر الرضا بهذا النوع من الانتصار . وقد قال لى مرة والرضا باد عليه : هكذا ينبغى أن تقاد النساء . إن عددهن لا يربكنى لأنى أسوس نساء مولانا العظيم بطريقة واحدة . وكيف يتسنى لرجل أن يأمل فى إخضاع قلوب نسائه ، إذا لم يُخضع خصيانُه المخلصون أرواحهم له ؟

ولم يكن من صفات هذا الرجل الصرامة فحسب : بل كان يجمع إلى الصرامة نفاذ البصيرة : فقد كان يقرأ أفكار النساء ، ويعرف مكرهنّ ، وحركاتهن المتكلفة ، ووجوههن المرائية ، ولا يخفى عليه شىء من أمورهن وكان يعرف من أمورهن ما يبالغن فى إخفائه ، ومن أقوالهن ما يحرصن على ستره ، وكان يعرف أسرار بعضهن من بعض ، وكان يروق له أن يكافىء من تنقل إليه أدنى سرّ من الأسرار .

وبما أنهن لا يقتربن من زوجهن إلا حينما يؤذن لهن ، فإنه كان يدعو منهن من يشاء ويوجه أنظار سيده إليها . وكان يمنح هذه المزية لمن شاء منهن كمكافأة لها على سر كشفته له .

وكان يقنع سيده بأن من حسن النظام أن يدع له هذا الاختيار لينال بذلك سلطة أقوى .

هكذا كانت تساس الأمور — يا مولاى العظيم — فى هذا القصر الذى كان فيما أعتقد أحسن تنظيما من قصور فارس .

أطلق يدى يا مولاى ، وأتح لى أن أطاع ، فأحل لك النظام محل الفوضى فى ثمانية أيام ، وهذا ما يليق بمقامك ، ويتطلبه أمنك .

من قصره بأصفهان فى ٩ من ربيع الأول سنة ١٧١٤ .

الرسالة الخامسة والستون

من أوزبك إلى نسائه بقصر أصفهان

لقد علمت أن القصر فى فوضى ؛ وأنه مملوء بالمشاجرات والانقسام . ألم أنصحكن عند رحيلى بالوئام ، وحسن التفاهم ؟ ألم تعدننى بمراعاة ذلك ؟ أم كان وعدكن خدعة لى ؟ لو اتبعت نصيحة كبير الخصيان ، أو لو شئت أن أستخدم سلطانى عليكن لأحييتكن الحياة التى تفرضها توجيهاتى ، ولكنتن المخدوعات .

ولست أرى أن أستخدم هذه الوسائل العنيفة إلا بعد أن أجرب الوسائل الأخرى ، فلتنظرن إلى ما أغفلتن رعايته بعين الاعتبار من أمور كانت محل اهتمامى .

إن كبير الخصيان محق فى شكواه ، ويقول إنكن لا تنظرن إليه بعين التقدير ، فكيف توائمن بين سلوككن هذا وضآلة شأنكن ؟ ألم أعهد إليه فى غيابى بأن يصونكن ، وهو الأمين على فضيلتكن ؟ إنه وحده ، المأمون على هذا الكنز المقدس .

إن الاحتقار الذى تبدينه نحوه يبين أن الذين يكلفون بحملكن على الحياة فى ظلال الشرف تتخذنه لكن عدواً مبيناً .

فأرجوكن إذن أن تغيرن من سلوككن حتى أستطيع فيما بعد أن أرفض جميع المقترحات التى ترمى إلى الحد من حريتكن وراحتكن ، لأنى أحب أن تذكرننى دائماً على أننى زوج لا سيد .

من باريس فى ٥ من شعبان سنة ١٧١٤ م .

الرسالة السادسة والستون

من ريكا إلى .....

يهتم الناس هنا كثيرا بالعلوم ولكن لا أدرى هل يمكن أن يصبح الإنسان من فحول العلماء ؟ وذلك الذى يشك فى كل شىء كفيلسوف لا لا يجرؤ أن ينفى شيئا كعالم لاهوتى ، فهذا الإنسان المتناقض راض عن نفسه دائماً إذا أقر الناس بمواهبه .

إن الرغبة الجامحة لدى أكثر الفرنسيين هى أن يكون لديهم حظ من الذكاء ، ورغبتهم الجامحة فى الذكاء ، لأنهم يريدون أن يؤلفوا كتباً .

ومع ذلك لا يمكن تخيل شىء أسوأ من ذلك لأن الطبيعة بدت بحكمتها حريصة على أن تمر حماقات الناس عابرة، ولكن الكتب تأبى لها أن تموت، ويترتب على ذلك أن يرضى الأحمق بأن يضايق بحماقاته من يعاصره ، ثم يؤذى بها الأجيال المقبلة . ويحب لها أن تنتصر على النسيان الذى كان يستطيع أن يظفر بها كالقبر . كما يريد من الخلف أن يعلموا أنه عاش ، وأن يعرفوا دائماً أنه كان أحمق .

ليس فى المؤلفين قط أولى بازدرائى من الجامعين الذين يأخذون من هنا ومن هناك أجزاء من كتب غيرهم ، ويضمنونها كتبهم ، كقطع من العشب فى روضة ، وليسوا فى عملهم هذا خيراً من عمال المطبعة الذين يرتبون الحروف ويصفونها ، ثم يطبعون كتاباً لم يبذلوا فيه إلا عملا

يدوياً . ولهذا أريد ألا يحترم الناس إلا الكتب الأصيلة المبتكرة .

وأراه ضرباً من المهانة أن تؤخذ الأجزاء التي تؤلف من أماكنها الكريمة لتعرض لازدراء لا ينبغي لها مطلقاً .

ألا يسكت الإنسان إذا لم يجد جديداً يقوله ؟ وما الداعي إلى مضاعفة الجهد بالتكرار ، لكني أريد أن أصدر أمراً جديداً ؛ أنت رجل ماهر ، أعني أنك تجيء إلى مكتبتي ، فضع في أسفلها الكتب التي كانت في أعلاها ، وضع في أعلاها الكتب التي كانت في أسفلها : فتكون بذلك قد أنشأت أثراً رائعاً .

إني أكتب لك في هذا الموضوع . يا . . . . لأني مغيظ من كتاب فرغت لساعتي من قراءته ، وقد بلغ من الضخامة درجة يخيل للمرء معها أنه قد حوى علم الدنيا ؛ لكنه كسر رأسي دون أن أتعلم منه شيئاً .

وداعاً . . .

في باريس في ٨ من شعبان سنة ١٧١٤ .

الرسالة السابعة والستون
من إيبك إلى أوزبك في باريس

لقد وصلت إلى هنا ثلاث سفن دون أن تحمل إلى أى خبر من أخبارك فهل أنت مريض ؟ أو أنه يسرك أن تقلقنى ؟

وإذا كنت لا تحبنى وأنت فى بلد لا يشغلك فيه شيء ، فكيف تكون الحال إذا كنت فى قلب فارس ، وفى أحضان أسرتك ؟ ولكن لعلنى مخدوع : فأنت محبوب إلى درجة أنك تجد فى كل مكان أحبابا . ولك قلب يستوطن جميع البلاد : وكيف تمتنع روح مهذبة من تكوين علاقات مع الناس ؟ وإنى أعترف لك بأنى أحترم المودات القديمة ، لكنه لا يسعدنى تكوين مودات جديدة فى كل مكان .

وفى بعض البلاد التى وجدت بها ، عشت كما لو كنت أقضى فيها حياتى . وكان عندى نفس الاهتمام بأفاضل الناس ، والمجاملة أو بالحرى الحنان على البائسين ، وعين التقدير للذين لم يبطرهم الرخاء . هذا سلوكى يا أوزبك ، أينما وجدت الرجال ، سأصطفى لى منهم أصدقاء .

معى هنا زرادشتى أعتقد أنه يحل بعدك بالمكان الأول من قلبى . إن نفسه هى الوفاء بعينه . وقد اضطر لأسباب خاصة إلى النزوح إلى هذه المدينة حيث يعيش هادئا مما تغله تجارة شريفة مع امرأة يحبها . وتتميز حياته بمآثر كريمة . وبالرغم من أنه يريد أن يعيش مغموراً فإن فى قلبه من البطولة ما لا تجده عند أعظم الملوك . لقد حدثته كثيراً

عنك ، وأريته جميع رسائلك ، ولحظت أن ذلك سره ، وبذلك رأيت لك صديقا لا تعرفه .

وستجد فى هذه الرسالة أهم مغامراته[1] ، وقد كان يحس نفوراً من كتابتها ، لكن لصداقتى لم يرفض أن يكتبها ، وإنى أعهد بها إليك .

فى أزمير فى ٢٧ من جمادى الآخرة ١٧١٤ م .

(١) (هذه المغامرات « Histoire D'Aphéridon et D'Astarté » تركت لمساسها بالدين) .

لقد ولدت بين المجوس ، الذين قد تعد ديانتهم أقدم ديانة وجدت فى العالم ، وكم كنت بائساً لأنى عرفت الحب قبل أن أعرف العقل . إذ لم أكد أبلغ السادسة من عمرى حتى شعرت أننى لا أستطيع أن أعيش إلا مع أختى : وكانت عيناى متعلقتين بها لا تقعان على سواها ، وحينما كانت تتركنى لحظة وتعود إلىّ تجدهما غارقتين فى الدمع ، وكل يوم يمر بى لا يزيد فى سنى بمقدار ما يزيد فى حبى . واستولى العجب على أبى لشدة تعلقى بها ، وكم تمنى لو تزوجنا وفقاً للتقليد المجوسى الذى أدخله قمبيز .

لكن خوفنا من المسلمين الذين نعيش تحت نيرهم ، منع أمتنا من التفكير فى مثل هذه الروابط المقدسة التى لا يسمح بها ديننا فحسب ، بل يأمرنا بها ، وهى تلك الصور الصادقة لذلك الرباط الذى أوجدته الطبيعة بيننا .

ولما رأى أبى أن من الخطر أن ينقاد لهواى وهواها قرر أن يطفىء لهباً أعتقد أنه كان لا يزال ناشئاً ، مع أنه قد بلغ أقصى مداه : فتعلل برحلة ، واصطحبنى معه ، تاركا أختى بين يدى إحدى قريباتها ، لأن أمى كانت قد ماتت منذ عامين . ولن أستطيع أن أصف لك مطلقاً مبلغ الجزع من هذا الفراق : لقد عانقت أختى وهى غارقة فى الدمع ؛ ولكننى لم أذرف دمعة واحدة ، كأن الألم قد أفقدنى حساسيتى .

وصلنا إلى تفليس ، وعهد أبى بتربيتى إلى أحد أقاربنا ، وتركنى بها وعاد إلى موطنه .

وبعد حين علمت أن أبى قد أدخل أختى قصر الملك بنفوذ أحد أصدقائه حيث أصبحت فى خدمة إحدى السلطانات . ولو بلغنى خبر وفاتها لما شق على كما شق على نبأ دخولها هذا المكان : لأنه فضلا عن أننى لن أراها أبداً ، فإن دخولها القصر جعلها مسلمة ، ولن تستطيع بعد ذلك أن تنظر إلى دون كراهية ، لتأثرها بمعتقدات هذا الدين(١) .

ومع ذلك ، لم أعد أستطيع العيش فى تفليس ، وضقت ذرعاً بنفسى وبالحياة ، فعدت إلى أصفهان . وكان أول حديث لى مع أبى عنيفاً ، لقد أنبته تأنيباً شديداً لأنه وضع ابنته فى مكان لا يمكن أن يدخله إنسان إلا إذا ارتد عن دينه . وقلت له : « لقد جلبت على أسرتك غضب الله وغضب الشمس التى تنير طريق الحياة . لقد أتيت أمراً إدًّا فدنست نعم الله ؛ لأنك دنست روح ابنتك التى ليست أقل طهراً من تلك النعم : سأموت لذلك ألما ووجداً . ولعل موتى يكون العقاب الوحيد الذى سينزله الله بك» .

قلت ذلك وخرجت لأقضى عامين أطوف حول أسوار القصر أتفقد المكان الذى يمكن أن توجد به أختى ، معرضاً نفسى كل يوم ألف مرة لأن أذبح بيد الخصيان الذين يحيطون بهذا المكان الرهيب .

ثم مات أبى ، ورأت السلطانة التى تخدمها أختى أن جمال شقيقتى يزداد روعة يوماً فيوماً ، فاستبدت بها الغيرة وزوجتها من عبد كان يتمناها ، ويولع بها . وبهذه الوسيلة ، خرجت أختى من القصر واتخذت مع العبد منزلا فى أصفهان .

---

(١) يبيح دين المجوس زواج الأقارب الأدنين .

ومضى على ثلاثة شهور دون أن أستطيع التحدث إليها ، لأن الخصى ، وهو أشد الناس غيرة ، كان يصدنى عن لقائها بتعللات مختلفة . وأخيراً دخلت بيته وتركنى أحدثها من وراء نافذة : مع أن عينى الفهد لا تستطيع أن تتبين منها شيئاً لما ارتدته من ثياب ووضع فوقها من خُمر ، فلم أعرفها إلا بجرس صوتها . وكم أثار شجنى أننى شديد القرب منها ،شديد البعدعنها ! وضبطت نفسى تماما لأننى كنت مراقبا . أما هى فقد بدا لى أنها كانت تذرف قطرات من الدمع . وقد أراد زوجها أن يقدم لى أعذاراً كانت سخيفة ، فعاملته كأحط العبيد شأناً . وقد أدهشه أنه رآنى أتكلم مع أختى بلغة لا يعرفها : إنها الفارسية القديمة . . . لغتنا المقدسة . لقد قلت لها : « ماذا دهاك يا أختى . أحقاً إنك تركت دين آبائك ؟ إنى أعرف أنه بدخولك القصر يجب ان تعتنق الدين الإسلامى : ولكن خبرينى هل استطاع قلبك أن يرضى بما يقوله لسانك من أنك تركت ديناً يحل لى أن أحبك ؟ ولأجل من تركت هذا الدين العزيز علينا ، الأثير عندنا ؟ أمن أجل هذا البائس الذى لا تزال آثار القيد الحديدى الذى قيد به بادية عليه ، والذى لو عد فى الرجال لكان أدناهم شأناً ؟ » — فقالت: «يا أخى إن هذا الرجل الذى تتحدث عنه زوجى يجب أن أكرمه وإن بدا لك أنه غير جدير بالتكريم فسأكون أنا أيضاً أحط النساء إذاً . . . » — فقلت : « آه ! يا أختى إنك مجوسية وليس هذا الرجل زوجاً لك ولا يستطيع أن يكونه ، وإذا كنت مخلصة لدينك كآبائك فلا ينبغى أن تنظرى إليه إلا كما تنظرين إلى شيطان رجيم .

فقالت : وا أسفاه : أى ديانة تلك التى تتراءى لى من بعيد . . إننى لا أكاد أتعرف على مبادئها حتى أرى لزاماً علىّ أن أنساها . وأنت ترى أن هذه اللغة التى تحدثنى بها لم تعد مألوفة لى ، وأننى أجد مشقة كبيرة

فى أن أعبر بها عن نفسى ، ولكن ينبغى لك أن تؤمن بأن ذكريات طفولتنا لا تزال عندى أعذب الأشياء ، وأننى منذ ذلك الوقت لم أذق إلا متعاً كاذبة ، وأنه لم يمر بى يوم دون أن أفكر فيك ، وأنك كنت من أكبر الأسباب ، دون أن تشعر ، فى زواجى هذا .

ولم يكن يدور بخلدى إلا أمل واحد هو أن ألقاك ثانية . ولكن كم كلفنى هذا اليوم وكم سيكلفنى ، إننى أراك خارجاً عن طورك وأرى زوجى ينتفض غيظاً وغيرة : لن أراك بعد ، إنى أحدثك بلا شك لآخر مرة فى حياتى التى إن ظلت على تلك الوتيرة يا أخى ، فلن تكون طويلة » .. وتأثرت من هذا الكلام ورأت نفسها عاجزة عن الاتزان فى الحديث فتركتنى أشد الناس أسى وألماً .

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة طلبت لقاء أختى ، لكن هذا الخصىّ المتوحش أصرّ إصراراً شديداً على أن يحول بينى وبينها . ولكن فضلا عن أنه من هؤلاء الأزواج الذين ليس لهم على نسائهم ذلك السلطان الذى لغيرهم من الرجال ، فإنه كان شغوفاً بأختى ، مولهاً بحبها ، فلا يستطيع أن يرد لها طلباً . ولذلك رأيتها فى المكان نفسه ، تخفيها عن ناظرى الثياب والخمر التى رأيتها عليها من قبل ؛ ومعها عبدان ، فرأيت أن أتحدث إليها بلغتنا الخاصة . فقلت لها : يا أختى ! أنى لى أن أراك دون أن أكون فى مثل هذا الموقف الشائن ؟ إن الأسوار التى تسجنك وهذه القضبان والمزاليج التى تحبسك ، وهؤلاء الحراس البائسين الذين يرقبونك ، كل هذا يثير حفيظتى وسخطى . كيف فقدت حريتك المحبوبة التى تمتع بها أسلافك ؟ إن أمك التى كانت مثلا للطهارة لم تعط زوجها ضماناً لفضائلها سوى الفضيلة نفسها : لقد عاشا سعيدين فى ثقة متبادلة ، وكانت بساطة سلوكهما ثروة أعظم قيمة من الأبهة الكاذبة التى تتخيلن

أنكن متمتعات بها فى هذا القصر الفاخر . وبفقدك دينك فقدت حريتك وسعادتك وتلك المساواة الغالية التى تشرف جنسك .

وأسوأ من ذلك كله ، أنك لست الزوجة ولا يمكن أن تكونيها لأنك جارية لعبد لفظته البشرية . . »

فقالت : « أواه يا أخى . احترم زوجى واحترم الدين الذى اعتنقته ، لأنه يوجب على ألا أسمح بالاستماع إليك . ولا بالتحدث معك ، وإن فعلت كنت آثمة » . فقلت لها وقد ملكنى الغضب : ما ذا دهاك يا أختاه ! ؟ كأنك تعتقدين أن هذا الدين حق ؟ ! فأجابتنى : « كم كان خيراً ألا يكون حقاً ! لقد ضحيت تضحية كبرى بسببه : فلا أستطيع إلا اعتناقه . وإذا كانت شكوكى ... » ، وسكتت عند ذلك ، فقلت لها : « نعم يا أختاه إن شكوكك مهما كانت ، تقوم على أساس مكين . وماذا تنتظرين من دين يجعلك شقية فى هذه الحياة الدنيا ، ولا يدع لك إطلاقاً أملا فى الحياة الأخرى ؟ فكرى فى أن ديننا أقدم دين عرفته الدنيا . وظل على مر الأيام يزدهر فى فارس وليس له أصل إلا فى هذه الامبراطورية التى لا يعرف مطلقاً متى كانت نشأتها ، والتى دخلها الإسلام مصادفة ، وهو دين لم يقم أبدا على أساس من الإقناع ، ولكنه انتشر بالغزو[1] . ولولم يكن ملوكنا الشرعيون ضعافاً لرأيت العبادة السائدة عندنا هى عبادة الأقدمين من المجوس . وارجعى بذاكرتك إلى القرون الغابرة فستجدين جميع الناس يحدثونك عن المجوسية لا عن الإسلام الذى كان بعدها بآلاف السنين لا يزال فى مرحلة الطفولة . فقالت : « إذا كانت

---

(١) هذه نزعة بعض المستشرقين المتعصبين حين وصفوا الإسلام بأنه دين قام فى انتشاره على حد السيف ، وهو زعم باطل لأن الله تعالى يقول : « لا إكراه فى الدين » وقد قامت الحروب لتدفع العدوان أو لتزيل الحواجز التى أقامها الكفر والشرك فى وجه الدعوة الإسلامية .

ديانتي أحدث من ديانتكم فهى على الأقل أكثر صفاء،لأنها تقوم على عبادة إله واحد ، وأنتم لا تزالون تعبدون الشمس والكواكب والنار وسائر العناصر الكونية . » فقلت لها : « إنك قد تعلمت ياأختاه ، وأنت تعيشين مع المسلمين ، كيف تكرهين ديننا المقدس . إننا لا نعبد الكواكب ولا العناصر كما لم يعبدها آباؤنا مطلقاً ، لم يقيموا لها المعابد ، ولم يقدموا لها القرابين ، وإنما نخصها باليسير من التقديس الدينى باعتبار أنها مخلوقات تشهد بالعظمة الإلهية ، وأستحلفك يا أختى بالله الذى يهدينا أن تأخذى هذا الكتاب المقدس الذى أحمله إليك ، وهو كتاب مشرعنا (زرادشت) ، اقرئيه غير متأثرة برأى ، وليتقبل قلبك أشعته التى تهديك وأنت تقرئينه ، وتذكرى آباءك الذين ظلوا يمجدون الشمس زمنا طويلا فى (بلخ) تلك المدينة المقدسة ، ثم اذكرينى أخيرا ، واعلمى ألا أمل فى راحة ، ولا فى سعادة ، ولا فى حياة ، إلا إذا رجعت عما أنت عليه من اعتقاد ، وتركتها مغضباً ، وتركت لها وحدها أن تتخذ قرارا فى أهم شأن يعرض لى فى حياتى .

ثم عدت بعد يومين ، ولم أكلها قط ، واستمعت قرار حياتى أومماتى فى سكون : فقالت لى : « أنت يا أخى محبوب . ومحبوب من مجوسية ، لقد قاومت طويلا ، ولكن يا إلهى كم يقيم الحب من عقبات ! ولكن ما أعظم عزائى ! لم أعد أخشى أن يزداد حبى لك قوة ، ولا أستطيع مطلقاً أن أضع حدا لحبى ، بل إن الإفراط فيه مشروع . أواه ما أليق هذا بقلبى ! لكن متى تستطيع أن تفك أغلال يدى بعد أن استطعت أن تحطم الأغلال التى قيدتنى بها روحى ؟ إنى مستسلمة لك منذ الآن فأرى السرعة التى تتقبلنى بها . وكيف تعتز بهذه الهدية التى تقدم لك . أخى . إنى أعتقد أنى سأموت بين ذراعيك فى أول فرصة أستطيع فيها

أن أعانقك » . فقلت لها : « إنى لا أستطيع أن أحسن التعبير مطلقاً عن السرور الذى أشعر به وأنا أصغى إلى هذه الكلمات الحلوة . حقاً ، إننى أرى نفسى قد صرت فى لحظة واحدة أسعد الناس جميعاً . وأكاد أرى جميع رغباتى التى سعيت لها جاهدا خمساً وعشرين سنة قد تحققت ، كما تلاشت جميع الهموم التى توالت علىّ دائبة . ولكن عندما ألفت هذه الأفكار الجميلة بعض الألفة ، رأيت أننى لم أكن قريباً جدا من سعادتى ؛ وأننى تخيلت فجأة أنى تغلبت على أعظم الصعاب التى تعترضنى . يجب أن تأخذ حراسها على غرة . ولم أجرؤ على الإفضاء بسر حياتى إلى أحد . ووجب علينا أن ننجز كل شىء : أنا وهى ، لأنه إذا أخفقت محاولتى كنت معرضاً لوضعى على الخازوق ، على أننى أرى أن أشد عقاب ينزل بى هو إخفاق هذه المحاولة . وقد اتفقنا على أن ترسل إلى فى طلب ساعة جدار خلفها أبونا ، ووضعت مبردا يفلّ به حديد النافذة التى تطل على الشارع ، وحبلا ذا عقد لننزل عليه ، على ألا أراها منذ الآن . بل أذهب كل ليلة تحت نافذتها إلى أن يحين الوقت الذى تتمكن فيه من تنفيذ خطتها ومضت بى خمس عشرة ليلة كاملة دون أن أرى إنساناً ، لأنها لم تجد الفرصة المواتية . وفى الليلة السادسة عشرة سمعت المنشار يعمل فى الحديد ولكن العمل ينقطع من آن لآخر ؛ وفى فترة السكون كان يتملكنى خوف شديد . وأخيراً وبعد ساعة من العمل ، رأيتها مربوطة بالحبل تاركة نفسها تهوى إلى أن صارت بين ذراعى . ولم أعد أعرف الخطر ، وبقيت مكانى مدة لا أتحرك ؛ ثم أخذتها خارج المدينة . حيث أعددت هناك حصاناً وأردفتها خلفى وانطلقت بها فى سرعة لا يدركها الخيال من هذا المكان الذى لا أجد مكاناً أشأم منه . فوصلنا فى السّحر إلى مجوسىّ يحيا فى مكان قفر حياة تقشف من عمل يديه . ولم نجد من الملائم أن نقيم عنده

ودخلنا وفقاً لنصحه ، غابة كثيفة لنقيم فى جوف شجرة قديمة من البلوط إلى أن تهدأ الأحاديث التى أثارها فرارنا . وعشنا فى هذا المأوى المنعزل دون رقيب . نتناجى دائماً بأحاديث الغرام ، منتظرين أن تواتى الفرصة فتهيئ لنا موبداً مجوسياً يعقد زواجنا طبقاً لما نص عليه كتابنا المقدس. وقلت لها : « ما أطهر هذا الرباط الذى يجمعنا يا أختاه ! إن الطبيعة جمعت بيننا وشريعتنا ستوثق هذا الرباط . » وأخيرا جاء الموبد الذى ردّ إلينا لهفة الحب . وأدى مراسيم الزواج فى بيت فلاح ، وباركنا وتمنى لنا كثيرا أن تكون لنا عزيمة (كشتاسب) .

وبعد قليل ، غادرنا فارس ، حيث كنا غير آمنين ، ولجأنا إلى جورجيا ؛ فعشنا فيها سنة كان كل يوم فيها أسعد من سابقه ؛ ولكنى عندما وجدت المال ينفد شيئاً فشيئاً خشيت الفقر على أختى لا على نفسى فتركتها لأطلب العون من أقاربى . ولم يكن هناك وداع أروع من وداعنا . غير أن رحلتى لم تكن عديمة الجدوى فحسب ، بل كانت مشئومة لأننى وجدت جميع أموالنا قد صودرت ، كما وجدت أهلى عاجزين عن أن يمدوا لى يد العون ، فلم أحمل من المال إلا ما استطعت به العودة . ولكن أى يأس أصابنى ! لم أجد أختى : ذلك أن جماعة من التتار قد غزوا المدينة قبل عودتى بأيام . فلما وجدوا أختى جميلة أخذوها وباعوها لليهود الذاهبين إلى تركيا . ولم يتركوا إلا طفلة كانت قد ولدتها منذ بضعة شهور . اقتفيت أثر هؤلاء اليهود فلحقت بهم على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة . لم يرقوا لدموعى ولا لرجائى وطلبوا منى ثلاثين جنيهاً فارسياً ولم يتنازلوا عن جنيه واحد . وبعد أن سألت جميع الناس العون واستغثت بتماوسة أتراك ومسيحيين ؛ تقدمت إلى تاجر أرمنى وبعته ابنتى كما بعته نفسى بخمسة وثلاثين جنيهاً فارسياً . وعندئذ ذهبت إلى اليهود ونقدتهم ثلاثين

جنيهاً وحملت الخمسة الباقية لأختى التى لم أكن رأيتها بعد . ولما لقيتها قلت لها : « أنت حرة يا أختى وأستطيع أن أعانقك ! وهاك خمسة جنيهات أحملها إليك ، ويجب على أن آسف لأنهم لم يشترونى بأكثر مما اشترونى به» فقالت : « ما هذا ؟ أبعت نفسك؟ » فأجبتها : « نعم! » فتنهدت وقالت : « مسكين ! ماذا صنعت بنفسك ؟ ألم يكف ما كنت فيه من شقاء حتى تضيف إليه مزيداً من التعاسة ؟ ! كانت حريتك عزائى ولكن عبوديتك الآن ستسلمنى إلى القبر . آه يا أخى ما أقسى حبك ! وابنتى ؟ إننى لا أراها . فقلت لها : لقد بعتها أيضاً .. وغلبنا البكاء ولم نستطع أن نقول شيئاً .

وآخيراً ذهبت لمقابلة سيدى ووصلت أختى إليه فى الوقت نفسه وجثت تحت قدميه وقالت له : « إنى أطلب منك العبودية كما يطلب غيرى الحرية . خذنى فستبيعنى بثمن أغلى من ثمن زوجى »

وكان أن حدث صراع انتزع الدموع من عينى سيدى . ثم قالت لى: « أيها التعس أظننت أنى أقبل حريتى إذا كان ثمنها حريتك ؟ مولاى إنك ترى اثنين شقيين سيموتان إن أنت فرقت بينهما ، إننى أهب نفسى لك . أنقدنى الثمن فربما استطعت بهذا المال وبخدماتى أن أنال منك يوما ما مالا أجرؤ الآن على طلبه ، إن مصلحتك تقتضيك ألا تفرق بيننا أبداً ، وليكن فى تقديرك أننى المسيطرة على حياته .

وكان الأرمنى رجلا رقيقاً فتأثر لشقائنا وقال : « اخدمانى سوياً بإخلاص وغيرة وأعدكما بأن أمنحكما الحرية بعد سنة واحدة . وأرى أن كليكما غير جدير بالشقاء الذى تتكبدانه . وإذا أصبحتما حرين صرتما سعيدين لأنكما جديران بذلك . وإذا ابتسم لكما الحظ ، فإنى واثق من أنكما

ستردان لى الخسارة التى تكبدتها » . فقبلنا ركبتيه وتبعناه فى رحلته . واستراح كل منا إلى أعمال العبودية وكم كنت سعيداً حينما أستطيع أن أقوم بالعمل الذى يكون من نصيب أختى .

وحلّ آخر العام ؛ وأوفى مولانا بعهده فأعتقنا . وعدنا إلى تفليس وهناك وجدت صديقا قديماً لأبى كان يمارس الطب فى تلك المدينة ، فأقرضنى مالا تاجرت به واستدعتنى بعض الأعمال إلى أن أقصد أزمير حيث أقمت بها وعشت ست سنوات تمتعت فيها بأحب مجتمع وأرقه فى الدنيا . وساد الوئام أسرتى ولا أرضى أن أبادل بحـــالى كل ملوك الأرض . لقد كنت سعيداً حينما التقيت بالتاجر الأرمنى الذى أنا مدين له بكل شىء ، وقدمت إليه خدمات جليلة .

من أزمير فى ٢٧ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٤ .

الرسالة الثامنة والستون

من ريكا إلى أوزبك في ....

بالأمس ذهبت لأتعشى عند رجل من رجال القضاء بعد أن رجاني في ذلك كثيراً . وبعد أن تناولنا صنوفا شتى من الحديث ، قلت له : يبدو لي — يا سيدي — أن مهنتكم شاقة جداً ، فقال : ليست كما تتخيل ، وهي بالحال التي نمارسها به ليست إلا نوعاً من التسلية ، فأجبته : وكيف يكون ذلك ؟ أليست رءوسكم مشحونة دائماً بقضايا الناس ؟ ألستم مهتمين دائماً بأشياء ليس فيها أي تسلية ؟ فقال : أنت على صواب ، فهذه الأشياء لا تستهوينا مطلقاً ، لذلك كان اهتمامنا بها يشبه العدم ، ومن هنا لم تكن المهنة شاقة كما تظن . ولما رأيته يتناول الأمر بلا اكتراث استرسلت في الحديث قائلا : إني لم أر قط مكتبك ياسيدي ! فقال أعتقد ذلك ، لأنه ليس لي مكتب ، إذ أنني احتجت إلى المال لشراء منصبي هذا فبعت مكتبتي المحتوية على عدد عظيم من المجلدات الضخمة ، ولم يترك لي الكتبيّ إلا كتاب عقلي . ولا آسف عليها لأننا — معشر القضاة — لا نحب أن نستكثر من العلوم التي لا طائل تحتها . وماذا نبغي من هذه المجلدات القانونية ؟ إن الحالات التي تعرض لنا تكاد كلها تكون فرضية ، خارجة من النظام العام . فقلت : لعلّ ذلك يا سيدي لأنكم أنتم الذين تخرجونها منه ؟ وإلا فلماذا نجد في شعوب الدنيا كلها قوانين إذاً لم تطبّق ؟ وكيف يمكن تطبيقها من غير معرفة بها ؟ فأجاب قائلا : لو كنت تعرف دار القضاء لما تكلمت هكذا . إن عندنا كتباً حية هي المحامون ، إنهم يعملون

من أجلنا ، وقد تكفلوا بأن ينيروا لنا السبيل ، فقلت : ألا يتكفلون أحيانا بأن يخدعوكم ؟ وماذا يضرّكم إذا اعتصمتم من أحابيلهم ، لأنهم مسلحون بأسلحة يغيرون بها على عدالتكم ، ومن الخير لكم أن تتسلحوا بمثلها لتدافعوا بها عن أنفسكم ؟ ولا ينبغى أن تخوضوا المعركة بثياب السلم مع قوم قد لبسوا الدروع السابغات .

فى باريس فى ١٣ من شعبان سنة ١٧١٤ .

الرسالة التاسعة والستون

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

ما كنت تستطيع أن تتصوّر أننى قد أصبحت فيلسوفا أبحث فيما وراء الطبيعة كما لم أكن من قبل ، ومع ذلك ستقتنع باستفاضة فلسفتى إذا نظرت فيها نظر الفاحص .

إن أعقل الفلاسفة الذين فكروا فى ذات الله قالوا : إنه كائن علا بكل كمال ، لكنهم أفرطوا فى هذا التفكير : إذ عددوا جميع الكمالات المختلفة التى يمكن أن يتحلى بها الإنسان أو يتخيّلها ، ووصفوا بها الله ، دون تفكير فى أن الغالب أن هذه الصفات متعارضة ، وأنه لا يمكن أن تجتمع لكائن دون أن تقضى عليه .

وقد قال شعراء الغرب : إن المصوّر وهو يريد أن يرسم صورة لآلهة الجمال ، يجمع أجمل اليونانيات . ويأخذ من كل واحدة أروع ما فيها ليكوّن من جميع ما يأخذ صورة تشبه أجمل الآلهة . فإذا انتهى إنسان إلى أن يتصوّر أن هذا الإلهة شقراء وسمراء ، وأن لها عينين سوداوين وزرقاوين ، وأنها رقيقة ومتكبرة فإنه يبلغ من السماجة مبلغاً عظيماً .

كثيراً ما يعوز الإله كمال يجعله متصفاً بنقص كبير ولكن الله وحده هو الذى يحدد ذلك بنفسه ، وهو لازم الوجود . لهذا مهما كان الإله قديراً فإنه لا يمكن أن يخلف وعده ، أو يخدع بالناس . وليس الإله عاجزاً فى ذاته وإنما هو بنسبة الأشياء ! وهذا هو السبب فى أنه لا يمكن أن يغير جوهر الأشياء . ولهذا لم يكن هناك شىء قط يثير

العجب كالذى ذهب إليه بعض علمائنا الذين اجترءوا على نفى علم الله بالغيب نفياً باتا . وعلى أساس أن علم الله بالغيب لا يتفق وعدله .

ومهما تكن هذه الفكرة جريئة فإن الميتافيزيقا تتبناها بشكل عجيب ، وبحسب قواعدها يكون من المستحيل على الله أن يتنبأ بالأشياء المتوقفة على تحديد أسباب مطلقة ، لأن ما لم يحدث لم يوجد قط ، وعلى ذلك لا يمكن أن يعرف . لأن العدم الذى لا وجود له لا يمكن أن يُلحظ . ولا يمكن أن — يتنبأ الله بإرادة لا وجود لها ، أو يرى فى نفس شيئا لا وجود له فيها مطلقاً ، لأنه إلى أن تتحدد ، فإن الفعل الذى يحدد عزمها ليس موجوداً فيها .

إن الروح هى المنفذّة لعزمها ، لكنها فى بعض الحالات تكون غير مستقرّة على عزم بل لا تدرى من أى جهة تعزم . بل إنها كثيراً ما تتصرّف لا لشىء إلا لتستغلَ حريتها بحيث لا يمكن أن يرى الله هذا العزم مقدما ، لا فى عمل الروح ، ولا فى الحدث الذى تؤثر به الأشياء عليها .

وإذاً فكيف يعلم الله الأشياء التى تتوقف على تحديد الأسباب المطلقة ؟ إنه لا يمكن أن يراها إلا بطريقتين : إما بالحدس ، وهذا يناقض علم الغيب اللانهائى ، وإما لأنها كنتائج ضرورية تنشأ بلا تخلّف عن سبب يحدثها تلقائياً ، وفى هذه الحال تناقض أكثر : لأن الروح ستكون حرّة فرضاً ، ولكنها فى الواقع لن تكون إلا ككرة (البليارد) ليست حرة فى حركتها حينما تكون مدفوعة بكرة أخرى .

لا تظن — مع ذلك — أننى أريد أن أحدّ من علم الله ، فكما أنه يتصرّف فى الخلق كما يشاء ، فإنه يعلم ما يريد أن يعلمه . لكنه بالرغم من أنه يستطيع أن يرى كل شىء ، فإنه لا يستخدم دائماً هذه القدرة ،

وترك – عادة – للمخلوق القدرة على أن يتصرّف أو لا يتصرّف ، ليدع له الأهلية أو عدم الأهلية : وعلى ذلك تنازل لعبده عن حق هو له فى أن يتصرف فيه أو أن يحدّده كما يشاء ، ولكن حينما يريد أن يعلم شيئا ما ، فإنه يعرفه دائماً ، فما هو إلا أن يريد شيئاً فيكون كما رآه ، ويحمل المخلوقات على ما يوافق إرادته . وهكذا يختار ما ينبغى أن يحدث من الأشياء الممكنة بدقة ، وذلك بأن يحدد بأوامره ما تقرره الأرواح فى المستقبل ، وبأن يحرمها القدرة التى كان قد منحها إياها لتفعل أو لا تفعل .

وإذا أردنا الموازنة ، فى أمر هو أسمى من الموازنة قلنا : إنه لو جهل ملك ما سيفعله سفيره فى أمر هام ، وأراد أن يعرف ، فما هو إلا أن يأمره بأن يتصرف تصرّفا معيناً ، ويمكنه أن يتأكد من أن هذا الأمر سيحدث كما رسم .

ياعزيزى رعدى ، لماذا كل هذا التفلسف ؟ إن الله تعالى من السموّ بحيث لا نرى السحب التى بيننا وبينه . ولا نعرف عنه شيئاً معرفة حقة إلا فى تعاليمه . إنه واسع العلم لطيف خبير ، لا يحده زمان ولا مكان . إن جلاله يشعرنا بضعفنا . له نخشع دائماً ، وإياه نعبد أبداً .

من باريس فى آخر شعبان سنة ١٧١٤ .

الرسالة الحادية والسبعون

من أوزبك إلى رِبيكا

إنى أرثى لسليمان بمقدار ما أصابه من أذى لا خلاص له منه . وإن زوج ابنته لم يتجاوز الحرية التى كفلها القانون . وإنى أرى هذا القانون جائراً لأنه يعرض شرف الأسر هكذا لنزوات المجانين . ومن اللغو أن يقال : إن هناك أمارات أكيدة توصل إلى معرفة الحقيقة ، فهذا وهم قديم انحدر إلينا ليعيش بيننا . وإن أطباءنا قدموا أسباباً لا يمكن دحضها لبيان أن هذه الأمارات غير أكيدة . وليس من أحد إلا يراها أوهاماً حتى المسيحيين . ولو كان من الواضح أنها تعتمد على كتبهم المقدسة ، وأن قدامى مشرعيهم ربطوا بينها وبين براءة الفتيات وإدانتهن .

إنى أعلم مسروراً ما تبذلين من عناية فى تربية ابنتك . وأرجو الله أن يجدها زوجها جميلة طاهرة كفاطمة ، وأن يعد لها عشرة من الخصيان لحراستها ، وأن يجعلها شرفاً وزينة للقصر الذى أعد لها ، وألا يعلو رأسها إلا السقف الموشاة بالذهب ، وألا تسير إلا على البسط الفاخرة ! وأكبر ما أتمناه أن تراها عينى فى هالة من الفخار .

من باريس فى ٥ من شوال سنة ١٧١٤ .

الرسالة الثانية والسبعون

من ريكا إلى أوزبك فى ....

فى يوم من الأيام ضمنى جمع كان به رجل معجب بنفسه أشد الإعجاب، قطع — فى ربع ساعة — برأى فى ثلاث قضايا من قضايا الأخلاق ، وفى أربع مشكلات تاريخية ، وفى خمس مسائل من علم الطبيعة ، ولم أر فى حياتى مقرراً عالمياً مثله ، فعقله لا يقف أمام أى شك .

ولما ترك الناس مسائل العلوم ، وخاضوا فى الحوادث الجارية قطع برأى فيها ، فأردت أن أظفر به ، فقلت فى نفسى : يجب أن أكون معه فى أمان ، وخير سبيل لى أن أتحدث عن وطنى ، فحدثته عن فارس ، فلم أكد أنطق أربع كلمات حتى دمغنى بتخطئتين معتمدتين على رحلتى الرحالين تافرنييه (Tavernier) وشاردان (Chardin) فقلت فى نفسى : أواه .. رحماك ياربى أى رجل هـذا ؟ إنه سيعرف من فوره شوارع إصفهان أكثر من معرفتى بها وخسرت حيلتى التى احتلتها ، فسكت وتركته يعود سيرته الأولى يحدث ويقرر .

فى باريس من ٨ ذى القعدة سنة ١٧١٥ .

الرسالة الثالثة والسبعون

من ريلكا إلى ......

سمعت القوم يتحدثون عن محكمة من نوع خاص يطلقون عليها اسم « المجمع الفرنسى » ولم أجد هيئة أقل اعتباراً منها ، فلا تكاد تبرم أمراً حتى يسرع الشعب إلى نقضه بل يفرض عليها قوانين ويحملها على طاعتها حملا .

وليثبت المجمع سلطانه ، أصدر مجموعة من القرارات منذ حين ، كانت أشبه بطفل له آباء عديدون ، ولد شيخاً ، ولو أنه ابن شرعىّ ، وكان قد سبقه إلى الوجود لقيط كاد يخنقه ساعة ولادته .

والذين يتكون منهم المجمع ليس لهم عمل إلا الهذيان المستمر . والثناء يعدّ لهم كأنه من عند أنفسهم على ثرثرتهم الدائمة .

فإذا أمعنوا فى أعمـــالهم الغامضة ، استأثرت بهم حمّى الثناء فلا تدعهم أبدا .

وجملة أعضائه أربعون رأساً ممتلئة بالاستعارات والمجازات والمقابلات ، وكثير من الأفواه لا تكاد تنطق إلا بعبارات العجب وآذانهم تريد دائمـا أن تستمع إلى الإيقاع اللفظى والجرس الموسيقى المتناسب ، أما عيونهم فلا جـــدال فى أنها — فيما يبدو — لم تخلق لتنظر بل خلقت لتتكلم . إن هذا المجمع لا يثبت على حال ، وآفته الزمان الذى يزلزله

من لحظة إلى أخرى ، ويدمر له كل ما يعمل . وقد قيل آنفاً إن أيدى رجاله كانت جشعة ، ولا أقول فى هذا الشأن أكثر من ذلك ، وأدع للذين يعرفونهم أكثر منى أن يقرروا ما يقررون .

تلك أشياء غريبة — يا ... — لا نراها فى مملكتنا فارس ، إذ لا تتجه عقولنا إلى مؤسسات كهذه عجيبة غريبة ، ولا نسير أبداً إلا وفق عاداتنا الساذجة ، وأساليبنا الفطرية .

باريس فى ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٧١٥ .

الرسالة الرابعة والسبعون

من ريكا إلى أوزبك

منذ بضعة أيام قال لى أحد معارفى : « لقد وعدتك أن أصحبك إلى بيوت الطبقة الراقية فى باريس ، وسأصحبك الآن إلى بيت سيد عظيم يعدّ من أوجه رجال الدولة » . فقلت له : ما تقصد ياسيدى ؟ أهو أكثرهم أدباً وحلماً ؟ قال : لا . فقلت : آه قد فهمت . هو يحس كل لحظة بسموّه على كل من يقترب منه ، ومادام الأمر كذلك فلا مناص من الذهاب إليه ، ولأرضين رغبته ولأشعرنه بضآلتى بالنسبة إليه ، فلنرحل .

وصلنا إليه فوجدت رجلا ضئيل الجسم ، عظيم الزهو ، يتناول قليلا من الدخان فى كبرياء ، ويستنشق السعوط فى صوت حادٍ مثير ، ثم يتمخط فى ضجيج ، ويبصق البلغم ثم يدلل كلابه بطريقة مزرية بالرجال ، تجعلنى لا أستطيع أن أحترمه ، فقلت فى نفسى : يا إلهى لو أنى حينما كنت فى بلاط فارس ، ظهرت بهذا المظهر لكنت من أكثر الناس حمقاً .

ينبغى يا ريكا أن تكون لنا فطرة سيئة حتى نأتى أفعالا مزرية تسىء إلى هؤلاء الذين يأتون إلينا كل يوم ليظهروا عنايتهم بنا ، فهم يعرفون تماما أننا نعلوهم ، وإذا جهلوا ذلك علموه كل يوم من أفعالنا الطيبة .

ليس لدينا ما نحملهم به على احترامنا ، لذلك نعمل كل ما نستطيع ليحبونا ، فنحن نتصل بأصغر الناس شأناً . ومع أن علو المكانة تصحبه قسوة ، فإنهم يجدوننا دائماً ذوى حساسية ، وهم يرون مشاعرنا فوق مستواهم ، لكننا نهبط إلى مستوى حاجاتهم . أما إذا دعت الحال إلى تفخيم عظمة الملك فى الحفلات العامة ، أو إذا دعت الحال إلى تمجيد أمتنا أمام الأجانب ، وفى الأحوال الخطيرة ، وجب أن نثير الحمية فى جنودنا فنسمو درجات أكثر مما هبطنا من قبل دركات ، ويظهر الفخر فى وجوهنا ، وقد يرى الرائى فى مثل هذه الأحوال أننا قد ظهرنا بالمظهر اللائق بنا .

باريس فى ١٠ من صفر سنة ١٧١٥ .

الرسالة الخامسة والسبعون

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

يجب أن أعترف لك أننى لم أر عند المسيحيين اليقين الدينى الحى الذى تراه عند المسلمين . فشتان عندهم بين اعتناق الدين والإيمان به ، وبين الإيمان به ، والاطمئنان إليه ، وبين الاطمئنان إليه والعمل به ، فهو عند المسيحيين موضوع للجدل يخوض فيه الناس جميعاً أكثر من أن يكون شيئاً مقدساً ، فرجال البلاط ، ورجال الحرب والنساء أيضاً يعارضون رجال الكنيسة ، ويسألونهم البرهنة على ما صمموا ألا يعتقدوه . وليس شكهم قائماً على تفكير ، فلم يعنوا أنفسهم بالبحث فيما إذا كان الدين الذى يرفضونه حقاً أو باطلا ، إنهم متمردون أرادوا أن يتخلصوا من النير قبل أن يعرفوه ، وهم مع ذلك غير ثابتين ، لا فى شكهم ولا فى إيمانهم ، وهم يعيشون بين مد وجزر حائرين . لقد قال لى أحدهم ذات يوم : « إنى لا أعتقد فى خلود الروح إلا فى فترات : فآرائى تتأثر تأثراً تاماً بحال جسمى ، وطاقتى العضوية وسهولة هضمى أو عسره ، ورقة الهواء الذى أتنشقه وغلظه ، وخفة اللحوم التى أتناولها وثقلها . فأنا على مذهب سبينوزا مرة وعلى مذهب سوسين مرة أخرى . وكاثوليكى مرة ثالثة ، وكافر آناً وعابد آناً آخر . فإذا كان الطبيب إلى جنب سريرى وجد منى قس الاعتراف ما يريد من استجابة . وإذا عادت إلىّ صحتى عرفت كيف أحول بين الدين

وبين أن يضايقنى ، فإذا مرضت مرة أخرى وجدت فى الدين عزائى ، لأنى عندما أفقد الأمل فى شيء يبدو لى الدين ويجذبنى بوعوده فأستسلم إليه ، لأموت فى جانب الرخاء » .

منذ أمد طويل أعتق الأمراء المسيحيون العبيد فى إماراتهم قائلين : إن المسيحية تجعل الناس سواسية . وهذا التصرف الدينىّ كان بالغ النفع إذ خفض من شأن الإشراف بأن سلبوا سلطانهم على الدهماء . فاضطر هؤلاء الأشراف إلى أن يفتحوا فتوحاً فى بلاد يرونها خيراً لهم ، إذ يملكون فيها عبيداً ، ويسمحون بشرائهم وبيعهم متناسين ذلك المبدأ الدينى الذى نال من سلطانهم كثيراً . ماذا تريد أن أقول لك فى ذلك ؟ الحق فى آن باطل فى آن آخر . أفلا نفعل ما يفعله هؤلاء المسيحيون ؟

إننا قوم سذج إذ نرفض المستعمرات والفتوح الهينة فى بلاد ذات جو ملائم مقبلين بأن ماءها ليس على درجة من النقاء والطهر يمكننا من الاغتسال على مبادىء القرآن الكريم .

باريس فى ١٢ من صفر سنة ١٧١٣ .

الرسالة السادسة والسبعون

من أوزبك إلى صديقه إيبن فى أزمير

إن القوانين صارمة فى أوربا ضد الذين ينتحرون . والناس — إن صح هذا التعبير — يقتلونهم مرة أخرى بعد موتهم ، إذ يجرونهم بازدراء فى الشوارع ، ويسجّل عليهم العار ، وتستصفى أموالهم .

ويبدو لى — يا إيبن — أن هذه القوانين ظالمة جداً ، لأنى إذا كنت مرهقاً بالألم والبؤس والازدراء ، فلماذا يريدون أن يمنعونى من وضع نهاية لآلامى ؟ ولماذا يحرموننى بقسوة من دواء هو بين يدىّ ؟

ولماذا يراد منى أن أعمل لمجتمع رضيت بأن أتخلص منه . ولماذا ألزم مرغماً بعقد لم أكن طرفاً فيه ؟ إن المجتمع قام على تبادل المنفعة ؛ فإذا أصبح المجتمع مرهقاً لى فمن يحول بينى وبين التخلص منه : إن الحياة منحت لى كنعمة ، فمن حقى إذن أن أردها عندما أشعر أنها لم تصبح نعمة : لقد زال السبب فيجب إذن أن تزول النتيجة .

أيريد الملك أن أكون من رعيته إذا كنت لا أستفيد خيرا من رعويتى له ؟

وهل يحق لمواطنىّ أن يسومونى هذه القسمة الجائرة : فيكون لهم النفع ، ولى الخيبة والحرمان ؟

أيرضى الله (تعالى) وهو منزه عن أن يكون له شبيه فى المحسنين — أن يحكم علىّ بقبول نعم أراها مرهقة لى ؟

أنا ملزم باتباع القوانين خاضع لسلطانها ما دمت حياً ، لكن إذا انتهت حياتى أفمن الممكن أن تظلّ مقيدة لى ؟

ولكن قد يقال : إنك تخل بالنظام الإلهى ، فالله تعالى جمع بين روحك وجسمك وأنت تفرقهما ، فأنت إذن تعـــارض تدبير الله وتقاومه .

ما معنى هذا ؟ أأكون قد غيرت نظام الله إذا أنا غيرت تكييف المادة ، وإذا أنا جعلت الكرة مربعة ، والقوانين الأولى للحركة : أعنى قوانين الخلق ، وقوانين البقاء قد جعلتها مستديرة ؟ لا . بلا شك ! إننى لم أفعل سوى أن انتفعت بالحق الذى منح لى ، وعلى ذلك أستطيع أن أحدث اضطراباً كما أهوى فى الطبيعة كلها دون أن يجترئ أحد أن يقول إننى معارض للحكمة الإلهية .

أئذا أصبحت روحى منفصلة عن جسمى يحدث خلل فى نظام الكون وترتيبه ؟ أتعتقد أن هذا النسق الجديد سيكون أقل كمالا ، وأقل انقياداً للقوانين العامة ، أو أن الدنيا فقدت شيئا ، أو أن مخلوقات الله صارت أقل عظمة ، أو بالحرى أقل فخامة ؟

أتعتقد أن جسمى إذا صار سنبلة قمح ، أو دودة ، أو عشباً ؛ فهل يتحوّل إلى أثر للطبيعة أقل مما ينبغى لها من آثار ؟ وأن روحى لتخلصها من كل ما هو أرضى صارت أقل سموًّا ؟

إن جميع هذه الأفكار — يا عزيزى إيبن — ليس لهـــا منبع إلا غرورنا : نحن لا نستشعر مطلقا ضآلتنا ، وبالرغم من ذلك نريد أن يُحسب لنا حساب فى العالم ، وأن نبرز فيه ، وأن نكون شيئا ذا خطر .

نحن نتخيل أن انعدام كائن على حظ من الكمال مثلنا يفسد الطبيعة كلها ، ونحن لا نشعر برجل أن رجلا يزيد من الدنيا أو ينقص ، ماذا أقول ؟ إن الناس جميعاً ، ومائة مليون رأس من أمثالنا ليسوا إلا ذرة ضئيلة هى من الدقة بحيث لا يدركها الله (تعالى) إلا بسعة علمه .

من باريس فى ١٥ من صفر سنة ١٧١٥ .

الرسالة السابعة والسبعون
من إيبين إلى أوزبك في باريس

يا عزيزى أوزبك : يبدو لى أن الشدائد التى تصيب المسلم الحق هى إلى الإنذار أقرب منها إلى العقاب . وإنها لأيام كريمة علينا تلك التى نكفر فيها عن سيئاتنا ؛ لذلك كان الأولى أن نختصر أيام الرخاء من حياتنا .

وما جدوى الجزع من الشدائد إلا أن نظهر أننا نريد الخيرات مستقلة عمن يمنحها مع أنه هو الخير نفسه ؟

ولو أن كائنا مكونا من كائنين ، وكانت ضرورة الاحتفاظ بالوحدة أدلّ على الخضوع لأوامر الخالق لأمكن وضع قانون شرعى لذلك ؛ ولو كانت ضرورة الاحتفاظ بالوحدة هذه خير ضمان لأفعال البشر لأمكن أن يوضع قانون مدنى لها .

من أزمير فى آخر صفر سنة ١٧١٥ .

الرسالة الثامنة والسبعون

من ريكا إلى أوزبك فى ....

أرسل إليك صورة رسالة كتبها هنا فرنسى كان فى أسبانيا ؛ وأعتقد أنك ستسرّ باطلاعك عليها .

منذ ستة أشهر وأنا أجوب أسبانيا والبرتغال ، وأعيش بين قوم يكرمون الفرنسيين وحدهم ، بأن يبغضوهم بينما يحتقرون سائر الناس .

إن الرزانة هى السّمة الواضحة فى سلوك هذين الشعبين ، وتتجلى هذه الرزانة أساساً فى مظهرين : فى النظارات ، وفى الشارب .

فالنظارات ترى بشكل واضح أن الذى يحملها منهمك فى العلوم ، غارق فى قراءات عميقة إلى درجة أن بصره قد ضعف منها ، وكل أنف مزدان بها ، أو يحملها يمكن أن يقال عنه بلا نزاع : أنه أنف عالم .

أما الشارب فإنه محترم لذاته ، بغض النظر عن نتائجه ، ولو أنه مع ذلك لا يترك استغلاله فى كثير من الأحيان فى فوائد عظيمة لخدمة الملك ، أو لشرف الأمة ، كما رأينا من قائد برتغالى مشهور كان فى بلاد الهند : وجد نفسه فى حاجة إلى مال ، فقص جانباً من شاربه ، وأرسل إلى سكان مدينة جُوا يطلب منهم عشرين ألفاً من الجنيهات ، وجعل شاربه رهناً للقرض ، فسرعان ما أقرض المبلغ . واسترد شاربه مكرّما .

ويلاحظ فى يسر أن الشعوب الرزينة الباردة ، كهذين الشعبين لديهما حظ من الغرور . وعند هذين الشعبين حظ منه . وقد أقاما غرورهما

ـ عادة ـ على أمرين لهما اعتبار كبير . فالذين يعيشون فى الأرض الأسبانية والبرتغالية يحسون أن عاطفتهم سامية إلى أبعد حد من السمو ، إذ كانوا يدعون من المسيحيين القدماء : بمعنى أنهم ليسوا فى أصلهم ممن أغرتهم محاكم التفتيش فى هذه القرون الأخيرة باعتناق الديانة المسيحية . وهؤلاء الذين يعيشون فى بلاد الهند ليسوا أقل منهم غروراً ، إذ يعتبرون أنفسهم أن لهم أسمى فضل ـ كما يزعمون ـ بأنهم ذوو بشرة بيضاء . إنه لم يكن قط فى قصر أى سيد عظيم سلطانة مزهوة جداً بجمالها كرجل طاعن فى السن ، مفرط فى الدمامة ، بشرته فى بياض الزيتون ، يجلس على بابه ، معقود الذراعين حينما كان فى مدينة من مدن المكسيك . إن رجلا هذه حاله ، ومخلوقاً بلغ هذا الحظ من الكمال ، لن يعمل ولو أعطى كنوز الدنيا كلها ، ولن يرضى مطلقاً أن يغير شرف جلده ويغض من فضله بالعمل فى صناعة حقيرة ميكانيكية .

وإنه ينبغى أن يكون معلوماً أنه إذا كان رجل يتمتع بمزية ما فى أسبانيا كأن يضيف مثلا إلى الصفات التى تحدثنا عنها آنفاً أن يكون صاحب سيف كبير ، أو أن يكون قد تعلم من أبيه ضبط القيثارة ، وتنسيق أنغامها ـ إذا كان كذلك فإنه لا يعمل قط ؛ وشرفه هو الاهتمام براحة أعضائه . ومن يظل جالساً عشر ساعات فى اليوم ينال بالتحديد ضعف التقدير الذى يناله رجل آخر لم يجلس إلا خمساً ، ذلك لأنه على الكراسىّ تكتسب النبالة .

ومع أن هؤلاء أعداء ثابتون على عداوتهم للعمل ويتظاهرون بطمأنينة فلسفية ، فإن قلوبهم غير عامرة بهذه الطمأنينة ، لأنهم دائماً عشاق . فهم أكثر رجال الدنيا رغبة فى أن يموتوا ضنًى تحت نوافذ عشيقاتهم ، والإسبانى الحق إذا لم يزكم فى الغرام لا يعدّ من الغزلين .

هم فى أول الأمر يخلصون ، ثم يصيرون غيورين . يحرصون كثيراً على ألا يعرضوا نساءهم لخدمة جندى ممزّق الجلد من الضرب ، أو حاكم هرم ، لكنهم يحبسونهن مع حديث عهد بالرهبنة متحمس فى العبادة يغضّ بصره عنهن ، أو فرنسسكانىّ قوىّ يثنى عليهن .

إنهم يعرفون أكثر من غيرهم ضعف النساء ، فلا يودّون أن يرى أحد كعب المرأة ، أو يختلس نظرة إلى أطراف أقدامها : إنهم يعرفون أن الخيال يسترسل دائماً ، ولا شىء فى طريقه يلهيه عن الاسترسال ، ثم يصل ، ومن هنا يكون الإنذار فى بعض الأحيان مقدماً .

يقال فى كل مكان إن آلام الحب قاسية ، وهى أقسى بالنسبة للإسبانيين : فالنساء يشفينهم من آلامهم ، لكنهن لم يفعلن إلا تغيير آلام بآلام ، ويبقى لهم دائماً ذكريات طويلة المدى مؤلمة لهوى قد خبت ناره .

إن لهم مجاملات يسيرة تبدو فى فرنسا ممجوجة ؛ فمثلا ، لا يضرب قائد جنديه أبداً دون أن يطلب منه أن يسمح له بذلك ، ومحكمة التفتيش لا تحرق كافرا أبداً دون أن تقدّم إليها اعتذارها .

والأسبانيون الذين لا يُحرقون يظهر تعلقهم بمحكمة التفتيش لدرجة أنهم يسخطون إذا حرموا منها : وإنى أودّ لو أن محكمة أخرى أنشئت لا لتكون حرباً على المارقين ، بل لتحارب المبتدعين الذين يعطون بعض أعمال الرهبنة الهينة قوّة كقوّة الأسرار السبعة ، والذين يعبدون كل ما يمجدون ، والذين بلغوا فى النسك درجة جعلتهم مسيحيين ولم تدخل المسيحية قلوبهم .

يمكنك أن تجد الذكاء والتعقل عند الأسبان ، ولكن لا تبحث عنهما مطلقاً فى كتبهم . انظر فى مكتبة من مكتباتهم تجد الروايات فى ناحية ، والكتب المدرسية فى الناحية الأخرى : وستحكم بأن أقسامها كونت ، وأن عدواً خفياً للعقل الإنسانى قد جمع أجزاءها .

والكتاب الوحيد الجيد من كتبهم هو الذى يعرض مهازل غيرهم من الناس .

لقد كشفوا كشفاً هائلا فى الدنيا الجديدة ، ولكنهم لم يعرفوا إلى الآن قارّتهم نفسها . إن على ضفاف أنهارهم جسراً لما يكشفوه ، وفى جبالهم أقوام لا يزالون يجهلونهم .

إنهم يظنون أن الشمس تشرق وتغرب فى بلادهم ، ولكن ينبغى أن يقال أيضاً إنها فى سيرها لا تمرّ إلا على حقول خربة ، وأقطار خاوية . »

لن يسوءنى — يا أوزبك — أن أرى رسالة كتبها فى مدريد إسبانىّ رحل إلى فرنسا ، لأنى أعتقد أنه سينتقم تماماً لأمته . أى ميدان واسع لرجل بارد مفكر ! إنى أتخيل أنه سيبدأ هكذا وصف باريس :

« هنا منزل يوضع فيه المجانين : يظن أولا أنه أكبر منزل فى المدينة ، لا : إن الدواء قليل جداً بالنسبة للألم ، ولا شك فى أن الفرنسيين المفضوحين إلى أقصى حدّ لدى جيرانهم حبسوا بعض المجانين فى منزل ليقنعوا الناس بأن الذين فى خارجه ليسوا مجانين . »

وإلى هنا أدع الأسبانىّ . وداعا يا عزيزى أوزبك .

من باريس فى ١٧ من صفر سنة ١٧١٥

الرسالة التاسعة والسبعون

من كبير الخصيان الأسود إلى أوزبك فى باريس

لقد جلب الأرمن إلى القصر أمس جارية جركسية ، ورغبوا فى بيعها ، فأدخلتها فى المقاصير المستورة ، وفحصتها بالعين الناقدة ، فبدت مفاتنها كلما أمعنت فى فحصها . وكأن — حياءها العذرى — أراد أن يخفى مفاتنها عن ناظرى ! ورأيت ما تكابده لطاعتى ، إنها تحمر خجلا حين فحصى لها . وخادمك المحتشم فى تصرفاته المطلقة ، لا ينظر إلا نظرات عفيفة طاهرة ، ولا يستشعر إلا البراءة .

وما فرغت من فحصها حتى رأيتها جديرة بك ، فغضضت طرفى عنها ، وألقيت عليها معطفاً قرمزياً ، ووضعت فى إصبعها خاتماً ذهبياً ، وجثوت تحت قدميها كأنها ملكت فؤادك ، ونقدت الأرمن ثمنها ، ثم أخفيتها عن كل العيون . ما أسعدك يا أوزبك ! إنك تملك من الجمال ما لا تحويه جميع القصور ببلاد المشرق . أىّ مسرة تجدها عند عودتك إذا رأيت لديك ما يفتن فارس كلها ! وأن تجد المفاتن تتجدد فى قصرك كلما حاول الزمان والملكية أن يقضيا عليها .

من قصر فاطمة فى غرة ربيع الأول سنة ١٧١٥ .

الرسالة الثمانون

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

رأيت منذ وجدت فى أوربا — ياعزيزى رعدى — حكومات شتى وليست الحال فيها كما هى فى آسيا حيث يسود فى جميع أرجائها أصول واحدة للسياسة .

وكثيراً ما فكرت فى نفسى لأهتدى إلى معرفة أى الحكومات أحكم وقد بدا لى أن أكملها هى التى تحقق أهدافها بأقل التكاليف ، بأن تسوس الناس سياسة توافق ميولهم وأهواءهم .

وإذا خضع الشعب لحكومة رفيقة ، كما يخضع لحكومة قاسية ، فإن الحكومة الأولى أفضل ، لأن سلوكها أرشد ، ولأن القسوة وسيلة لا تلائم الحكم .

وليكن فى تقديرك — يا عزيزى رعدى — أن تفاوت العقوبات فى قسوتها لا أثر له فى طاعة القوانين فى دولة من الدول ؛ ففى البلاد ذات العقوبات المعتدلة يخشى الناس القوانين كما يخشونها فى البلاد ذات العقوبات الجائرة الرهيبة .

وسواء أكانت الحكومة رفيقة أم قاسية ، فإن العقوبات دائماً على درجات ؛ فالعقوبة الشديدة للجريمة الكبيرة ، والعقوبة الهينة للذنب

الصغير . وتقدير العقوبة عند الناس يخضع لعادات البلاد التى يعيشون فيها : فالحكم بالحبس ثمانية أيام ، أو بغرامة يسيرة تزعج نفس أوربىّ عاش فى بلاد ذات حكم رفيق كما يزعج آسيوىُّ لقطع ذراعه . وترتبط درجة الخوف بنسبة العقوبة ، وكل جنس يتلقى العقوبة نفسها بطريقته : فالعقوبة التى تحدث الجزع من الخزى عند فرنسىّ ، لا تؤرّق تركيًّا ربع ساعة .

ومع ذلك لا أرى النظام والعدالة والإنصاف ترعى فى تركيا وفارس وبلاد المغول أكثر مما ترعى فى الجمهورية الهولندية وفينيس وانجلترا نفسها، ولا أرى ارتكاب الجرائم فيها أقل ، ولا أرى الناس وهم مُفَزَّعون فيها بالعقوبات الشديدة أكثر احتراماً للقوانين .

وعلى عكس ذلك ألحظ فى هذه الدول نفسها ، مصدراً للظلم والتمرد . وأجد الملك نفسه ، وهو مصدر القانون ، أقل سيادة منه فى البلاد الأخرى .

وفى الأوقات العصيبة ، تبدر حركات فوضوية لا يتزعمها أحد ، وإذا حدث أن اجترِىء على السلطة العاتية ، فلن يستطيع أحد أن يستعيد سلطانها .

إن إهمال القصاص يلائم الفوضى ، ويزيدها . وما أتعس آثاره !

وفى هـــذه الدول لا تنشأ ثورات صغيرة ، وليس بين الهمس والشغب زمن ما .

وليس من الضرورى أبداً أن تكون الحوادث الجسام فيها نتيجة لأسباب كبيرة ، بل على العكس من ذلك ، قد تحدث ثورة كبيرة من حادثة

مين ، وتكون — فى أغلب الأحوال — غير متوقعة لا ممن يثيرونها ، ولا ممن يقاسون آثارها .

قد خلع عثمان[1] امبراطور تركيا ، ولم يكن أحد من سبب هذا الخلع يفكر فى أن يجنى عليه هذه الجناية ، وإنما طلب الناس العدل فى حادث خطير ، فارتفع من بين الجمع — بلا قصد — صوت لم يكن معروفاً قط ، ونطق باسم مصطفى ، فصار مصطفى على الفور سلطاناً .

من باريس فى ٢ من ربيع الأول سنة ١٧١٥ الميلادية .

---

(١) عثمان خان الثالث الذى خلفه مصطفى خان الثالث سنة ١١٧١ — ٧٥٧ م

الرسالة الحادية والثمانون

من رزيم سفير فارس في بلاد المسكوف إلى أوزبك في باريس.

ليس بين الشعوب — يا عزيزي أوزبك — من يفوق شعب التتار في مجده أو في عظم فتوحاته . هذا الشعب بحق هو سيد العالم ، وكأن سائر الشعوب خلقت لخدمته .

وهو إلى ذلك مؤسس الإمبراطوريات وهادمها ، وفي كل زمان أظهر دلائل سلطانه على الأرض ، وفي كل عصر كان هو وباء الشعوب .

وقد انتصر التتار على الصين مرتين ، ولا تزال خاضعة لسلطانهم . وهم يبسطون نفوذهم على البلاد المترامية الأطراف التي تكوّن الإمبراطورية المغولية .

وقد حكموا الفرس فتربعوا على عرش قورش وكشتاسب وقهروا المسكوف . وفتحوا — تحت اسم الأتراك — فتوحات عظيمة في أوربا وآسيا وإفريقية وسيطروا على هذه الأجزاء الثلاثة من العالم .

وإذا عدنا إلى الماضي البعيد وجدنا بعض الشعوب التي أسقطت الإمبراطورية الرومانية قد انحدرت من شعب التتار .

وأين فتوحات الإسكندر من فتوحات جنكيزخان ؛ إن هذا الشعب

المظفر لا ينقصه إلا المؤرخون الذين ينوّهون بما أتى من عجائب .

كم لهم من أعمال خالدة ضاعت فى طىّ النسيان ! وكم من ممالك أقاموها لا ندرى الآن أصلها ! هذا الشعب الغازى ، الفخور بحاضره فقط، الواثق بالنصر فى كل زمان كان لا يفكر مطلقا فى أن يفخر فى مستقبله بذكريات نصره فى غابر أيامه .

من موسكو فى ٤ من ربيع الأول سنة ١٧١٥ .

الرسالة الثانية والثمانون

من ريكا إلى إبن فى أزمير

بالرغم من أن الفرنسيين يتكلمون كثيراً فإن من بينهم نوعاً صامتاً من الرهبان من أتباع ماربرونو . ويقال إنهم يقطعون ألسنتهم لدى دخولهم الدير . وكم يتمنى الناس أن يطرح سائر الرهبان بدورهم كل ما لا فائدة فيه لمهنتهم .

وفيما يتعلق بهؤلاء الرهبان الصامتين ، نجد قوما أعجب منهم بكثير ولهم موهبة تفوق المألوف بكثير : أولئك هم الذين يحسنون الكلام دون أن يقولوا شيئاً والذين يتفكهون بالحديث طيلة ساعتين ، دون أن يتمكن إنسان من أن يعرف مغزى حديثهم أو ينقل بعض كلامهم أو يحفظ كلمة مما قالوا .

هذا النوع من الناس معبود النساء ، لكنهم مع ذلك لا يبلغون درجة أولئك الذين منحتهم الطبيعة موهبة محبوبة هى الابتسام فى كل مناسبة ، أعنى فى كل لحظة .

كما يتصفون بمزية أخرى . هى أن يبدوا فى سرور الموافقة على كل ما يقوله النساء .

ولكنهم يصلون إلى قمة الذكاء حين يكيفون كل شىء فى لباقة ويستنبطون من الأشياء المألوفة ألوانا كثيرة تتصف بالبراعة الشديدة .

وأعرف من الناس قوما آخرين يدخلون فى أحاديثهم أشياء لا حياة فيها: حين يتحدثون عن ثيابهم الموشاة أو شعورهم المستعارة الشقراء أو عن علبة السعوط أو عن العصا أو عن قفازاتهم ، ويفضل أحدهم أن يبدأ حديثه عن الشارع وجلبة العربات أو المطارق التى تدق بشدة على الباب ليصغى الناس إليه . وهذه هى مقدمة تدلنا على سائر الحديث . وحينما تكون المقدمة جميلة فإنها تجعل جميع الحماقات التى تُسرد بعد ذلك محتملة ومن حسن الحظ أن تأتى هذه الحماقات متأخرة كثيرا .

وإنى أؤكد لك أن هذه المواهب الضئيلة التى ليس لها شأن عندنا تؤدى لأولئك الذين يتحلون بها أجل الخدمات ، حتى إن الرجل الرشيد لا يتألق مطلقاً أمام تلك الأنواع من الناس .

من باريس فى ٦ من ربيع الآخر سنة ١٧١٥ .

الرسالة الثالثة والثمانون

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

عزيزى رعدى: إذا كان هناك إله ، تحتم أن يكون عادلا .

والعدالة صلة توَافُقٍ يرتبط بها فى الواقع شيئان . وهذه الصلة ثابتة دائماً عند كل كائن يقدرها ، سواء أكان إلها ، أم ملكا ، أم إنسانا .

وفى الحق إن الناس لا يرعون دائما تلك الصلات وكثيرا ما ينصرفون عنها إذا فطنوا إليها ، لأنهم يؤثرون دائما مصلحتهم الذاتية والعدالة ترفع صوتها ، لكنهم لا يكادون يسمعون صوتها وهم فى غمار شهواتهم . والناس لا يرون بأسا فى ارتكاب المظالم إذا هى حققت منافعهم ، لأنهم يؤثرون إرضاء نفوسهم على رضا سواهم . ولا يكون أحد شريرا بلا مقابل وهم لا يسعون إلا إلى منفعتهم الذاتية . بل لا بد من سبب يحدد سلوكه ، وهذا السبب دائماً هو المنفعة الذاتية .

وهذا يا رعدى ما جعلنى أفكر فى أن العدالة أزلية ، ولا تتعلق مطلقاً بما تواضع عليه الناس ، لأنها لو اتبعت أهواءهم لكانت حقيقة مرة ينبغى لها أن تختفى من تلقاء نفسها .

إنه يحيط بنا أناس أقوى منا ، يستطيعون أن يسيئوا إلينا بشتى الصور ، وفى أغلب الأحيان لا يقعون تحت طائلة العقاب . وأى راحة لنا فى أن نعرف أن فى قلوب هؤلاء الناس عاملا داخليا يكافح من

أجانا ويحمينا مما يدبرون لنا من أفعال! وبدون ذلك يكون لزاما أن نظل في خوف دائم، ونمر أمام الناس كما نمر أمام السباع. ولا نطمئن لحظة على حالنا وسعادتنا وحياتنا.

أى رضا يحسه الإنسان إذا اختبر نفسه فوجد له قلباً عادلا! وهذا السرور وإن تطلب منه مشقة فإنه يسعده، لأنه يسمو بالمرء عن منازل هؤلاء الذين تجردوا منه ويُنزّهه عن أن ينحط إلى درك الوحش من نمور ودببة. نعم يا رعدى لو أنى على ثقة بأن أرعى الإنصاف دائماً — وهو نصب عينى — لكنت خير الناس جميعا.

باريس فى غرة جمادى الأولى سنة ١٧١٥ الميلادية.

الرسالة الرابعة والثمانون

من ريكا إلى .....

كنت أمس فى الانفاليد ، ولو كنت ملكا لكان أحب إلىّ أن أكون مؤسس هذا البناء من أن أربح ثلاث معارك . إن المرء يجد فى كل جانب من جوانبه يداً لملك عظيم . إنى أعتقد أنه أولى مكان بالإجلال على ظهر الأرض .

يا لها من روعة أن ترى فى مكان واحد تجمعاً لكل ضحايا الوطن الذين لم يعيشوا إلا للدفاع عنه ، والذين كانوا يشعرون شعوراً واحداً بحبه وإن اختلفوا فى القوة ، ولا يشكون شيئاً إلا ما هم فيه من عجز عن بذل مزيد من التضحية من أجل الوطن !

وأى شىء أدعى إلى الإعجاب من رؤية هؤلاء المحاربين الضعاف فى هذا المأوى يرعون نظاماً ما فى دقة النظام الذى كانوا يلتزمونه وهم يواجهون عدواً ، ويلتمسون بقية الرضا النفسى من هذه الصورة الحربية ، ويوزعون قلوبهم وأرواحهم بين الواجبات الدينية وواجبات الفن الحربى !

وددت لو سجلت أسماء الذين يموتون فى سبيل الوطن فى سجلات تحفظ فى المعابد لتكون منابع للفخار والشرف .

فى باريس فى ١٥ من شهر جمادى الأولى سنة ١٧١٥ .

الرسالة الخامسة والثمانون

من أوزبك إلى ميرزا في أصفهان

أنت تعرف ياميرزا أن بعض وزراء الشاه سليمان قد دبروا أمراً هو أن يكرهوا الأرمن الفارسيين على مغادرة المملكة إلا أن يُسلموا معتقدين أن دولتنا ستظل نجسة ما بقي في أحضانها هؤلاء الكافرون .

ومما يؤثر في عظمة فارس ، أن يصغى إلى التديّن الأعمى في هذا الشأن .

ولم يدر أحد عيب هذا الاقتراح ، ولا سوء نتائجه ، لا الذين اقترحوه ولا الذين عارضوه ، ولكن المصادفة هي التي قادت إلى التعقل وحسن السياسة ونجت الإمبراطورية من خطر هائل كان جديراً أن يقودها إلى خسارة تعدل الهزيمة في معركة ، أو احتلال مدينتين من البلاد .

اعتقد الناس أنه بالتعسف مع الأرمن والأمر بطردهم بلا جريرة سيقضي على التجار وعلى معظم المهرة من صناع الدولة . وأنا على يقين من أن الشاه عباس العظيم يؤثر أن تقطع يداه على أن يوقع أمراً كهذا ؛ فيقدم للمغول أو لملوك الهند أفضل الصناع من رعيته ويعتقد أنه بذلك ينزل عن نصف إماراته .

إن مسلمينا المتحمسين ، اضطهدوا المجوس، فاضطروهم إلى أن ينزحوا أفواجاً إلى الهند ، فحرمت بذلك بلاد الفرس من هذه الطائفة الكادحة

العاملة ، التي يرجع إليها الفضل في التغلب على جدب أراضينا .

ولم يبق للدين وأهله إلا عملية واحدة : هي القضاء على الصناعة وبذلك تنهار الدولة من تلقاء نفسها ، ويتبع انهيارها كنتيجة محتومة انهيار هذا الدين نفسه من حيث أريد له الازدهار العظيم .

إذا لزمنا التفكير من غير تسلط فكرة سابقة علينا فليت شعري أيكون من الخير — يا مرزا — تعدد الأديان في دولة واحدة ؟

ومما يشاهد أن الذين يعيشون في ظلال أديان متسامحة يكونون — عادة — أكثر نفعاً لوطنهم من الذين يعيشون في ظل دين واحد متسلط على ما سواه ، لأن الناس إذا لم تميزهم ألقاب الشرف ، لم يستطيعوا أن يمتازوا إلا برفاهيتهم وثرائهم الذى يقبلون على جمعه بعملهم ، وباضطلاعهم بالأعباء الجسام في المجتمع .

ولأن الأديان كلها تحتوى على مبادىء نافعة للمجتمع ، فمن الخير أن نرعاها متحمسين لها ، وأى شيء يزيد في التحقق لها مثل كثرتها ؟

إن المتنافسين لا يتسامحون ، وتسرى الغيرة إلى أفرادهم ، وكلٌّ يتعصب لمذهبه ، ويخشى أن يفعل من الأشياء ما يخدش شرف حزبه ، أو يعرضه لاحتقار الحزب المنافس له ، ولنقده الذى لا يعرف الغفران .

كما يشاهد أنه إذا طرأ مذهب جديد على بلد من البلاد فإن ذلك يكون الوسيلة الفعالة لإصلاح ما فسد من المذهب القديم .

ومهما قيل من أنه ليس من مصلحة الملك أن يقبل تعدد الأديان في دولته ؛ فإنه حينما تأتى جميع مذاهب الدنيا ، تلتئم فيها ، ولن يصيبه من

ذلك أى أذى ، لأنه ليس من المذاهب إلا ما يوصى بالطاعة ، ويحض على الإذعان .

إنى أعترف بأن التاريخ مملوء بالحروب الدينية ، لكن ينبغى ألا يغيب عنك أن تعدد الأديان لم يكن سبباً لها ، لكنها روح التعصب التى تهيج نفوس الذين يؤمنون بسمو دينهم على سائر الأديان .

بهذه الروح تسلط اليهود على غيرهم ، ومنهم انتقلت العدوى كوباء شامل إلى المسيحيين والمسلمين[1] . هذه الروح المريضة لا يمكن أن يعتبر نجاحها إلا أفولا كاملا للعقل الإنسانى .

وبما أن التسلط على ضمائر الناس لا يخالف الإنسانية إذا لم ينشأ عنه آثار سيئة ، يترتب عليها شر مستطير ، لذلك يحق للمرء أن يتهوس فى بيان رأيه . وإن الذى يريد منى أن أغير دينى لا يفعل ذلك - بلا شك - إلا لأنه لا يغير دينه إذا حمل على ذلك : ويجد غريباً ألا أفعل شيئاً لا يفعله هو ولو أعطى ملك الدنيا .

باريس فى ٢٦ من جمادى الأولى سنة ١٧١٥ .

(١) الاسلام يأبى التعصب للدين والإكراه فيه بنص القرآن الكريم : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى . » ويحض على الرفق فى الدعوة إليه ، يقول الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن . »

المراجع

الرسالة السادسة والثمانون

من ريكا إلى .....

يبدو أن الأسر هنا تحكم نفسها بنفسها ، فليس للزوج إلا ظل من السلطان على زوجته ، وكذلك للأب على أبنائه ، وللسيد على عبيده . وتضطرب العدالة فى جميع منازعاتهم ، ولتتأكد من أنها دائماً ضد الزوج الغيور ، والأب الحزين ، والسيد الذى لا يجد الراحة .

وقد ذهبت أمس إلى المكان الذى يتولى القضاء ، وقبل الوصول إليه ينبغى أن يمر المرء مسلحاً بعدد لا نهاية له من تاجرات العرض الصغيرات اللائى يدعونك بصوت مخاتل : هذا منظر ضاحك فى أول الأمر ، لكنه يصير محزناً عندما يدخل المرء الردهة الكبرى حيث لا يرى إلا أناساً ثيابهم أكثر وقاراً من وجوههم . وأخيراً يدخل الإنسان فى المكان المقدس الذى تكشف فيه جميع أسرار الأسر ، أو الذى يصبح فيه أخفى التصرفات مكشوفة فى وضح النهار .

فهناك فتاة حيية تعترف بما عانت من صراع نفسى . ويتضاءل فخرها لأنها مهددة دائماً بهزيمة قريبة . ولئلا يجهل أبوها حاجاتها تعرضها أمام الناس جميعاً .

وثمة امرأة وقحة تعرض السباب الوقح الذى وجهته إلى زوجها كمبرر لفراقها .

وهناك أيضاً عدد لا حصر له من الفتيات اللائى سقطن أو غرر بهن جعلن الرجال أسوأ كثيراً مما هم عليه . والعلاقة الجنسية تدوّى فى هذه المحكمة ، إذ لا يسمع فيها إلا آباء أزعجهم الغضب ، أو فتيات مخدوعات، أو عشاق خائنون ، أو أزواج محزونون .

وبمقتضى القانون المرعى فيها ينسب كل طفل يولد فى أثناء الزواج إلى الزوج ؛ ومهما أقيمت الأدلة الراجحة على ألا يعتقد ذلك، فإن القانون يعتقده ، ويريح الزوج من الاختبار والشكوك .

وفى هذه المحكمة تؤخذ أغلبية الأصوات ، ولكن المعروف بالتجربة أن الأولى أن يعوّل على الأقلية . وهذا قد يكون طبيعياً : لأن النفوس المنصفة قليلة جداً . وجميع الناس متفقون على أن للمحكمة عيوباً لا حصر لها .

من باريس فى غرة جمادى الآخرة سنة ١٧١٥ .

الرسالة السابعة والثمانون

من ريكا إلى .....

يُقال: إن الإنسان مدنيّ بالطبع، وعلى هذا الأساس يبدو لى أن الفرنسيّ أمعن الناس فى إنسانيته، لأنه بتفوقه كأنه لم يخلق إلا للمجتمع. غير أنى لحظت من بينهم أناسا ليسوا اجتماعيين فحسب، بل عالميين، فهم يكثرون فى جميع الأرجاء، ويعمرون أحياء المدينة الأربعة فى لحظة واحدة، إن مائة رجل من هذا النوع يعمرون الأرض أكثر من ألف. إنهم يستطيعون أن يستروا عن أعين الأجانب ما أهلكه الوباء أو المجاعة من بنى وطنهم. إنهم دليل يثبت القضية التى وضعتها الفلاسفة وصارت موضع جدل فى المدارس وهى: هل من الممكن أن يكون جسمٌ ما فى لحظة بعينها فى عدة أمكنة؟ إنهم فى حركة دائبة، لأنهم مهتمون وما اهتمامهم إلا أن يسألوا كلّ من يرونه: إلى أين؟ ومن أين؟

ولا يمكن أن يُنزع من رءوسهم أنه من المستحسن أن يزوروا الناس كل يوم بالتجزئة من غير حساب للزيارات التى يزورونها لهم بالجملة فى أماكن اجتماعهم وهم لا يحسبونها لأن طريقهم إليها ميّسر، وبذلك تقضى مراسيمهم التى يرعونها. إنهم أكثر طرقا للأبواب من الرياح والأعاصير. ولو فحصت القوائم التى لدى البوابين لوجدتها كل يوم عامرة بأسمائهم التى كتبت بأشكال شتى وحروف سويسرية.

إنهم يقضون حياتهم فى السير وراء جنازة، أو فى مجاملات التعزية،

أو فى التهانى بالزواج ؛ ولم يمنح الملك أحدا من رعاياه منحة وإن كانت عربة يذهب بها إليه معبرا عن سروره . وعلى الجملة فهم يعودون إلى منازلهم مكدودين ، فيستريحون ليستأنفوا فى غدهم أعمالهم المرهقة .

وفى يوم ما مات أحدهم من الإعياء فوضعت على قبره هذه المرثية :
« هنا استراح من لم يسترح أبدا . لقد سار خلف ثلاثين وخمسمائة جنازة ، وبشّر بمولد ثمانين وستمائة وألفين من الأطفال . وبلغ ما أنفقه فى تهنئة أصدقائه بعبارات مختلفة مليونين وستمائة ألف جنيه ، وبلغ ما قطعه من الطرق العامة ستمائة وتسعة آلاف ستاد ، وقطع فى الريف ستة وثلاثين ألف ستاد[1] .

« كان حديثه مسليا ، إذ كانت ذخيرته ٣٦٥ قصة ، ويعى من صغره ١١٨ كلمة مأثورة أخذها عن القدماء ليستغلها فى مناسباتها ، وأخيرا مات فى الستين من عمره . وهنا أمسك عن القول وإلا فكيف أستطيع أن أخبرك أيها المارّ بكل ما فعل ، وبكلّ ما رأى ؟ »

فى باريس — فى ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٥ .

---

(١) ستاد = ٦٠٠ قدم

الرسالة الثامنة والثمانون

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

تسود باريس الحرية والمساواة ، لذلك ليس للنسب ولا للفضيلة ولا للمكانة الحربية ، ولا للشهرة أيًّا كان سببها ، أن تحمى فردا من أن يذوب فى غُمار الناس. والحسد الناشىء عن تفاوت الطبقات غير معروف فى هذه المدينة ، وأوجه الرجال فى باريس مثلا من يجرّ عربته خير الجياد .

والعظيم فيها من يحظى بلقاء الملك ويتحدث إلى الوزراء ، أو ينحدر من نسب عريق ، أو بمقدار ديونه ونفقاته . وأسعد هؤلاء جميعا من يستطيع أن يخفى فراغه بما بيديه من تعجّل ، أو الذى ينجح فى التظاهر بأنه من أصحاب اللذات والمتع . أما فى فارس فليس عظيما فيها إلا من استحق أن يكل الملك إليه منصبا خطيرا فى الحكومة .

وفى فرنسا عظماء ببيوتهم وإن كانوا لا يملكون مالا ، والملوك كالصناع المهرة يستغلون أيسر الآلات لإنجاز أعمالهم .

والحظوة لدى الملك هى المعبود الأعظم عند الفرنسيين والوزير كاهنها الأعظم الذى يقدم كثيرا من الضحايا ، وأعوانه — الذين يحيطون به ولا يلبسون البياض — يقدّمون أحيانا الضحايا من غيرهم ، وأحيانا أخرى يضحّون بأنفسهم ، ويستسلمون مع سائر الشعب لصنمهم المعبود.

فى باريس فى ٩ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٥ .

الرسالة التاسعة والثمانون

من أوزبك إلى ابن فى أزمير

الطموح إلى المجد لا يختلف مطلقاً عن غريزة حب البقاء عند جميع المخلوقات . ويبدو أننا نزيد فى كياننا ! إذا نحن استطعنا أن نؤثر به فى ذاكرة سوانا :

إنها لحياة جديدة نحصل عليها ، وتكون عندنا غالية كالحياة التى وهبنا الله إياها .

ولأن الناس ليسوا سواء فى تعلقهم بالحياة ، فهم كذلك لا يستوون فى شعورهم بالمجد . وهذا الشعور النبيل يكون دائماً عميق الأثر فى القلوب لكن الخيال والتربية يكيّفانه بصور شتى .

وهذا الخلاف كما يكون بين رجل ورجل ، يكون قائماً بشكل أوضح بين شعب وشعب .

ويمكن وضع مبدأ ثابت : هو أن الرغبة فى المجد فى كل دولة تزداد مع حرية الرعية ، وتنقص بنقصها . والمجد لا يصاحب العبودية أبداً .

وقد حدثنى رجل رشيد فقال : إن الإنسان فى فرنسا أكثر حرية منه فى فارس لاعتبارات شتى ، لذلك كان أكثر حباً للمجد . وهذا الخاطر السعيد يدفع الفرنسىّ إلى أن يعمل فى سرور واستساغة ، وهذا لا يناله

سلطانك من رعيته إلا إذا وضع دائماً نصب أعينهم أقسى العقوبات بجنب المكافآت .

وعندنا كذلك يحسد الملك أقل رجل من عامة رعيته على ما يناله من شرف . والذى يحافظ على هذا الشرف محاكم مبجلة ، هى كنز الأمة المصون ، لأنها الشىء الوحيد الذى ليس للملك سلطان عليه ، ولا يهيمن عليها إلا إذا أضر بمصالحه . وهكذا إذا أحس أحد أفراد الشعب أن الملك خدش شرفه سواء كان ذلك بمحاباة أحد دونه ، أو بأقل أمارة تدل على الازدراء فإنه يغادر بلاطه من فوره ، ويترك وظيفته ، وخدمته ، ويلزم بيته .

والفرق بين جند الفرنسيين وجندكم ، أن جندكم من عبيد جبناء بطبيعة الحال فلا يتغلبون على الخوف من الموت إلا بالعقاب ، وهذا يحدث فى نفوسهم نوعاً جديداً من الفزع يجعلهم كالمشدوهين ، على حين أن الجنود الفرنسيين يقبلون على المعارك بلذة ، ويسمو رضاهم على الخوف فيقضى عليه .

ويبدو أن محراب الشرف ، والشهرة ، والفضيلة لا يقوم إلا فى الجمهوريات وفى البلاد التى يستطيع الإنسان فيها أن ينطق بكلمة الوطن : ففى روما وأثينا وأسبرطة لا ينال الشرف إلا بالخدمات الجديرة بالتنويه. وتاج من أغصان البلوط أو الغار ، أو تمثال أو ثناء ، يعتبر مكافأة عظيمة لكسب معركة حربية ، أو للاستيلاء على مدينة .

وهناك إذا عمل الرجل عملا جميلا وجد مكافأته المرضية أنه عمل هذا العمل . لأنه لا يرى أحدا من مواطنيه إلا وهو يحس أنه أحسن إليه فكأن كل خدمة من خدماته تتعدد بتعدد مواطنيه .

كل شخص أهل لأن يفعل خيراً بإنسان آخر ، لكنّ أشبه الناس بالآلهة أولئك الذين يُشيعون السعادة فى مجتمع بأسره .

أليس لزاما أن تنطفىء انطفاءً تاما هذه المنافسة الشريفة فى فعل الخير فى قلوب رجالكم الفارسيين ؟ أى فى البلد الذى لا تَمنح فيه المناصب والرتب إلا ضريبة لهوى الملوك ؟ حيث الصيت والفضيلة تعتبر أشياء وهمية إذا لم تكن مصحوبة بالحظوة لدى الملك فتوجد بوجودها ، وتموت بموتها ؛ فالرجل الذى ينال التقدير العام اليوم ، لا يأمن أن يُخدش شرفه غداً : فهو اليوم قائد للجيش ، وغداً قد يجعله الملك طباخا له ، ثم لا يبقى له أمل فى الثناء إلا إذا صنع له طعاما لذيذاً طهاه بالتوابل .

من باريس فى ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٥ .

الرسالة التسعون

من أوزبك إلى الشخص نفسه فى أزمير

بهذا الشغف العام بالمجد لدى الشعب الفرنسى تكون فى روح أفراده شيء ما لا أدريه : يسمى مبدأ الشرف ، وهو الطبيعة الملازمة لكل ذى مهنة ، لكنه يتميز بوضوح عند رجال الحرب ، فيصبح فى القمة .

وإنه ليصعب علىّ جداً أن أشعرك بمداه ، لأنه ليست عندنا قط فكرة محددة عنه .

وقديماً كان الفرنسيون وبخاصة النبلاء لا يتبعون أبدا سوى القوانين الخاصة بمبدأ الشرف ؛ فهو الذى ينظم سلوكهم فى الحياة ، وهو مبدأ صارم حتى إن أحدهم لا يستطيع أن يستخف به دون أن يجد لذلك ألما أقسى من الموت ، بل إنى أقول : لا يستطيع أحدهم أن يحتال ليفر من أقل شيء يفرضه .

أما ما يختص بفض المنازعات فإنها لا تتطلب مطلقاً إلا نوعا من قرار : هو المبارزة التى تقضى على كل خلاف ، إلا أن عيب هذا القرار أن الحكم فيه يئول غالباً إلى أشخاص ليسوا طرفا فى الخصومة .

وقد يحدث أن شخصاً يعرف آخر معرفة يسيرة . يلتزم بالدخول فى نزاع بينه وبين سواه ، ويقحم نفسه فى الموضوع كأنه هو الذى استغضب . ويشعر دائماً بأن اختياراً كهذا يشرفه ، وأن إيثاراً مثل

هذا الإيثار يملؤه سروراً . رجل كهذا لا يسمح بأن يدفع قليلا من المال لينجي رجلا وأسرته من حبل المشنقة ، لكنه يخاطر ألف مرّة ، دون اكتراث بحياته من أجل هذا الشخص إرضاءاً لقانون الشرف .

وهذه الحالة المقررة أسيء تصورها ، لأنه قد يكون شخص أمهر فى الرماية ، أو أشد قوة من خصمه ، لكن ذلك لا يستلزم أن يكون أولى منه بالحق ، لأسباب أرجح . لهذا حرم الملوك المبارزة ، وفرضوا لها عقوبات صارمة — دون جدوى — لأن الشرف الذى يسود دائماً يتمرّد ولا يعترف قط بالقوانين .

وهكذا نجد الفرنسيين فى حال مضطربة أشد اضطراب ؛ لأن قوانين الشرف نفسها تضطر الرجل الشريف أن ينتقم لنفسه إذا أهين ، ومن ناحية أخرى تعاقبه العدالة عقاباً قاسياً إذا هو انتقم لنفسه ؛ فإذا اتبع قوانين الشرف هلك على المقصلة ، وإذا طبّق قوانين العدالة نُفى إلى الأبد من مجتمع الرجال فلا مفر إذن للمرء من إحدى حالين كلتاهما مرة : فإما أن يموت ، وإما أن يكون غير جدير بالحياة الكريمة .

باريس فى ١٨ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٥ .

الرسالة الحادية والتسعون

من أوزبك إلى روستان فى أصفهان .

تظهر هنا شخصية متنكرة فى زى سفير لفارس . هذا السفير يعبث فى وقاحة بملكين عظيمين من ملوك الدنيا . إنه يحمل إلى ملك الفرنسيين هدايا من ملكنا لا ينبغى أن تقدّم لأمير إيريميت أو جورجيا . وبشحّه الدنىء يغض من جلال ملكين عظيمين .

وقد صار محلا للسخريه فى عين شعب يرى نفسه أرقى شعوب أوربا مدنية . وجعل الغرب يقول : إن ملك الملوك[1] لا يحكم إلا الهمج .

وقد لقى تكريماً كأنه يأباه لنفسه ، وكأن البلاط الفرنسى يستشعر عظمة الفرس أكثر مما يستشعره هو ، إذ جعله يظهر مهيباً أمام شعب يزدريه .

لا تقل هذا فى أصفهان ، واستبق بذلك رأس شقىّ لا أريد أن يعاقبه وزراؤنا من أجل حماقتهم هم ، إذ أساءوا الاختيار فجعلوه سفيراً .

باريس فى نهاية جمادى الآخرة سنة ١٧١٥ .

(١) يريد بذلك ملك فارس . المترجم

الرسالة الثانية والتسعون
من أوزبك إلى رهيدي في فنيس

إن الملك(1) الذي حكم عهداً طويلا جداً لم يعد له وجود . لقد جعل الناس يتحدثون عنه في حياته ، وهاهم أولاء جميعاً قد صمتوا عند موته . لقد كان حازما شجاعا في لحظته الأخيرة ، فلم يبدُ مستسلماً إلا للقدر . وهكذا مات الشاه عباس العظيم بعد أن ملأ الدنيا باسمه .

ولا تظن أن هذا الحدث الجليل لم يُحدث إلا عبراً خلقية ، إذ أن كل شخص فكر في أعماله ، وفيما يستفيده من هذا التغيير ، فالملك ابن حفيد الملك الراحل لم يتجاوز الخامسة من عمره ، وكان مقرراً أن يكون خاله الأمير وصياً على العرش .

وقد أعد الملك الراحل وصية تحدّد سلطة الوصيّ ، ولكن هذا الأمير اللبق عرض على البرلمان حقوقه التي يرثها عن نسبه الملكيّ ، فهدم ما أعدّه الملك الذي أراد أن يعيش بعد وفاته ، وحاول أن يظلّ حاكما بعد موته .

إن المجالس النيابية أشبه بالخرائب التي يطؤها الناس بأقدامهم ، لكننا نذكر دائماً بالفكرة القائمة عن بعض المعابد المشهورة للديانة

---

(1) يقصد الملك لويس الرابع عشر الذي توفي في أول سبتمبر سنة ١٧١٥ . المراجع

القديمة للشعوب . إنها لا تهتم قط بأن تحقق العدالة . وسلطتها دائماً مضمحلة إلا إذا حدثت أمور ليست فى الحسبان تمنحها القوّة والحياة .

هذه الهيئات الكبيرة تبعت مقادير الأمور الإنسانية : إنها استسلمت للزمن الذى يدمر كل شىء ، وللفساد الخُلقىّ الذى يضعف كل شىء ، وللسلطة العليا التى تقهر كل شىء . لكن الوصىّ على العرش الذى أراد أن يكون مقبولا لدى الشعب — أظهر فى أول الأمر احتراما لهذه الصورة من الحرية العامة .

وبما أنه فكّر فى أن يزيل المعبد والصنم من الأرض ، فقد رغب فى أن ينظر الناس إلى البرلمان كعماد للملكية ، وكأساس لجميع السلطات الشرعية .

باريس فى ٤ من رجب سنة ١٧١٥ .

الرسالة الثالثة والتسعون

من أوزبك إلى أخيه سانتون فى خلوة قزوين

إنى أخشع أمامك — أيها الولىّ القدّيس — وأركع لك ، وأعتبر أثر قدميك كإنسان عينى . إن طهرك بلغ من النقاء حداً يجعلنى أتخيل أن لك قلب نبينا الطاهر . وإن الله تعالى نفسه يعجب من زهدك وتقشفك ، والملائكة تنظر إليك من علياء مجدها ، وتقول : « كيف يظل هذا على الأرض مع أن روحه معنا تحلّق حول العرش القائم فوق السحب ؟ » .

وكيف لا أمجدك ، وقد تعلمت من شيوخنا أن الأولياء جميعاً حتى غير المخلصين منهم لهم دائماً سلوك طاهر يجعلهم مبجلين عند مخلصى المؤمنين ؟ وقد اصطفى الله من جميع أنحاء الأرض أرواحا أصفى من سواها ، وخلصها من العالم الدنس ، حتى يكون تقشفهم ، وعزوفهم عن الشهوات ، ودعواتهم الحارّة مانعة من نزول غضب الله الذى يوشك أن ينزل على كثير من الشعوب العاصية .

إن المسيحيين يقصّون أعاجيب عن أوليائهم الأولين الذين لجئوا وهم ألوف إلى الصحارى الموحشة فى جنوبى مصر ، وعلى رأسهم بولس وأنطون وپاكوم . وإذا كان ما يقولون حقاً فإن حياتهم تكون ملأى بالمعجزات كحياة أقدس أئمتنا . إنهم قضوا أحيانا عشر سنوات كاملة دون أن يروا أحدا ، لكنهم سكنوا ليلا ونهاراً مع الشياطين وظلوا فى عذاب دائم من الأرواح الخبيثة ، يجدونها فى السرير ، ويجدونها على المائدة

ولا ملجأ منها . فإذا كان ذلك حقاً — أيها الوليّ المبجّل — فينبغى أن أعترف بأنه لم يعش أى شخص فى صحبة أسوأ من هذه الصحبة .

والمسيحيون العقلاء يرون كل هذه القصص أساطير رمزية طبيعية جداً يمكن أن نستغلها فى إدراك شقاء النوع الإنسانى .

وعبثاً نبحث فى الصحراء عن حالة من الاطمئنان : فالأهواء تتبعنا دائماً ، وشهواتنا التى توسوس بها الشياطين لاتفارقنا أبداً . وهذا المسخ للقلوب ، وهذه الأوهام التى تتسلّط على النفس ، وأشباح الفزع والأكاذيب الباطلة تتراءى لنا دائماً لتفتننا ، وتهاجمنا فى صيامنا ومسوحنا: أى تهجم علينا دائماً حتى فى نواحى قوّتنا .

أما أنا — أيها الوليّ المبجّل — فأعلم أن رسول الله قيّد الشيطان بالسلاسل ، وألقى به فى الهاوية ، وطهّر الأرض التى كان يبسط عليها سلطانه ، وجعلها جديرة بأن تقيم فيها الملائكة والنبيون .

من باريس فى ٩ من شعبان سنة ١٧١٥ .

الرسالة الرابعة والتسعون

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

لم أسمع مطلقاً أى كلام عن القانون العام دون أن يُبدأ فيه بالبحث بعناية عن منشأ المجتمعات : وذلك يثير السخرية فيما يبدو لى . ولو كان الناس لا يكوّنون المجتمعات مطلقاً ، أو يهجر بعضهم بعضاً ، ويفرّ بعضهم من بعض لوجب أن نسأل عن السبب ؛ لنعرف لماذا يظلون متفرقين ، لكنهم ينشئون العلاقات فيما بينهم ، فالولد يولد لدى أبيه ويظلّ هناك : هذا هو المجتمع ، وهذا سبب وجوده .

القانون العام معروف فى أوربا أكثر مما هو معروف فى آسيا ، ومع ذلك يمكن أن يقال : إن أهواء الملوك ، وصبر الشعوب ، وملق الكتاب يُفسدون هناك كل الأسس .

هذا القانون — كما هو الآن — علم يعلّم الأمراء إلى أى حد يستطيعون أن يطغوا على العدالة ، دون أن يسيئوا إلى مصالحهم . أىّ خطة للإرادة — يا رعدى — نقوّى بها ضمائرهم ، ونضع للعدالة نظاماً ، ونرسى لها قواعد . ونكوّن لها أسساً ، ونستخلص منها نتائج ؟!

إن الحكم المطلق لسلاطيننا العظماء ، الذى لا يقوم على قاعدة ،

لا ينتج أبداً إلا شناعات من هذا التصرّف المرذول الذى يريد أن يكسر العدالة مع صلابتها الشديدة .

يقال — يا رعدى — إن هناك نوعين من العدالة مختلفين أشد اختلاف : أحدهما هو الذى ينظم شئون الأفراد ، وهو الذى يقضى فيه القانون المدنى ، والآخر هو الذى يقضى فى الخلافات التى تنشأ بين شعب وشعب ، وهى التى يقضى فيها القانون العام : كأن القانون العام لم يكن هو نفسه قانوناً مدنياً . وفى الحق ليس ذلك لبلد خاص ، لكنه للدنيا كلها .

وفوق ذلك سأشرح لك أفكارى عن هذا الموضوع فى رسالة أخرى .

من باريس فى غرة ذى القعدة سنة ١٧١٦ .

الرسالة الخامسة والتسعون
من أوزبك إلى الشخص نفسه

على القضاة أن يحققوا العدل بين المواطنين ، وعلى كل شعب أن ينصف غيره من الشعوب من نفسه ، وفى هذا النوع الثانى من العدالة لا يمكن اتباع قاعدة أخرى غير التى تتبع فى الحالة الأولى .

وندر فى الخلاف بين شعب وشعب أن يُحتاج إلى شعب ثالث ليقضى بينهما ، لأن موضوعات النزاع فى أكثر الأحوال تكون دائماً واضحة ، ومن السهل أن يُفصل فيها ، لأن مصالح شعب تتميز عن مصالح شعب آخر ، ولا يحتاج من يفصل فيها إلا أن يحبّ العدالة فيجدها . ولا يمكن قط أن يتوقع الإنسان ما يحدث فى حالته الخاصة به .

وليس الحال كذلك فى الخلاف الذى ينشأ بين الأفراد ، فهم إذ يعيشون فى مجتمع ، فإن مصالحهم ممتزجة ، ومتشابكة أشد اشتباك ، وينشأ لذلك أنواع كثيرة من الخلاف تحتاج إلى طرف ثالث يكشف الحق الذى يحاول طمع طرفى الخصومة أن يطمسه .

ليس بين الحروب ما هو حق إلا حربان : أولاهما تلك التى تكون لصدّ عدوّ مغير ، وأخراهما تلك التى تكون لمساعدة حليف مهاجم .

وليس من العدالة فى شيء أن تقوم حرب من أجل خصومات خاصة بالملك ما لم يكن قد ارتكب هو أو الشعب ما يستحق من أجله

الموت : مثلا لا ينبغى أن يسن الملك الحرب لأنه لم يكرم التكريم الواجب له ، أو لأن تصرفات غير مقبولة حدثت لسفرائه ، أو اى شيء يشبه ذلك . ولا ينبغى لشخص أن يقتل من يرفض صدارته فى مجلس، أو أن يتقدم فى محفل ، والعقل يوجب أن يكون إعلان الحرب عملا مشروعا . ولتكون العقوبة على قدر الخطأ ينبغى أن نرى : هل من نعلن عليه الحرب يستحق الموت ؛ لأن إعلان الحرب ضد شخص ما معناه أننا نريد أن نعاقبه بالموت .

فى القانون العام نجد أقسى تصرف للعدالة هو تقرير الحرب مادامت غايتها دمار المجتمع .

إن الثارات فى المرتبة الثانية : إن لها قانوناً لا تستطيع المحاكم أن تمتنع عن مراعاته ؛ لتقيس العقوبة على قدر الجريمة .

ونوع ثالث من العدالة هو حرمان ملك من المزايا التى ينالها منا . والعقوبة فيها دائماً مناسبة للعدوان الذى ارتكب .

ورابع حالات العدالة — وهى التى يجب أن تكون أكثر شيوعا . هى رفض التحالف مع شعب يُشكى منه . وهذه عقوبة تتجاوب مع النفى الذى تقرره المحاكم ، والذى يقضى بإبعاد المذنبين عن المجتمع ، وعلى ذلك فالأمير الذى يوقع معاهدة لا نرتضيها نبعده من مجتمعنا ولا يصبح عضواً فيه .

إنه لايمكن أن يهان أمير إهانة أكبر من أن يُرفض التحالف معه ، ولا يشرفه شيء أعظم من عقد هذا التحالف . ولا شيء مطلقاً يشعر الناس بأنهم أمجد وأعظم وأنفع إلا أن يروا غيرهم يصغون دائما بانتباه إلى أحاديثهم .

ولترابط بيننا المعاهدة يجب أن تكون عادلة : ولذلك إذا تعاقد شعبان للعدوان على شعب ثالث فالمعاهدة غير شرعية ، ونقضها لا يعد جرماً .

وليس من الشرف أيضاً ولا من المروءة أن يتحالف ملك مع طاغية فإنه يحكى أن أحد ملوك مصر أنذر حليفه ملك ساموس أن يترك قسوته وبغيه وطالبه بأن يصلح سلوكه ، فلما لم يفعل ، أرسل إليه أنه ينقض ما بينهما من مودة وتحالف .

الفتح لا يعطى بنفسه حقاً . فإذا بقى الشعب المفتوحة بلاده يعيش كما هو . فهذا دليل على أن الفاتحين يريدون السلام ، وكأنهم بذلك يصلحون من خطئهم ، وإذا أهلك الشعب ، أو شتت فإن هذا دليل البغى .

إن معاهدات السلام تبلغ من القداسة مبلغاً عظيما عند الناس كأنها صوت الطبيعة تطالب بحقوقها . وتكون المعاهدات بأسرها شرعية ، إذا وضعت شروطها جديرة بأن يرعاها الطرفان المتعاقدان . وبدون ذلك فإن من كان من الشعبين يرى ضياعه فيها ، ومنع الدفاع الطبيعى فى حال السلام ، فإنه يدافع عن حقه بالحرب .

إن الطبيعة التى أوجدت الدرجات المختلفة من القوة والضعف بين الناس ، سوت فى أكثر الأحيان بين الضعف والقوة عند اليأس .

فى باريس فى ٤ من ذى القعدة سنة ١٧١٦ م

الرسالة السادسة والتسعون

من كبير الخصيان إلى أوزبك فى باريس

لقد أتى إلينا كثير من نساء الجنس الأصفر من مملكة فيساپور : واشتريت منهن واحدة لأخيك حاكم مازاندران الذى أرسل إلىّ منذ شهر طالبه السامى ومائة جنيه عثمانىّ .

لقد عرفت النساء إلى درجة أنهنّ لا يستطعن خداعى ، ولا تؤثر فى قلبى نظراتهن ولا تربكنى .

ولم أر جمالا بلغ من التنسيق والكمال ما بلغه جمالها ؛ إن بريق عينيها يشيع الحياة فى وجهها . وترسل لونا من الضياء تتضاءل أمامه كل فتنة للجراكسة .

لقد ساومنى فيها كبير خصيان تاجر إصفهانىّ ، لكنها كانت تتحامى نظراته فى ازدراء شديد ، وكأنها تبحث عن نظراتى لتقول لى : إن تاجرا خسيساً مثله غير جدير بأن يحوزها ، وأنها أعدت لزوج عظيم .

وأعترف لك أنى أحس فى قرارة نفسى سرورا خفيًّا حينما أفكر فى مفاتن هذه السيدة الجميلة ، وأتمثلها داخلة قصر أخيك ، ويسرنى أن أتكهّن بدهشة نسائه جميعا : وبالألم الذى يستحوذ على بعضهن ، والجزع الصامت — وهو أشد إيلاما — عند الأخريات . والسلوى الخبيثة عند من لم يعدلهن أمل فى شىء ما ، والطمع المثار عند اللائى لا يزلن يؤملن .

سأجوب أقطار مملكتنا لأغير بجرأة كل شيء في القصر . أيّ شهوات سأثير ! وأي مخاوف وآلام سأشيع !

وبالرغم من الاضطراب في الباطن ، فلن يكون الظاهر أهدأ حالا وستكون الثورات الكبرى دفينة في القلوب ، وستنتهي الأحزان . وتستمرّ المسرات ، ولن تكون الطاعة أقل إحكاماً ، ولا القوانين أقلّ صرامة ، وستظهر الدماثة اضطرارا ، بل ستبدد من خلال اليأس . ونلاحظ أنه كلما زاد عددالنساء تحت أعيننا قلّ ما يحدثنه لنا من ارتباك. وشدة احتياجهن إلى أن يكنّ معجبات يصعّب اتحادهن ، وكلما كثرت نماذج الخضوع كان ذلك كله قيوداً لهن .

إن بعضهن يراقبن دائما بانتباه شديد تصرفات بعض : فكأنهن على وفاق معنا ، إذ يعملن على أن يكنّ أكثر خضوعا ، ويقمن بما يقرب من نصف عملنا ، ويفتحن أعيننا حينما نغمضها ماذا أقول ؟ إنهنّ يثرن دائما السيّد ضد منافساتهن . ولا يرين كم يكنّ قريبات من أولئك اللاتي يعاقبن.

لكن كل هذا — يا مولاى العظيم — ليس شيئا في غيبة السيد . فماذا يمكن أن نصنع بهذا الشبح من السلطة التي لا تمارَس أبداً ممارسة كاملة ؟ إننا لا نكاد نمثل نصف سلطتك ، إننا لانستطيع أن نظهر إلا قسوة كريهة. أما أنت فإنك تلطّف الخوف بالرجاء ، وتكون أكثر خوفا وأنت تلاطف منك حينما تهدد .

عد إذن أيها المولى العظيم : عد إلى هذه الأماكن لتنشر فيها آيات سلطانك . تعال فامنع تعللات الزلل ، تعال سكّن الحبّ الذي يتذمر ، واجعل الواجب نفسه محبوبا ، وأخيرا تعال لتخفف عن خصيانك المخلصين حملا ينوءون به ما مرت الأيام .

من قصر أصفهان في ٨ من ذي الحجة سنة ١٧١٦ .

الرسالة السابعة والتسعون

من أوزبك إلى حسن درويش بجبل جارون

أيها الدرويش الحكيم ذو العقل المتأمل ، المتنىء بالمعارف الكثيرة : استمع لما أقصه عليك : هنا فلاسفة لا يصلون — فى الواقع — إلى ذروة التفكير الشرقى ، ولا ينجذبون إلى العرش المنير ليستمعوا إلى تسبيح الملائكة الذى يرن فى الملأ الأعلى ، ولا يدركون غضب الجبار ، وهم موكولون إلى أنفسهم ، محرومون من الألطاف الإلهية ، ويتبعون فى صمت نتائج التفكير الإنسانى .

وإنك لا تتصور إلى أى مدى يقودهم هذا القائد (١) . إنهم كشفوا الفضاء ، وشرحوا بالميكانيكا البسيطة نظام الهندسة الإلهية . وإن خالق الكون أعطى المادة حركتها ، فلم تعد ضرورة إلى شىء أكثر من هذا لينشأ هذا التنوع العجيب للآثار التى نراها فى العالم .

إن المشترعين العاديين يقدمون لنا قوانين لتنظيم المجتمع الإنسانى : قوانين تتعرض للتغيير كتغير العقول التى تقترحها ، والشعوب التى تتبعها . وهؤلاء الشرقيون لا يحدثوننا إلا عن القوانين العامة الثابتة الدائمة التى ترعى دون أى استثناء ، وتمضى فى نظام وثبات وسرعة لا حد لها فى هذه الأكوان العظيمة الفسيحة .

---

(١) يريد العقل البشرى .

وما تظن أن تكون هذه القوانين يا وليّ الله ؟ ستتخيل أنك داخل في الملأ الأعلى ، وسيملكك العجب من لطف التدبير وسموّه . وستأبى — قبل كل شيء — أن تفهم ، ولن يكون منك إلا الإعجاب .

ولكنك من فورك ستغير رأيك : فكل ما ترى من الأشياء لا يَبهرك مطلقاً بجلال زائف . بل إن البساطة جعلتها غير معروفة أمداً طويلا ، ولم يُعرف مدى سعتها وخصبها إلا بعد تفكير عميق : فأول حقيقة هي أن كل جسم يأخذ في رسم خط مستقيم ما لم يقابل عقبة تعترضه فتردّه . والثانية ، وما هي إلا متممة للأولى ، هي أن كل جسم يدور حول مركز يأخذ في البعد عنه ، لأنه كلما ابتعد الخط المرسوم عن المركز كان أقرب إلى الخط المستقيم .

هاك — أيها الدرويش السامى — مفتاح الطبيعة ! وهاك الأسس الخصبة التي تستنبط منها نتائج بعيدة المدى ، كما سأريك في رسالة خاصة .

إن معرفة خمس حقائق أو ستٍّ جعلت فلسفتهم ملأى بالمعجزات ، وجعلتهم يأتون بالعجائب والغرائب كالتي نرويها عن أنبيائنا عليهم السلام .

ولأنني أخيراً متأكد من أنه لا يوجد بين علمائنا من لا يرتبك إذا طولب بأن يزن في ميزان كل الهواء الذي يحيط بالأرض ، ويقيس جميع المياه التي تسقط كل سنة على سطحها . كما لا يوجد من بينهم من لا يفكر أكثر من أربع مرات قبل أن يقول : كم فرسخاً يقطعها الصوت في الساعة ، وكم من الزمن يحتاج إليه شعاع الشمس ليصل إلينا ، وكم

طول المسافة بيننا وبين زُحل ، وأى انحناء يكون به مركب شراعى أفضل ما يكون ؟ .

ولعل بعض الأتقياء إذا جَمَّل كتب هؤلاء الفلاسفة بكلمات سامية رفيعة ومزجوها بمجازات جريئة ، وكنايات لطيفة ، فإنه بذلك يعدّ كتاباً جميلا لا يعترف بالتفوق عليه إلا الكتاب المقدس .

من باريس فى ١٥ شعبان ١٧١٦ .

الرسالة الثامنة والتسعون

من أوزبك إلى إيبن في أزمير

ليس في العالم بلد يتقلب فيه الثراء كما يتقلب في هذا البلد ، ففي كل عشر سنوات تحدث ثورة تُسرع بالغنيّ إلى الفاقة ، وتطير بالفقير إلى أوج الغنى . فيعجب هذا لما آل إليه من الفقر ويسخط على القضاء ، ويعجب ذاك لما نال من غنى ويحمد حكمة القدر .

أن جباة الضرائب يسبحون في الأموال ، ومن بينهم قلة لا تشبع أبداً . يبدءون مهنتهم وهم في أشد حالات الفاقة ، يزدريهم الناس وهم فقراء كما يزدرون الوحل ، فإذا أصبحوا أغنياء نالوا من الناس حظاً من التقدير ، ثم لا يقصّرون في أي شيء ينالون به نصيباً من الاحترام .

وهم الآن من أجل ذلك في أحرج المواقف فقد أنشئت حديثاً غرفة المحاسبة المسماة (دار العدالة) وتوشك أن تسلبهم أموالهم . وهم لا يستطيعون أن يراوغوا أو يخفوا قيمة ثروتهم ، لأنهم مضطرون إلى أن يعلنوا الحقيقة أمام العدالة خوفاً على حياتهم . وبذلك صاروا في مأزق حرج ، فإما أن يختاروا المال ، وإما أن يؤثروا الحياة .

ولتتمّ مأساتهم أتيح لهم وزير[1] عرف بخفة روحه شرّفهم بدعاباته ،

(١) هو : أدريان موريس ، كونت دايين ، ودوق نواى ، ماريشال فرنسى كان رئيسا للمجلس المالى من ١٥ سبتمبر سنة ١٧١٥ إلى يناير سنة ١٧١٨ . المراجع

وتهكم بكل ما يدور فى قاعة المحاكمة من مداولات ، ولكنا لا نجد دائماً مثل هذا الوزير الذى يعرف كيف يضحك الشعب ، وينبغى أن نغتبط بما قام به .

وطبقة الوصفاء لها اعتبار فى فرنسا أكثر مما نجد لها فى أى بلد آخر إنها مدرسة لكبار السادة ، إنها تملأ فراغ الطبقات الأخرى وأفرادها حلوا محل أولئك الكبار التعسين من حكام أفلسوا ، أو سادة ماتوا فى سعار الحرب ، وإذا عجزوا عن سد الفراغ بأنفسهم أنعشوا البيوت العظيمة بأن يزوجوا بناتهم فيها ، فيكن بها أشبه بنوع من السماد الذى يخصب الأرض الجبلية القاحلة .

يا إيبن ! إنى أرى الحكمة الإلهية تحير الألباب بطريقتها فى توزيع الثروات ، فلو أنها لم تمنحها إلا الخيرين ، لما ميز الناس بينها وبين الفضيلة ، ولم يشعروا بالهوان عند الفقر . ولكن عندما يتأمل المتأمل أى الناس انهالت عليهم الثروات فإنهم لطول ازدرائهم للأثرياء سينتهى بهم الأمر إلى احتقار الثروات .

فى باريس فى ٢٦ من شهر المحرم سنة ١٧١٧ .

الرسالة التاسعة والتسعون

من ربكا إلى رعدى فى فينيس

أرى نزوات التجديد عند الفرنسيين تثير العجب ، لقد نسوا كيف كان زيّهم فى هـذا الصيف ، ويجهلون ما عساه يكون فى الشتاء . ولا يستطيع أحد أن يتصوّر كم يتكلف تغيّر الزى زوجا يحرص على أن تكون زوجته مسايرة لذوق العصر ، ماذا يعنينى على أن أصف لك بدقة زيّهم وزينتهم فإن زياً جديداً يظهر يهدم كل ما أبنى . وقبل أن تصل إليك رسالتى قد يتغير الزى كما يتغير العمال .

إن امرأة غادرت باريس لتقيم ستة أشهر فى الريف ثم عادت فى زيها العتيق كأنها قضت هناك ثلاثين عاماً . فلم يتبين ابنها ملامحها لأن زيها بدا له غريبا . فظنها إحدى الأمريكيات . أو أنها صورة عبر بها رسام كما يشاء عن خيال من أخيلته .

أما تصفيف الشعر فأحياناً يصفّ إلى علو هائل ، ثم تدعو ثورة التجديد فجأة إلى أن يصفف نازلا ، وفى الحالة الأولى يكون وجه المرأة مكان وسطها ، وفى الحالة الثانية تحتل القدمان هذا المكان ، والكعبان يرتفعان حتى يجعلا المرأة كالمعلقة فى الهواء .

ومن يستطيع أن يصدق أن المهندسين المعماريين اضطروا فى كثير من الأحيان إلى أن يرفعوا الأبواب أو يخفضوها أو يوسعوها تبعاً لحلية

النساء التى تتطلب منهم دائماً التغيير ، وإخضاع قواعد فنهم لهذه النزوات؟

ويرى المرء أحياناً وجهاً مزيناً بعدد من النقاط الملونة ثم لا يراها فى اليوم التالى . لقد كان حسن المرأة قديماً بجمال قدها ، وصفاء أسنانها ، أما الآن فلا اعتبار لذلك . ومهما وجه إلى هذا الشعب المتقلب الأحوال من تهكم لاذع . فإن الفتيات الآن يتزوجن على طريقة تخالف الطريقة التى تزوج عليها أمهاتهن .

إن من أنماط الحياة وأسلوبها ما يشبه تغير الأزياء تماما . فالفرنسيون يغيرون أخلاقهم تبعاً لعهود ملوكهم . والملك نفسه يستطيع أن يجعل الشعب جاداً إذا أراد له ذلك بأن يؤثر بسلوكه فى حاشيته وهذه تؤثر فى مدينته، ومن المدينة ينتقل الأثر إلى المقاطعات ، فنفس الملك قالب تشكل به أنفس الرعية .

فى باريس فى ٨ من صفر سنة ١٧١٧ .

الرسالة المائة

من ريكا إلى الشخص نفسه

لقد حدثتك بالأمس عن تقلب الفرنسيين العجيب فى أزيائهم[1] ، ومع ذلك فإن تعصبهم لأزيائهم غير معقول : إنه القاعدة التى يحكمون بها على كل ما يجرى عند غيرهم من الأمم ، وكل ما يخطر ببالهم هو أن كل ما هو غريب عنهم مثير للسخرية ، وأعترف لك أنى لا أدرى مطلقاً كيف أوفق بين ولعهم الجنونى بأزيائهم ، وبين تقلبهم الذى يدعوهم إلى تغييرها كل يوم .

وحين أقول لك : إنهم يحقرون كل ما هو أجنبى ، فإنى لا أكلمك إلا عن التوافه ؛ لأنهم فى الأمور الهامة يبدون غير واثقين بأنفسهم لدرجة مرذولة . ويعترفون لك عن طيب خاطر أن الشعوب الأخرى أعقل منهم ، بشرط أن يسلم لهم بأنهم آنق فى ملبسهم . إنهم يودون أن يخضعوا طواعية لقوانين شعب منافس ، إذا أتيح لصانعى الشعور المستعارة من الفرنسيين أن يقرروا كمشترعين شكل الشعور التى تغطى الرءوس فى الأمم الأجنبية . ولا شىء يبدو عندهم جميلا كأن يسود ذوق طهاتهم من الشمال إلى الجنوب ، وأن ينتشر تنسيق الشعر على طريقتهم فى جميع محال التجميل فى أوربا .

---

(١) أزياء : جمع زى ، والزى بكسر الزاى : الهيئة . وهو ما يقابل الموده (La mode).

فلا يهمهم ما دامت هذه المزايا العظيمة لهم أن يكون التفكير السليم صادرا إليهم من غيرهم ، ولا بأس عندهم من أن يأخذوا عن جيرانهم كل ما يتصل بالحكم السياسى والمدنى .

من يستطيع أن يتصور أن مملكة ، هى أقدم ممالك أوربا وأقواها ، تحكم — منذ أكثر من عشرة قرون — بقوانين لم تصنع لها ؟ إذا كان الفرنسيون قد غُزُوا فإن ذلك لا يصعب فهمه ، لكنهم هم الغزاة .

إنهم أهملوا القوانين القديمة التى شرعها ملوكهم الأوائل فى الجمعيات العامة للأمة . والشيء الغريب أن القوانين الرومانية التى حلت محلها ، وضع بعضها ، وحرر بعضها الآخر أباطرة معاصرون لمشترعيهم .

وليكون الاقتباس كاملا ، وليكون الصواب آتيا لهم من الخارج فقد اقتبسوا جميع الدساتير البابوية ، واتخذوا منها جزءاً جديداً من قانونهم : وهذا نوع جديد من العبودية .

وحقيقة أنهم حرروا فى الأزمنة الأخيرة بعض القوانين لتنظيم المدن والمقاطعات ، لكنها تكاد تكون مقتبسة كلها من القانون الرومانى .

هذه الوفرة من القوانين المقتبسة ، والتى يمكن أن يقال إنها تأقلمت ، كانت كثيرة جداً لدرجة أرهقت العدالة والقضاة . لكن هذه المجلدات من القانون ليست شيئا بجنب هذا الجيش الرهيب من المؤلفين والشراح والجامعين ، الذين هم أناس ضعفاء لقلة حظهم من العدالة ومن الفطنة ، أقوياء بعددهم العظيم .

وليس هذا كل ما فى الأمر : فقد أدخلت هذه القوانين الأجنبية صيغاً يخزى لها العقل الإنسانى . وأصبح من العسير أن نقرر إذا كانت الصيغة[1] أبلغ فساداً من الناحية الفقهية ، أم من الناحية الطبية : أى لا ندرى متى تكون أشد ضرراً : أتحت ثوب المفتى ، أم تحت قبعة الطبيب العريضة ، أى إذا جلبت الخراب للناس فى الحال الأولى ، أم إذا أزهقت أرواحهم فى الحال الثانية ؟

من باريس فى ١٧ من صفر سنة ١٧١٧ .

---

(١) الصيغة : اصطلاح يطلق على عقد زواج المتعة .

الرسالة الأولى بعد المائة

من أوزبك إلى ......

يتحدثون هنا دائماً عن الدستور : لقد دخلت أمس بيتاً رأيت فيه أول ما رأيت رجلا بديناً ، قرمزيّ اللون ، يقول بصوت جهورى : « لقد قدمت بيانى ، ولن أجيب عن أقوالكم ، ولكن اقرءوا هذا البيان فسترون فيه أننى بددت جميع شكوككم ، ثم قال وهو يضع يده على جبهته : لقد تطلب إعداده منى كثيراً من العرق ، واحتجت فيه إلى جميع ما أعلم ، وإلى قراءة كثير من المؤلفات اللاتينية » . فقال أحد الحاضرين: أنا أعتقد ذلك ، لأنه بيان جميل ، وإنى أتحدى هذا القس الجزويتى الذى يأتى كثيراً لزيارتكم — أن يعد بياناً خيراً منه . ثم قال : هلموا اقرءوه فستجدون أنفسكم بقراءته فى ربع ساعة ، أكثر علماً بهذه المواد مما لو حدثتكم عنها ساعتين . وهكذا تحامى الدخول فى مناقشة ، أو أن ينال أحد من غروره وزهوه . وعندما اشتد الضغط عليه اضطر إلى الخروج من استحكاماته ، وبدأ يقص حماقات بلهجة لاهوتية معتمداً على تابع له روج لها لتقبل منه بكل احترام . ولما نقض له رجلان من الحاضرين بعض المبادىء . شرع يقول : «هذا مؤكد ، وهكذا قضينا ، ونحن قضاة لا ننقض أحكامنا » . فقلت حينئذ : أأنتم قضاة لا راد لقضائكم فأجاب : ألا ترى أن روح القديس يهدينا ؟ فقلت : هذه هى السعادة ؟ لأن الحال التى تكلمت بها يومنا هذا تجعلنى أعتقد أنك فى أمس الحاجة إلى أن تكون مهذباً .

من باريس فى ١٨ من ربيع الأول سنة ١٧١٧ .

الرسالة الثانية بعد المائة

من أوزبك إلى إيبن فى أزمير

إن أقوى الدول فى أوربا دولة الأمبراطور ، ودول فرنسا وأسبانيا وإنجلترا . أما إيطاليا وجزء كبير من ألمانيا فمقسمة إلى عدد لا حصر له من دويلات ، أمراؤها فى الحقيقة شهداء للسلطان .

إن سلاطيننا الأمجاد عندهم من النساء أكثر من رعايا كثير من هؤلاء الأمراء . وإن أمراء إيطاليا الذين لا تربطهم وحدة تجمعهم أولى بالرثاء ، لأن دويلاتهم مفتوحة كاستراحات تضطر إلى إيواء أول قادم ، فهى لذلك مضطرة إلى التحالف مع كبار الملوك ويعربون لهم عن فزعهم أكثر مما يعربون عن صداقتهم .

إن أكثر حكومات أوربا ملكية ، أو هكذا تسمى : لأنى لا أدرى ، هل هناك قط ملكية حقيقية ؟ وقلما يمكن أن تظل كذلك أمداً طويلا .

إن الملكية حكم صارم ينحط دائما إلى حكم استبدادى ، يتحول إلى حكم جمهورى : فالسلطة لا يمكن مطلقا أن تكون قسمة متساوية بين الشعب والملك ، ومن الصعب جداً الاحتفاظ بالتوازن بينهما ، ويترتب على ذلك أن تنقص السلطة من جانب إذا زادت فى الجانب الآخر ، وترجح عادة كفة الملك ، لأنه على رأس الجيش .

وهكذا كانت سلطة ملوك أوربا عظيمة جداً . ويمكن أن نقول : إنها كما يريدون أن تكون ، لكنهم لا يستعملونها إلى مدى بعيد كما يفعل سلاطيننا : لأنهم لا يريدون أولا أن يصدموا عادات الشعب وديانته ، وثانياً لأنه ليس من مصلحتهم أن يتمادوا فى نفوذهم إلى أبعد مدى .

لا شىء يقرّب الملوك من حال كحال رعاياهم إلا هذه السلطة الواسعة التى يمارسونها فى حكمهم ، ولا شىء غيرها يجعلهم عرضة لتقلبات الزمان ونكباته .

إن عادة إعـــدام من لا يروق الملوك لأيسر الأسباب — تخلّ بالتناسب بين الجريمة والعقاب، وهذا التناسب هو روح الدّول ، وتناسق الأمبراطوريات . وهذا التناسب المرعىّ بدقة عند الأمراء المسيحيين جعلهم أفضل كثيراً من سلاطيننا .

إن الفارسىّ الذى ينتهى به الأمر : لغفلة أو لسوء حظ إلى أن يسخط عليه الملك — موته محقق : فأقل خطأ ، أو أيسر نزوة تقوده إلى هذا المصير المحتوم غير أنه لو حاول اغتيال الملك ، أو أراد أن يسلم مواقعه للأعداء فإن الأمر ينتهى به أيضاً إلى الموت ، فهو إذاً لا يتعرض فى الحال الثانية لخطر أفدح من الخطر الذى يتعرض له فى الحالة الأولى . وما دام يرى الموت محققاً عند أدنى سخط ، وليس أسوأ من الموت ، فإنه يتجه بطبيعة الحال إلى إقلاق الدولة ، وإلى التآمر على الملك ، وذلك كل ما بقى له من مخرج .

وليست حال الكبراء فى أوربا كذلك : إذ لا يحرمهم سخط الملك إلا الحظوة والعطف . يخرجون من البلاط ، ولا يفكرون إلا فى أن يتمتعوا بحياة هادئة ، وبما ينالون من مزايا بنسبهم الرفيع . وبما أنه لا يقضى عليهم بالموت إلا للعيب فى الذات الملكية فإنهم يتحامونه، لأنهم

يقدّرون فداحة الخسران ، وضآلة الكسب من ورائه ، لذلك قلت فيها الثورات ، واغتيال الملوك .

ومع تمتع ملوكنا بسلطة لا حدّ لها فإنهم لا يستطيعون أن يعيشوا يوما واحداً إذا لم يتخذوا من أسباب الاحتياط ما يؤمّن حياتهم ، وإذا لم يجندوا إلى جانبهم عدداً لا يحصى من الجنود ليطغوا بهم على سائر رعاياهم ، ولو لا ذلك فإن سلطانهم لا يبقى شهرا واحدا .

ومنذ أربعة قرون أو خمسة اتخذ ملك[1] فرنسا حرساً له خلافا للمألوف فى هذه الأزمنة — ليحرس نفسه من السفاكين الذين أرسلهم لقتله أمير صغير من أمراء آسيا . وقد كان الملوك إلى هذا الوقت يعيشون هادئين بين رعاياهم كالآباء بين أبنائهم .

وليس مألوفا أن يسمح ملوك فرنسا لأنفسهم أن يعدموا أحد رعاياهم كما يفعل سلاطيننا ، بل هم على عكس ذلك مع الرعية ، إذ يعفون عن جميع المجرمين ؛ ويكفى لسعادة حظ محكوم عليه بالإعدام أن يرى وجه ملكه العظيم ليظفر بالحياة . مثل هؤلاء الملوك كالشمس تشيع الحرارة والحياة فى كل مكان .

من باريس فى ٨ من ربيع الآخر سنة ١٧١٧ .

---

(١) هو فيليب أوجست ، هدده جواسيس فيودى لامونتانى (Vieux de la montagne) المراجع

الرسالة الثالثة بعد المائة

من أوزبك إلى شخص معين

إلحاقاً بالفكرة التى تضمنتها رسالتى الأخيرة أعرض عليك ما قاله لى بالأمس أوربى على حظ من العقل ، أعرضه ولا أكاد أزيد أو أنقص منه شيئا :

« إن أسوأ قرار اتخذه ملوك آسيا ، وساروا عليه : هو أن يحجبوا أنفسهم . وقد أرادوا بذلك أن يصيروا أجل من حقيقتهم ؛ لكنهم بذلك جعلوا الناس يجلون الملكية لا الملك ، وتتعلق نفوسهم بأى عرش ، لا بملك معين .

إن هذا السلطان الخفى الذى يحكم لا يتغير فى نظر الشعب ؛ فبالرغم من أن عشرة من الملوك تتابعوا فى الحكم ، ولم تعرف إلا أسماؤهم ، وقتلوا واحدا بعد الآخر — لم يحس الشعب أى تغيير كما لو كان قد حكم بالأرواح ، روحاً بعد روح .

ولو أن البغيض الذى قتل ملكنا العظيم : هنرى الرابع ، وجه ضربته هذه إلى ملك من ملوك الهند يحمل الخاتم الملكى ، ويملك كنزاً عظيما ظن أنه قد جمعه لنفسه لاستولى هذا القاتل فى هدوء على مقاليد الحكم وما استطاع إنسان مطلقاً أن يفكر فى مطالبته بالملك وأسرته وأولاده .

ويثير العجب أنه لا يكاد يحدث تغيير ما فى حكم ملوك الشرق . ومن أين يأتى هذا التغيير إذا كان الحكم جائراً رهيبا .

إن التغيير لا يمكن أن يحدثه إلا الملك أو الشعب . والملوك لا يهمهم أن يحدثوه : لأنهم فى أوج سلطانهم يتمتعون بسلطة مطلقة ، وإذا غيروا شيئا ما ، فلا يمكن أن يكون إلا بفقد شىء من نفوذهم .

أما الرعايا فإذا اتخذ أحدهم قرارا فلا يدرى كيف ينفذه على الدولة ، وعليه أن يرعى سلطانها الرهيب المجتمع القوى دائما : كما يرعى حاجته إلى الزمن كحاجته إلى الوسائل ، فلا يجد — إذاً — إلا أن يتجه إلى مصدر السلطة ، ولا يحتاج فى ذلك إلا إلى ذراع واحدة ، وبرهة يسيرة . ثم يرتقى الجانى إلى العرش ، ويهبط الملك ويتم تحت قدميه يلفظ أنفاسه الأخيرة .

إن الساخط فى أوربا يفكر فى أن يشترك فى بعض المؤامرات السرية أو يلجأ إلى الأعداء ، أو يستولى على بعض المواقع ، أو يثير بين الشعب إشاعات لا طائل تحتها ، ولكن الساخط فى آسيا يتجه مباشرة نحو الملك فيخيف ، ويضرب ، ويصرع ، ويمحو فى لحظة ما هو قائم من الأوضاع حتى التفكير فى العبـــد والسيد ، ويصبح مغتصب العرش فى برهة مغتصباً وشرعيًّا .

ما أشقى الملك إذا لم يكن له إلا رأس واحد ! ويبدو أنه لم يجمع فيه كل سلطته إلا ليدل أول طامع فى العرش إلى المكان الذى يجدها فيه مجتمعة ! »

من باريس فى ١٧ من ربيع الآخر سنة ١٧١٧ .

الرسالة الرابعة بعد المائة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

ليس جميع شعوب أوربا على درجة سواء فى الخضوع لملوكهم : فمثلا طبع مزاج الإنجليز القلق لا يدع مطلقاً لملكهم وقتاً لاستقرار سلطته . والخضوع والطاعة من الخلال التى يقل تأثرهم بها . ويقولون فوق ذلك أشياء ممعنة فى الغرابة . ففى رأيهم لا توجد إلا رابطة واحدة يمكن أن تربط بين الناس : تلك هى رابطة العرفان بالجميل : فالزوج والزوجة والأب والولد لا يؤلف بينهم إلا المحبة المتبادلة والمعروف المتبادل . وهذه البواعث المختلفة من العرفان بالجميل هى الأساس الذى تقوم عليه جميع الممالك ، وجميع المجتمعات .

فإذا حاد الملك عن إسعاد رعاياه فى حياتهم ، ورغب فى أن يرهقهم ويبيدهم فإن معين الطاعة ينضب ؛ فلا شىء يربطه بهم ، ولا شىء يربطهم به ، ويعودون إلى حريتهم الطبيعية . ويعتمدون فى ذلك على أن كل سلطة لا حدّ لها ليست شرعية ، لأنها لا يمكن أن تقوم على أصل شرعىّ . » وقالوا : إننا لا يمكن أن نعطى غيرنا سلطة علينا أكبر من السلطة التى لنا على أنفسنا : ونحن لا نملك سلطة غير محدودة على أنفسنا ، فنحن مثلا لا نملك انتزاع أرواحنا : فليس إذن لأحد على وجه الأرض مثل هذه السلطة . »

إن جريمة العيب فى الذات الملكية ، ليست شيئاً يختلف فى نظرهم عن الجريمة التى يرتكبها الأضعف ضد الأقوى . بأن يخالفه بأى نوع من أنواع المخالفة .

ولهذا فإن الشعب الإنجليزى الذى تجلّى أقوى ما يكون ضدّ أحد ملوكه قرّر أن جريمة العيب فى الذات الملكية ضد أى ملك هى أن يحارب رعيته . وهم إذن على حق راسخ حينما يقولون : إن نص دستورهم الذى يأمر بالخضوع للسلطات ليس من الصعوبة بمكان أن يتبع ذلك ، لأنه ليس مستحيلا عليهم أن يراعوه . وإكراههم على الخضوع للحاكم ليس لأنه أفضلهم ، بل لأنه أقواهم .

يقول الإنجليز : إن أحد ملوكهم حينما انتصر ، وأسر أميراً كان ينازعه التاج ، أراد أن يوبخه على عدم ولائه وخيانته ، فقال له الأمير المغلوب على أمره : « إن هى إلا لحظة كانت القاضية بيننا : أينا هو الخائن (1) » .

إن مغتصباً رمى بالتمرّد كل الذين لم يسيئوا إلى وطنهم مثله ، ولأنه يعتقد أنه ليس هنالك قانون حيث لا يوجد قضاة ؛ فإنه يحترم نزوات الحظ والمصادقة كأنها أوامر إلهية .

من باريس فى ٢٠ من ربيع الآخر سنة ١٧١٧ .

---

(1) يريد لو أن المغلوب على أمره انتصر لانقلب الوضع .

المراجع

الرسالة الخامسة بعد المائة

من إرعدى إلى أوزبك فى باريس

لقد حدثتني كثيراً — فى إحدى رسائلك — عن العلوم ، وفنون الثقافة التى تمارس فى الغرب . وستنظر إلىّ كأنى رجل همجىّ ، ولكنى لا أدرى هل ربح الناس من العلوم ما يعوّضهم عما جناه عليهم سوء استعمالها على مرّ الأيام ؟

لقد سمعتهم يقولون : إن اختراع القنابل وحده سلب جميع شعوب أوربا حريتها . وأصبح الملوك لا يطمئنون إلى حراسة البرجوازيين لمواقعهم، لأنهم عند أول قنبلة يتخلون عن مواقعهم متعللين بالانضمام إلى الجيوش النظامية ، ويكون نتيجة لذلك أن يفقد الملوك رعاياهم .

وأنت تعرف — يا أوزبك — أنه منذ اختراع البارود لم يعد مكان ما منيعا ؛ أى أنه — يا أوزبك — لم يعد معقل على وجه الأرض يحمى من الظلم والعنف .

وإنى اضطرب كلما توقعت أن يهتدى العلماء إلى سر يقدم للعالم أيسر الوسائل لإبادة البشر ، وتدمير الشعوب ، والقضاء على جميع الأمم .

لقد قرأت التاريخ ؛ فتأمل فيه جيداً تجد أكثر الملكيات لم تقم إلا على الجهل بالفنون ، ولم تندثر إلا بعد أن صار لها حظ وافر من الثقافة . والإمبراطورية الفارسية القديمة تعطينا مثلا واضحاً لذلك .

ما أقمتُ فى أوربا طويلا ، ولكنى استمعت إلى قوم عقلاء يتحدثون عن الخراب الذى تحدثه الكيمياء . ويبدو أنها الآفة الرابعة التى تهلك البشر ، وتدمرهم شيئاً فشيئاً فى دأب واستمرار فى حين أن الحرب ، والوباء ، والمجاعة تفنيهم جملة وإن كان ذلك على فترات .

ماذا استفدنا من اختراع البوصلة ، ومن الكشف عن شعوب كثيرة ؟ لقد سرت إلينا أمراضهم ، ولم ننتفع بأموالهم . لقد صار الذهب والفضة باتفاق عام ثمناً لجميع السلع وتقدير قيمتها،لأن هذين المعدنين كانا نادرين ولا ينتفع بهما فى أغراض أخرى ، فماذا كان الضرر لو اخترنا معدنا أكثر وجودا لنقوم به السلع فنستطيع أن نجد نوعين أو ثلاثا من العملة ؟ ألم يكن ذلك مريحاً ؟

إن الاختراع أضر بالبلاد التى اخترعته ، والشعوب كلها لحقها الدمار ، والذين نجوا من الموت رُدوا إلى عبودية قاسية يضطرب المسلمون لمجرد ذكرها .

ما أسعد أطفال المسلمين بجهالتهم ! وما أهنأهم ببساطتهم الحبيبة التى رضى عنها نبينا الكريم ! إنك تذكرنى دائماً بسلامة الفطرة عند أسلافنا السابقين ، وبالاطمئنان الذى كان يعمر قلوب آبائنا الأولين .

من فينسيا فى ٢ من رمضان سنة ١٧١٧ .

الرسالة السادسة بعد المائة

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

أما إنك لا تفكر فيما تقول أو تفعل خيراً مما تفكر . لقد هجرت وطنك لتتعلم ، وأنت تحتقر كل تعليم . جئت لتكوّن نفسك فى بلد يعلم الفنون الجميلة ، وأنت تراها ضارّة . ألم تقل لى ذلك يا رعدى ؟ إننى متفق وإياك فى الرأى ، أكثر من اتفاقك ونفسك .

هل فكرت مليًّا فى الحال الهمجية التعسة التى جرّنا إليها ضياع الفنون منا ؟ ليس من الضرورىّ أن تتصوّرها ، لأنه من الممكن أن تراها ؛ فلا يزال على الأرض شعوب يمكن أن يعيش فيها مكرّما فرد نال شيئاً من التعليم ، وسيكون فيها أقرب ما يكون من مستوى السكان الآخرين ، ولن يرى قط غريباً فى تفكيره ، ولا شاذاً فى سلوكه ، وسيمضى فى حياته كسواه ، بل إنه سيمتاز بظرفه .

ستقول : إن أكثر مؤسسى الإمبراطوريات كانوا يجهلون الفنون . أنا لا أنفى أن الشعوب الهمجية تستطيع أن تنطلق كالسيول الجارفة ، وتنتشر فى الأرض ، وتطغى بجيوشها المتوحشة على ممالك أرقى منها حضارة . ولكن ينبغى أن تراعى أن الشعوب الهمجية المنتصرة تتعلم الفنون أو يتركون الشعوب المغلوبة تمارسها ، ولولا ذلك لذهب سلطانها كما تذهب ضوضاء الرعد ، وجلبة العواصف .

تقول إنك تخشى أن تخترع وسيلة للدمار أقسى من الوسائل التى

تستعمل الآن . لا ؛ لأنه إذا ظهر مخترع مشئوم فمن حق الناس تحريمه على الفور ، وإجماع الشعوب على مقاومته بماسيقبره . وليس من مصلحة الملوك أن يفتحوا البلاد بمثل هذه الوسائل المدمرة ، لأنهم يريدون شعوباً ، لا أرضاً خراباً .

إنك تشكو من اختراع البارود والقنابل ، وتعجب لأنه لم يعد على الأرض مكان منيع : أى أنك تجد مما يثير العجب أن الحروب الآن تنتهى أسرع مما كانت تنتهى فى الماضى .

ولا بد أنك لاحظت وأنت تقرأ التاريخ أنه منذ اختراع البارود صارت المعارك أقل إراقة للدماء مما كانت من قبل ، لأنه فى القليل جداً أن يلتحم الجيشان .

وهل إذا وُجد الفنّ ضاراً فى بعض الأحوال الخاصة تحتم علينا أن نهمله ؟ أتظن يا رعدى أن دين نبينا صلى الله عليه وسلم الذى نزل عليه من السماء دين ضارّ ، لأنه سيستغلّ فى يوم من الأيام فى خزى الغادرين من المسيحيين ؟

أنت تعتقد أن الفنون تُـترِف الشعوب ، وأن الترف سبب لسقوط الإمبراطوريات .

تقول ذلك عن دمار الإمبراطوريات الفارسية القديمة ، التى كانت نتيجة لترفها ، ولكن ليس هذا المثل لازماً فى جميع الحالات ؛ لأن الإغريق الذين قهروهم عنوا بالفنون عناية أتم وأوفى من عنايتهم .

وإذا قيل إن الفنون تجعل الرجال مخنثين ، فينبغى ألا يقال ذلك على

الأقل عن الذين يمارسونها لأنهم ليسوا فى فراغ ، والفراغ من جميع المفاسد أقتلها لمعانى القوة فى الرجال .

وهذه حال لا تنطبق إلا على الذين يجدون فى الفنون متعة . ولكن الذين يتمتعون بما فى الفن من متع ، كما هى الحال فى البلاد المتحضرة مضطرون إلى أن يمارسوا فناً آخر يعيشون منه ، إلا أن يرضوا بأن ينحدروا إلى حال مزرية من الفقر ، وعلى ذلك فلا تلازم بين الفراغ والرخاوة وبين الفنون .

ربما كانت باريس أكثر مدن الدنيا فتنة وإغراء . إذ تهيؤ اللذات فيها أمتع ما تكون ، ولكنها مع ذلك يعيش الإنسان فيها حياة أقسى من الحياة فى أى مكان ، فمعيشة منعّمة لفرد واحد تتطلب أن يعمل مائة رجل آخرين دون كلل . وإذا وضعت امرأة فى رأسها أن تظهر فى مجتمع ما بزينة ترضاها فإنه يجب منذ هذه اللحظة ألا ينام خمسون عاملا ، وألا يجدوا فراغاً يأكلون فيه أو يشربون : إنها أمرت فأطيعت أسرع مما يُطاع ملكنا ، ذلك لأن سلطان الكسب أكبر سلطان على الأرض .

ذلك الحماس للعمل ، وتلك الرغبة الملحّة فى الثراء ، تسرى من طبقة إلى أخرى : من العمال إلى العظماء . ولا يرضى أحد أن يكون أفقر من ذلك الذى يليه فى حالة مباشرة . وقد تجد فى باريس رجلا عنده ما يكفيه للعيش إلى يوم الدين ، ومع ذلك يعمل دائباً فى العمل ، ويخاطر فيختصر أيام عمره ليجمع — كما يقول — ما يعيش به .

وهذا التفكير يستحوذ على الشعب كله ، فلا تجد عنده إلا العمل والحرفة : فأين إذن هذا الشعب المخنّث الذى تتحدث عنه كثيراً ؟

وافرض يا رعدى أن مملكة ما لم تسمح إلا بالفنون الضرورية جداً

لفلاحة الأرض ، وهى مع ذلك فنون شتى ، وأنها نفت كل الفنون الخاصة باللذات واللهو ، فإنى أؤكد لك أن هذه الدولة ستكون أتعس دولة فى الدنيا .

وإذا كان لدى السكان من الاحتمال ما يتجاوز به عن كثير من الأشياء التى يحتاج إليها لسدّ حاجاته ؛ فإن الشعب يتدهور يوماً فيوماً ، ويصير إلى حال من الضعف ، بحيث تستطيع أى أمة لها حظ من القوة أن تغزوها .

وأستطيع هنا أن أدخل فى تفصيل مسهب ، وأريك أن دخل الأفراد يكاد ينقطع نهائياً ، وبالتالى تنقطع موارد الملك . وتكاد تنعدم الصلة بين مواهب المواطنين ، وينعدم بتاتاً الرواج المالى ، ونموّ الدخل الذى هو ثمرة اتصال الفنون بعضها ببعض ، ولا يستفيد كل إنسان إلا من زراعة أرضه ، بل إنه لا يستخرج من الأرض إلا ما هو ضرورىّ ليمسك عليه حياته فلا يموت جوعاً . وبما أن ذلك لا يحقق إلا جزءاً من مائة من دخل دولة ما فسيقل سكانها حتما بنسبة نقص دخلها ، أى لن يبقى فيهم إلا جزء من مائة .

أنظر مليًّا إلى أى حد يبلغ كسب الصناعة . إن رأس المال فيها لا يربح فى السنة إلا جزءاً من عشرين جزءاً (٥٪) . ولكن بدينار ألوان ، يصنع رسامٌ لوحةً بخمسين دينارا . ويمكن أن يقال مثل ذلك فى الصائغ ، وعمال الصدف ، والحرير ، وفى أرباب الحرف جميعاً .

والنتيجة الحتمية التى تستخلص مما سبق يا رعدى ، أن الملك إذا أراد أن يكون عظيما فعليه أن يمهد لشعبه حياة منعمة ، ويعمل جاهدا ليحقق له الكماليات كما يعنى بأن يحقق له ضرورات الحياة .

من باريس فى ١٤ من شوال سنة ١٧١٧ .

الرسالة السابعة بعد المائة

من ريكا إلى ايبن في أزمير

لقد رأيت الملك الشاب : ورأيت حياته ثمينة عند رعاياه ، وليست أقل من ذلك قيمة عند أوربا كلها نظرا إلى ما يمكن أن يحدثه موته من اضطرابات خطيرة . لكن الملوك مثل الآلهة ، ينبغي أن يعتقد الناس ـ وهم أحياء ـ أنهم لا يموتون . إنه جليل المحيّا ، لكنه جذاب . وإن تربيته الصالحة تعاونت مع استعداده الطيب على تكوينه ، فدلت مخايله على أنه سيصبح ملكا عظيما .

ويقال : إنه لا يمكن الحكم على مسلك ملوك الغرب إلا بعد اجتياز اختبارين عظيمين : النساء ورجال الدين . وكلا الطرفين يعمل على أن يستولى على نفس الملك وهو من أجل ذلك سيخوض معارك خطيرة ؛ لأنه في أثناء حكم الملك — وهو شاب — تتصارع هاتان القوتان دائما ، لكنهما تتصالحان وتتحدان أيام حكم الملك — وهو شيخ — ففي ظلال حكم الملك الشاب يكون لرجل الدين دور يصعب عليه كثيرا أن يثبت فيه ، لأن قوة الملك تضعفه ، ولكنه ينتصر بقوته إذا ضعف الملك .

وحين وصلت إلى فرنسا وجدت الملك الراحل محكوما بالنساء حكما مطلقا مع أنه كان في سن تجعله أقل ملوك الأرض حاجة إليهن فيما أعتقد . وقد سمعت يوما إحدى النساء تقول : « يجب أن تصنع شيئا لهذا الضابط الشاب ، فإني أعرف قدره وسأتحدث إلى الوزير في أمره » ، وقالت أخرى :

«إن من الغريب أن ينسى هذا الشماس. يجب أن يكون قسًّا ، لأنه ذو نسب وسأنوه بأخلاقه » . ويجب مع ذلك ألا نتخيل أن هؤلاء المتحدثات من ذوات الحظوة عند الملك ، ولعلهن لم يتحدثن إليه إلا مرتين طوال حياتهن. وهذا أمر يسهل حدوثه كثيرا فى بلاط ملوك أوربا . ولكن لن تجد فى باريس أو الريف شخصا فى البلاط ليس من خلفه امرأة تدفعه بيديها ، فينال فضلا ، أو يعفى من عقاب على مظالم قد يرتكبها . وبين هؤلاء النساء روابط قوية ، ويكون نوعا من الجمهورية أعضاؤها ناشطات دائما ، ويساعد بعضهن بعضا ، ويتبادلن الخدمات ، وكأنهن دولة جديدة داخل الدولة ، ورجال البلاط فى باريس أو الأقاليم إذا رأوا تصرفات الوزراء ورجال الحكم ، ورجال الدين ، ولم يفطنوا إلى هيمنة النساء عليهم أشبه بمن يرى آلة تلعب دون أن يعرف مطلقا الزنبرك الذى يحركها .

أتعتقد — يا إيبن — أن امرأة ما تفكر فى أن تصير خليلة لوزير ليسكن إليها ؟ أى فكرة هـــذه ! إنما هى تريد أن تعرض عليه خمس عرائض أو ست كل صباح ، وتتظاهر بأن مروءتها دفعتها إلى أن تفعل الخير لأناس فى حضيض المسكنة ، على حين أنهم يقدمون لها إيرادا قيمته مائة ألف دينار .

يشكو الناس فى فارس من أن الدولة يحكمها امرأتان أو ثلاث ، والأمر فى فرنسا أسوأ بكثير ؛ فجميع النساء بوجه عام يحكمن ، لا جملة واحدة ، وإنما يتقاسمن السلطة بينهن .

من باريس فى آخر شهر شوال سنة ١٧١٧ .

الرسالة الثامنة بعد المائة

من أوزبك إلى ......

هنا نوع من الكتب لا نعرفه مطلقاً فى فارس ، ويبدو لشيوعه أنه يوافق أمزجتهم : إنها الصحف . والكسل يستنيم إلى قراءتها : إن المرء يجد لذة فى أن يتصفح ثلاثين كتاباً فى ربع ساعة .

فى أكثر الكتب ، لا يكاد ينتهى المحرر من الإطراء المعتاد حتى يضيق به القراء : ثم يدخلهم — وهم نصف أموات — فى مادة غارقة وسط بحر من الألفاظ . وهذا المحرر يريد أن يخلد اسمه بالقطع الصغير ، وذاك يسعى للخلود بالقطع المتوسط ،وثالث بالقطع الكبير(١) : وينبغى للمحرر أن يعطّ وفقاً للحجم المناسب ، وذلك ما يفعله دون رحمة ، غير مراع جهد القارىء المسكين الذى يقتل نفسه فى إيجاز ما أجهد المحرر نفسه فى إطالته .

إننى لا أدرى أى فضل فى عمل مثل هذه المحرّرات : إننى أستطيع أن أخرج منها كثيرا إذا شئت أن أدمر صحتى . وأدمر صاحب المكتبة .

إن أكبر خطأ لدى الصحفيين هو أنهم لا يتكلمون إلا عن الكتب الجديدة : كما لو كانت الحقيقة دائمة جديدة . ويخيّل إلىّ أنه لو أتيح

---

(١) يريد أن الصحف مختلفة الأحجام . المراجع

لرجل أن يقرأ جميع الكتب القديمة لم يجد أى سبب يفضل به الكتب الجديدة عليها .

لكنهم عندما يلتزمون قانوناً هو ألا يتحدثوا إلا عن الكتب الخارجة حالا من يد المؤلف فإنهم يفرضون على أنفسهم قانوناً آخر هو أن تكون هذه الكتب مملة كل الملل . وهم لا يعبئون بنقد الكتب التى يختارون منها مقتطفات ، لأسباب يحتفظون بها لأنفسهم ، إذ من الشجاع الذى يرضى أن يثير له عشرة أعداء أو إثنى عشر كل شهر ؟

إن أكثر المؤلفين أشبه بالشعراء . يتحملون ضربات متوالية بالعصا دون شكوى ، ولا يجزعون لما يصيب أكتافهم ، لكنهم يرتاعون لأقل نقد ينال أثراً من آثارهم . فيجب إذن أن نحترس من الهجوم عليهم من هذه الناحية الشديدة الحساسية ، والصحفيون يعرفون ذلك جيدا ، لكنهم يفعلون ضد ما يعلمون ، يبدءون بالثناء على المادة التى يحررونها : وهذه أولى سماجاتهم ، ثم ينتقلون إلى مديح المؤلف ، وهو إطراء يُحملون عليه حملا : لأنهم يتعاملون مع أناس لا يزال بهم رمق ، متأهبون أن يشمروا عن سواعدهم ويصعقوا بسنّ قلمهم أى صحفىّ جرىء .

من باريس فى ٥ من ذى القعدة سنة ١٧١٨ .

الرسالة التاسعة بعد المائة

من ريكا إلى . . . . . .

إن جامعة باريس هى البنت البكر لملوك فرنسا ، وهى ممعنة فى الكبر فعمرها يزيد على تسعمائة سنة : هكذا تحلم أحيانا .

لقد حُـدِّثت أن جدلا قام من زمن بين بعض علمائها حول حرف الكاف[1] من جهة نطقه أينطق كى أو كا . وحمى وطيس الجدل حتى أضاع بعضهم فيه ثروته . وأصبح لزاما أن يضع البرلمان حداً لهذا الخلاف ، فأصدر تصريحاً ، بقرار رسمى لجميع رعايا ملك فرنسا أن ينطقوا حرف الكاف كما يشاءون . وكان جميلا أن ترى أكثر هيئتين فى أوربا جلالا مشغولتين بتقرير مصير حرف من الحروف الهجائية .

ويبدو يا عزيزى . . . أن رءوس أعاظم الرجال تضيق إذا كانت مجتمعة ، ومن هنا قلت الحكمة كلما كثر عدد العقلاء . إن الهيئات الكبيرة تهتم اهتماماً بالغاً بتوافه الأمور ، وبالشكليات وبالعبث الذى لا طائل تحته ، أما الجوهرىّ من الأمور فلا يأتى إلا أخيراً . فقد سمعت مرة أن ملكا من ملوك أراجون جمع ممثلى ولايات آراجون وكتالانيا[2] ،

---

(١) يشير المؤلف إلى ما حدث من خلاف حول هذا الموضوع الذى عرف بمعركة راموس ، وهو بيير لا راميه (١٥١٥ — ١٥٧٢) ، فيلسوف ونحوى فرنسى معارض لمذهب أرسطو ، كان يقول بالفعل لا بالإجماع ، ويعد المبشر بديكارت .

(٢) أراجون وكتالانيا : يشير الى فيليب الثالث ملك أسبانيا ، لأن مملكتى أراجون وكاتالانيا قد اتحدتا منذ قرن قبل ذلك أى فى سنة ١٦١٠ .

وشغلت الجلسات الأولى من اجتماعهم لتقرير أى اللغتين تكون بها المناقشة ، وحمى وطيس الخلاف ، وكادت الصلات بين المقاطعتين أن تنفصم غير مرة لولا أن اقترح أحدهم أن يكون السؤال باللغة الكتالونية ، والإجابة باللغة الأراجونية .

من باريس فى ٢٥ من ذى الحجة سنة ١٧١٨ .

الرسالة العاشرة بعد المائة

من ريكامييه ....

إن الدّور الذى تلعبه امرأة جميلة أخطر من أن يتصوّره إنسان ، إنه ليس عندها أهم من الوقت الذى تقضيه صباحاً فى زينتها وهى بين خدمها . إن قائد الجيش لا يهتم بتنظيم جنده اهتمامها بوضع خال فى وجهها كما ترجو لنفسها وتتوقع من نجاح فيه .

أى جهد فكرى تبذله ، وأى لباقة ينبغى أن تستخدمها لتوفق دائماً بين مصالح المتنافسين فى حبها ! ولتبدو محايدة بينهما ، ولكنها تستسلم لهما واحداً بعد الآخر . وتجعل نفسها وسيطا بينهما فى كل شكوى هى مصدرها .

وإن شغلها الشاغل أن تخلق أسباب المسرات ، وتحرص على تعاقبها وتجددها وتتوقع ما عساه يكدر عليها مسراتها ، أو يفسدها !

ومع كل ذلك فليست الصعوبة فى الابتهاج ، ولكن فى التظاهر به فضايق النساء ما استطعت فسيغفرن لك ذلك إذا ما أقنعهنّ مقنع بأنهن قد استمتعن استمتاعاً مرضياً . لقد شهدت منذ أيام عشاء بالريف أقامته بعض السيدات . وفى الطريق كن يقلن دائماً : « على الأقل يجب أن نضحك كثيراً وأن نتسلى » . وكنا مجموعة غير متناسبة . لذلك غلب الجد على اجتماعنا . غير أن إحدى السيدات قالت : ينبغى أن نعترف أننا

استمتعنا أيما استمتاع ، وأنه ليس فى باريس جمع هو أكثر مرحاً من جمعنا . ولما كان الملل مستوليا على هزتنى إحداهنّ وقالت لى : ألسنا فى مزاج معتدل ؟ فأجبتها متثائباً : نعم ويخيل إلىّ أنى سأموت من كثرة الضحك . ومع أن الحزن كان مسيطراً على أفكارنا . فإنى أحسست أنى منقاد لتثاؤب إثر تثاؤب أسلمنى إلى نوم أنسانى كل شىء ، وقضى على مسراتى .

باريس فى ١١ من المحرم سنة ١٧١٨ .

الرسالة الحادية عشرة بعد المائة

من أوزبك إلى ......

لقد كان حكم الملك الراحل طويلا جداً حتى أن نهايته أنستنا بدايته. وأصبح المألوف اليوم ألا يهتم الناس إلا بالأحداث التي حدثت أيام كان تحت الوصاية، ولا يقرءون إلا المذكرات التي كتبت عن هذه الحقبة من الزمان.

وإليك خطاباً ألقاه أحد قوّاد[1] مدينة باريس، في مجلس حربيّ. وأعترف لك أنني لم أفهم منه شيئاً ذا قيمة.

سادتي: بالرغم من أن قواتنا قد هزمت مع خسائر فادحة، فإني أعتقد أنه من السهل علينا أن نصلح هذه الخسارة: فإن لديّ ستة مقطوعات غنائية توشك أن تظهر في الوجود، وأنا متأكد من أنها ستضع الأمور في نصابها. وقد اخترت لها أصواتاً صافية، تخرج من أعماق صدور بلغت مبلغاً عظيما من القوة، وستهز مشاعر الشعب بشكل عجيب، لأنها لحنت حتى الآن لحناً فريداً في نوعه.

وإذا كان هذا لا يكفي، فإننا نعرض لوحة خشبية حفرت عليها صورة مازران مشنوقاً. وإنه من حسن حظنا أنه لا يحسن التكلم باللغة الفرنسية، وقد بلغت عجمته فيها حداً يمكن معه أن تنهار مصالحه.

---

(١) شارل دي موشي ماركيز هوكينكور ماريشال فرنسا عام ١٦٥١. المراجع

ولا تعوزنا الوسائل التى نكشف بها للشعب لهجته التى توجب السخرية ، وتستثير الضحك . وقد كشفنا له منذ أيام غلطة نحوية بلغ من فظاعتها أنها أضحت مثاراً للضحك فى جميع الأنحاء .

وإنى آمل — قبل ثمانية أيام — أن يجعل الشعب اسم مازران اسم جنس يدل على جميع البهائم التى تحمل الأثقال . أو تجرّ العجلات .

وقد دأبت موسيقانا ، منذ هزيمتنا على إيجاعنا بها ، وتصويرها بصورة أفحش من الخطأ الأوّل الأزلىّ لآدم ، فاضطر مازران ، حتى لا يرى أنصاره ينقصون إلى النصف ، أن يطرد جميع وصفائه .

انتعشوا إذن ، واستردوا شجاعتكم ، وتأكدوا أننا سنجعله يجتاز التلال بنفخة واحدة فى البوق .

من باريس فى ٤ من شعبان سنة ١٧١٨ .

الرسالة الثانية عشرة بعد المائة

من رهيدي إلى أوزبك في باريس

في أثناء إقامتي بأوربا قرأت ما كتبه المؤرخون القدامى والمحدثون: ووازنت جميع العصور بعضها ببعض، وكنت أجد متعة وكأنها تمرّ أمامي، وكنت أقف بفكري متأملا أحداثها لاسيما الانقلابات العظيمه التي تغيرّ وجه الأرض، وتجعل عصوراً تختلف عن عصور أشد اختلاف حتى إن الأرض تكاد تكون غير الأرض.

ولعلك لم تنتبه إلى شيء يثير فيّ كل يوم عجباً: كيف أن الدنيا صارت أقل عمرانا بالسكان مما كانت في الماضي؟ وكيف أمكن أن تفقد الطبيعة هذه الخصوبة الرائعة التي كانت لها في الأزمنة الأولى؟ أأدركتها الشيخوخة، أم اعتراها السقام؟

لقد مكثت في إيطاليا أكثر من سنة، فلم أجد فيها إلا حطام هذه الدولة التي ذاعت شهرتها قديما. وبالرغم من أن جميع الناس يسكنون المدن فانها كانت مقفرة خالية من السكان: ويبدو أن هذه المدن لم تظلّ قائمه إلا لتدل على الأمكنة التي كانت تقوم فيها مدن عظيمة كثيراً ما تحدّث عنها التاريخ.

وهناك من يزعم أن مدينة روما وحدها كانت تحوي قديماً من السكان أكثر مما نجده في مملكة كبيرة في أوربا في عصرنا الحاضر. وكان أيّ

مواطن رومانىّ يملك عشرة آلاف أو عشرين ألفاً من العبيد عدا من يعملون فى بيوته بالريف . فإذا أحصينا فى رومة أربعمائة ألف أو خمسمائة ألف مواطن كهذا فإنه لا يمكن أن يحصى عدد سكانها دون أن تستثير خيالنا .

وقديماً كان فى صقلية دول عظيمة ، وشعوب وافرة العدد اختفى أكثرها منذ لم يعد لهذه الجزيرة اعتبار إلا ببراكينها .

واليونان أقفرت إلى حدّ أنه لم يبق بها إلا عشر سكانها القدماء .

وأسبانيا التى كانت كثيفة السكان لا يُرى بها الآن إلا حقول خاوية ، وفرنسا ليست شيئاً إذا قيست بأمة الغال القديمة التى تحدث عنها قيصر .

أما بلاد الشمال تماماً فكانت مجدية ، وكانت شعوبها تفتقر إلى أسباب العيش ، وقد حدث قديماً أنهم اضطروا إلى أن يتقاسموا أرزاقهم - ويرسلوا إلى الخارج - كجماعات النحل - أفواجا منهم ، وأمماً بأسرها تبحث عن مواطن جديدة .

وبولونيا وتركية أوربا تكادان تخلوان من السكان .

وفى أمريكا لا نجد من السكان جزأين من مائة ممن كان بها من الناس الذين كوّنوا الإمبراطوريات العظمى .

وليست آسيا مطلقاً أحسن حالا . فهذه آسيا الصغرى التى كانت مهداً لممالك قوية ، وكانت تضمّ عددا هائلا من المدن الكبرى ، لم يعد بها إلا مدينتان أو ثلاث . أما آسيا الكبرى التى كانت تحت سلطان الأتراك

لم تعد ملأى بالسكان ، والتى كانت تحت سلطان ملوكنا إذا وازناها الآن بما كانت عليه فى عهد ازدهارها قديماً رأينا عدد سكانها ضئيلا جداً إذا قيس بسكانها الذين يفوقون الحصر أيام إكسركيس وداريوس .

أما الدويلات الصغيرة التى تحيط بهذه الإمبراطوريات العظيمة فإنها مقفرة تماماً : مثل دول إيريميت ، وسيركاسى ، وجوويل . وهؤلاء الملوك مع ممالكهم الواسعة لا يكاد عدد رعاياهم يبلغون خمسين ألفاً .

ومصر لم تكن أقل تناقصاً فى السكان من البلاد الأخرى وأخيراً ، هأنذا أجوب البلاد فلا أرى إلا القفر . وأعتقد أن سبب ذلك الطاعون والمجاعة .

وإفريقية التى كانت مجهولة تماما حتى إن المرء لا يستطيع أن يتحدث عنها بدقة كما يتحدّث عن سائر أجزاء العالم . وإذا لم نعتبر إلا شواطئها على البحر الأبيض المتوسط المعروفة فى جميع الأزمنة رأينا سكانها قد نقصوا كثيراً عما كانوا وهم تحت حكم الرومان . وملوكها الآن من الضعف بحيث أصبحوا أقل الملوك قوة فى العالم .

وبعد حساب يبلغ هذا المبلغ من الدقة يمكن أن يكون فى مثل هذه الأحوال ، وجدت أنه لا يعمر الأرض الآن على وجه التقريب سوى جزء من خمسين جزءاً من الناس الذين كانوا يعمرونها أيام قيصر . والذى يثير العجب أنه إذا ظلّ عدد السكان ينقص على مر الأيام ، واستمر ذلك مدى عشرة قرون فستكون الأرض صحراء خاوية من السكان .

وهذه يا عزيزى — أوزبك — الكارثة المروّعة التى لم يحدث مثلها فى العالم ، مع أنه لا يكاد يشعر بها أحد ، لأنها تحدث بحال لا تُدرك ، خلال عدد كبير من القرون ، وهذا يدل على بلاء داخلىّ ، أو سمّ دفين ، أو مرض الهزال الذى يفجع النوع الإنسانىّ .

من فينيس فى ١٠ من رجب سنة ١٧١٨ .

الرسالة الثالثة عشرة بعد المائة

من أوزبك إلى رعدى فى ڤينيس

إن الدنيا يا عزيزى رعدى لا تفسد ، وكذلك السموات : وعلماء الفلك هم الشهود الذين يرون بأعينهم تغيراتها كنتيجة طبيعة لحركات المادة فى الكون .

إن الأرض تخضع كسائر الكواكب - لقوانين الحركات ، وتعانى فى جوفها معركة دائمة من هذه القوانين ، والماء واليابسة كلاهما يبدو فى حرب أزلية ينشأ عنها فى كل لحظة أوضاع جديدة .

والناس فى هذا المقر المعرض كثيراً للتقلبات فى حال غير مأمونة العواقب : فهناك علل كثيرة أقلها جدير بأن يدمرهم تدميراً ، أو يزيد فى عددهم أو يقلل منهم .

لن أحدثك عن كوارث بعينها ، معروفة عند عامة المؤرخين ، وقضت على مدن بأسرها ، أو ممالك برمتها ؛ وإنما أحدثك عن الكوارث العامة التى وضعت الجنس البشرى فى كثير من الأحيان على شفا الدمار .

والتاريخ مملوء بأخبار الطواعين العامة التى تناوبت العالم ، وفجعت البشر . وقد تحدث التاريخ عن واحد منها كان عنيفاً جداً فأحرق كل شىء حتى جذور النباتات . وأحدث أثراً فى جميع العالم المعروف

حتى إمبراطورية كاتاى[1] . ولو اشتد هذا الطاعون شيئاً ما لقضى على الجنس البشرىّ كله فى يوم واحد .

ومنذ أقل من قرنين فشا أشنع الأمراض فى أوربا وآسية وإفريقية وأحدث فى زمن وجيز أفدح الآثار . ولو استمر بسرعته وحدته لقضى على البشر . وقد ماتوا فى بؤس لأنهم نشئوا منذ ولادتهم مرهقين بالآلام ، عاجزين عن النهوض بأعباء تكاليفهم فى المجتمع .

وماذا كان يحدث لو استشرى السمّ أكثر من ذلك ؟ لقد كان من الممكن أن يستفحل الداء بلا شك لولا أن كشف — لحسن الحظ — دواؤه الناجع . ،كان من الممكن أن يقضى على الجنس البشرى كله بعد أن قضى على جزء منه .

ولكن الداعى إلى الكلام عن إبادة الجنس البشرىّ التى كان يمكن أن تحدث ، مع أنها لم تحدث ، ألم يقض على الطوفان ولم يستبق منه إلا أسرة واحدة ؟

هل يستطيع أولئك الذين يعرفون الطبيعة ، ولهم عن الله تعالى رأى سليم أن يدركوا أن المادة والأشياء المخلوقة لم يمض عليها سوى ستة آلاف سنة ؛ وأن الله أجل أعماله فى الأزل ، لم يستعمل قدرته الخالقة إلا أمس ؟ ألأنه لم يستطع استخدامها ؟ أم لأنه لم يرد ذلك ؟ لكنه إذا لم يستطع ذلك فى وقت ما فإنه لا يستطيعه فى وقت آخر . إذاً كان ذلك لأنه لم ترده . وإذ أنه لا خلف عن الله قط ، فإننا إذا سلمنا بأنه أراد شيئاً مرة ، فإنه يريده دائماً ومنذ البداية .

لاينبغى إذاً أن نعد سنى الدنيا : فعدد حباب الرمال بالبحر لا تساوى

(١) فى بلاد الصين . (المراجع)

عند الموازنة بعمر الدنيا إلا لحظة واحدة .

ومع ذلك فقد حدثنا المؤرخون عن الأب الأول : وبينوا لنا نشأة الإنسان . أليس من الطبيعيّ أن نفكر فى أن آدم نُجيّ من بلاء عام ، كما نجيّ نوح من الطوفان ؟ وأن الكوارث الجسام توالت على الأرض منذ أن خلقت الدنيا ؟

ولكن الكوارث لم تكن كلها عنيفة . ونرى كثيراً من بقاع الأرض أجهدها تقديم المعاش للناس . وما يدرينا أن الأرض كلها ليس لديها أسباب عامة بطيئة وخفية لإجهاد الخلق ؟

لقد أراحنى أن أدليت إليك بهذه الأفكار العامة ، قبل أن أجيب على الأخص عن رسالتك المتعلقة بنقص السكان الذى حدث منذ سبعة عشر قرناً أو ثمانية عشر .

وسأريك فى رسالتى الآتية أن هناك أسباباً من الأخلاق والعادات مستقلة عن الأسباب الطبيعية أحدثت هذا النقص .

من باريس فى ٨ من شعبان سنة ١٧١٨ .

الرسالة الخامسة عشرة بعد المائة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

لم يكن الرومان يملكون أقل مما نملك من العبيد ، بل إنهم كانوا يملكون منهم أكثر مما نملك ، لكنهم كانوا يستغلونهم خيراً مما نستغل .

وقد كانوا أبعد ما يكونون عن أن يمنعوا تكاثر العبيد بالطرق الجبرية ، بل إنهم - على عكس ذلك - كانوا يشجعونه بكل ما أوتوه من قوة ؛ إذ يجمعون بين رجالهم ونسائهم - ما استطاعوا - بأنواع الزواج المختلفة : وبهذه الوسيلة ملئوا بيوتهم بخدم من الجنسين ، من كل الأعمار ، وعمروا الدولة بشعب لا يُحصى عددا .

وهذا النسل الذى يعمل دائباً لتكوين ثراء سيّد ، يتوالد حول هذا السيّد بلا حصر : وهو وحده المتكفّل بتغذيتهم وتربيتهم ، وآباؤهم متحررون من هذا العبء ، يستجيبون لنداء الطبيعة ويتكاثرون غير خائفين من تضخّم عدد الأسرة .

لقد قلت لك : إن العبيد عندنا مشغولون بحراسة نسائنا ، ولا شيء غير هذا ، أما نحو الدولة فهم فى سبات دائم ، بحيث ينبغى أن يوكل إلى عدد من أحرار الرجال ، ورؤساء الأسر أن يمارسوا الصناعات ، وفلاحة الأراضى التى لا يبذلون فيها إلا أقل جهد .

وليست الحال كذلك عند الرومان : فالجمهورية تستغل هؤلاء العبيد

استغلالا لا حدّ له . إذ كان لكل من هؤلاء العبيد مبلغ مدّخر بشرط أن يسمح سيده ، وبهذا المبلغ يعمل ويتصرّف حيث تؤهله مهارته ، فهذا يتاجر فى العملة ، وذاك يتجه إلى تجارة البحار ، وثالث يبيع السلع بالتجزئة ، ورابع يمارس صناعة ميكانيكية ، أو يستأجر الأرض ويستغلها . ولا تجد أحداً منهم إلا وهو يبذل وسعه فى استغلال هذا المدّخر استغلالا يحقق له فى آن واحد رغد العيش فى عبوديته الحاضرة، والأمل فى حرية مستقبلة: وهذا السلوك أدّى إلى إيجاد شعب عامل حيث به الفنون والصناعات .

هؤلاء العبيد الذين صاروا أغنياء بدأبهم وعملهم تحرّروا وصاروا مواطنين . وبذلك تتجدد الجمهورية باستمرار ، وتستقبل فى أحضانها أسَرا جديدة كلما هلكت أسر قديمة .

ربما وجدت فى رسالتى المقبلة فرصة لأثبت لك أنه كلما زاد عدد الناس فى دولة ازدهرت التجارة فيها ، وسأثبت لك كذلك بسهولة أنه كلما ازدهرت التجار فيها زاد عدد الناس : وهذان أمران متعاونان ، يتأثر أحدهما بالآخر حتما .

وإذا كان الأمر كذلك ، فكم من العبيد العاملين يتكاثرون ، ويعظم عددهم ! إن الصناعة والرخاء يوجدانهم ، وهم من جانبهم تزدهر بهم الصناعة ، ويتحقق الرخاء .

من باريس فى ١٦ من شعبان سنة ١٧١٨ .

الرسالة السادسة عشرة بعد المائة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

تكلمنا قبل عن البلاد الإسلامية ، وبحثنا عن السبب الذى من أجله كانت أقل سكاناً من الأقاليم التى كانت خاضعة لسلطان الرومان : ولنبحث، الآن عما أحدث هذه الظاهرة عند المسيحيين .

ذلك أن الطلاق مسموح به فى ديننا ، محرم عند المسيحيين . وهذا الفارق الذى يبدو لأول وهلة أن أثره هين ، له نتائج خطيرة محسوسة لدرجة لا يكاد الإنسان يصدقها .

إن تحريم الطلاق لا يقضى فقط على حلاوة الزواج ، بل إنه كذلك يحدد نهايته ، فإنهم إذ يريدون بتحريم الطلاق إحكام عقد الزواج يعملون على حلها ، وبدلا من أن يربطوا به بين القلوب — كما يزعمون — يفصلون ما بينها إلى الأبد .

وفى العقد الذى ينبغى أن يكون حراً إلى أبعد مدى ، وأن يحسب فيه للقلب حساب كبير . استعمل المسيحيون فيه المضايقة والإلزام ، وتحكموا فى مصاير الناس . ولم يحسبوا حساباً لتنافر الأذواق ،ولا للنزوات ولا لعدم توافق الأمزجة . وأرادوا أن يثبتوا القلوب على حال واحدة ، وهى أكثر الأشياء فى الكون تغيراً وتقلباً . وربطوا من غير تردد ولا أمل بين شخصين يضيق كل منهما بصاحبه متنافرين أكثر أوقاتهما . وهم بذلك يفعلون فعل الطغاة الذين ربطوا الأحياء بأجساد الموتى .

لا شيء يؤثر في العلاقة الزوجية كرخصة[1] الطلاق : فالزوج والزوجة يتحملان متاعب الحياة الزوجية ، ويحملهما على الصبر في تحملها علمهما أنهما يملكان في أي وقت أن يضعا حداً لنهاية هذه المتاعب بالطلاق ، وهما يحتفظان غالباً بهذا الحق مدى الحياة ولا يستعملانه لسبب واحد هو شعور كل منهما بأنه حرّ يستطيع أن يستعمله متى شاء .

وليست الحال كذلك عند المسيحيين ، فإن متاعبهم الحاضرة تؤنسهم من المستقبل : ولا يرون من مكاره الزواج إلا دوامه ، أعني أزليّته ، ومن هنا يأتي السأم والشقاق والاستخفاف بالزوجية ، ولذلك أثره في في تناقص التناسل ؛ إذ لا تنقضي ثلاث سنوات على الزواج حتى تُهمل حقوقه الأساسية ، ثم يقضي الزوجان معاً ثلاثين سنة في علاقة فاترة ينشأ عنها انفصالات داخلية في عنف الانفصالات العلنية ، بل ربما كانت أسوأ أثراً منها : وكل من الزوجين يعيش مجانباً الآخر ، ولذلك أثره في ذرّية المستقبل . وسرعان ما يمل الزوج زوجته الأبدية ، ويستسلم لبنات الهوى : وتلك تجارة مخزية من أضرّ الأشياء بالمجتمع ، لا تقصد ما يرمى إليه الزواج ، وإنما أكثر شيء فيها عرض المتع .

فإذا ارتبط شخصان هذا الرباط ، وكان أحدهما عديم الأهلية للزواج ولتكاثر النوع ، سواء أكان ذلك لضعف بنيته ، أم لكبر سنه فإنه يقبر الآخر معه ، ويجعله عقيما مثله تماما .

فلا ينبغي إذن أن نعجب إذا رأينا كثيراً من الزواج عند المسيحيين لا يثمر إلا عدداً قليلا من المواطنين .

---

(١) الرخصة في الشرع ما تسمح به الشريعة تيسيراً على الناس كفطر المسافر ، وكالطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين . (المراجع)

ألغى الطلاق : ولا وئام يرجى للزواج الذى يتم بلا توافق ، ولم تعد النساء تنتقل - كما كانت الحال عند الرومان - إلى أيدى عدد كبير من الأزواج الذين كانوا يحرصون على أن يظفروا منهن فى طريقهم بأوفر نصيب .

وأستطيع أن أقول : إذا كانت جمهورية مثل جمهورية لاسيديمونيا التى يضيق فيها المواطنون دائماً لقوانينها الغريبة الدقيقة ، والتى لم يكن فيها إلا أسرة واحدة هى الجمهورية ، قد قررت أن الأزواج لابد أن يغيروا زوجاتهم كل سنة — فإن ذلك يضمن لها شعباً لا يحصى عدده .

إنه من الصعوبة بمكان أن يفهم المرء جيداً الباعث الذى حمل المسيحيين على إلغاء الطلاق . إن الزواج عند جميع شعوب العالم عقد مرن ، قابل لجميع الشروط ، ولم يخرج على ذلك إلا الشعوب التى تستطيع أن تغض من قيمته ، ولم ينتبه المسيحيون إلى هذا الاعتبار ، وصعب عليهم أن يفسّروه لنا : إنهم لا يقيمونه على أساس اللذات الحسّية ، بل على العكس من ذلك — كما قلت لك آنفاً — يبدو أنهم يريدون أن ينفوا عنه اللذات الحسّية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وهذا خيال ورمز ، وشىء ما مبهم لا أفهمه مطلقاً

من باريس فى ١٩ من شعبان سنة ١٧١٨ الميلادية .

الرسالة السابعة عشرة بعد المائة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

إن تحريم الطلاق لم يكن السبب الوحيد فى قلة عدد السكان فى البلاد المسيحية : فالعدد العظيم من الخصيان الذين يعيشون بينهم لا يمكن إغفاله وسأتحدث عن القساوسة والرهبان من الجنسين الذين استسلموا للزهادة الأبدية وهى عند المسيحيين أسمى الفضائل ، لكن فى أى شىء ؟ لا أدرى لأنى لا أعرف أىّ فضيلة هذه التى لا تستهدف غاية من الغايات .

وأجد الفقهاء منهم تتضارب أقوالهم تضاربا بيّنا إذ يرون الزواج مقدساً ، ويرون فى الوقت نفسه أن العزوبة وهى الحالة المقابلة له أعظم تقديسا ، دون رعاية لمبادىء أو أصول أساسية تنتهى إلى أن الخير دائماً هو الأفضل .

وقد كثر عدد الذين ألفوا العزوبة إلى درجة هائلة . والآباء فى الماضى كانوا يئدون أطفالهم فى المهد ، والآن يهبونهم الكنيسة فى الرابعة عشرة من عمرهم ، والنتيجة فى الحالين واحدة . وإن هذه الرهبنة أبادت عدداً لم تُبد مثله الأوبئة ولا الحروب الدامية . فكثيراً ما ترى فى الأديرة أسراً أقامت بها إلى الأبد ، لا تنجب طفلا ، ولا تعمل عملا ، بل تعيش عيالا على غيرها من الناس . إن هذه الأديرة بيوت مفتوحة دائماً لكنها أشبه شىء بحفر عميقة تقبر فيها الأجيال المقبلة .

هذه السياسة تخالف تمام المخالفة ما درج عليه الرومان من سنّ قوانين لعقاب من يأبى الزواج ، ويريد أن يتمتع بحريته التى تتعارض والصالح العام .

إنى لا أحدثك هنا إلا عن الكاثوليك . أما البروتستنت فقد أباحوا الزواج وإنجاب الأطفال لجميع المسيحين ، فلم تعد شكوى بعد ذلك للقسس ولا للرهبان . وإذا عدنا بأفكارنا إلى نشأة هذا المذهب ، وأيامه الأولى لم نجد طعنا ما وجه إليه بعدم الاعتدال ، فلا ينبغى إذاً أن نشكّ فى أن هذا المذهب قد خفف من وطأة الدين عن كاهل المسيحيين إذ أباح لهم جميعاً أن يتزوجوا ، وكسر الحاجز بين الإسلام والمسيحية فى هذا الأمر .

ومهما كان الأمر فإنه مما لا شك فيه أن الدين خوّل البروتستنت مزية كبرى لم يظفر بها الكاثوليك .

وأستطيع أن أقول أن أوربا بحالها الراهنة لا يمكن أن تظل بها الكاثوليكية أكثر من خمسة قرون . فقبل أن تنهار أسبانيا كان الكاثوليك أعظم قوة وأكثر عدداً . ولكن البروتستنت ظلوا يكثرون ويقوون شيئاً فشيئاً حتى ساووا الكاثوليك ، وسيثرون ويقوون على مر الزمان بينما يضعف الكاثوليك .

ونشأ عن ذلك ، — كما هو الواقع — أن تكون الأقاليم البروتستنتية أكثر سكانا وأوفر عمرانا : أولا : لأن الضرائب فيها زادت زيادة كبيرة مناسبة لعدد الذين يدفعونها ، وثانياً : لأن الأرض زرعت بعناية أتم ، وثالثاً : لأن التجارة ازدهرت ازدهاراً عظيما لأن الناس يملكون ثروات يستغلونها ولهم حاجات كثيرة يجدون لسدها موارد متعددة . ومن

المشاهد أنه إذا لم يوجد العدد الكافى لزراعة الأرض فإن التجارة تموت ، وإذا لم يكن هناك العدد الضرورىّ لمزاولة التجارة فإن الزراعة تضمحلّ ، أى أن التجارة والزراعة شديدا الارتباط فلا تقوم إحداهما إلا على الأخرى ، كما تضمحلّ كلتاهما للسبب الذى تضعف به إحداهما .

أما عند الكاثوليك فلم تهمل زراعة الأرض فحسب ، بل إن النشاط الحيوىّ كله لحقه الضيم ، واقتصر على تعلم خمس كلمات أو ست من لغة ميتة فإذا حصلها أحدهم لم يجد من الضرورىّ أن يعنى بثروته ، وآثر الحياة الهادئة فى الدير على الحياة العامة التى تتطلب العرق والنصب .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن الرهبان استولوا على معظم أموال الدولة ، وهم جماعة جشعة ، تأخذ ولا تعطى أبداً ، وتكدّس دائماً مايرد إليها لتكوّن به رءوس أموال شلاء طالما كانت فى أيديهم . وشلل المال يصيب حركة الحياة كلها من تجارة وفن وصناعة بالشلل ، ولا يعود المال متداولا بين الناس .

وليس هناك مطلقا ملك بروتستنتى لا يفرض على رعاياه من الضرائب عشرة أمثال ما يفرضه البابا على رعيته ومع ذلك فإن هؤلاء الأخيرين مساكين بينما يعيش الآخرون فى رغد . والتجارة تشيع الحياة فى كل شىء عند الأولين ، على حين تسبب الرهبنة الموت فى كل مكان عند الآخرين :

باريس فى ٢٦ من شعبان سنة ١٧١٨

الرسالة الثامنة عشرة بعد المائة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

لم يعد لدينا ما نقوله عن آسيا وأوربا ، فلنمض إلى إفريقية . على أن الإنسان لا يستطيع أن يتحدث إلا عن سواحلها ؛ لأنه لا يعرف شيء عن داخلها .

إن سواحل البربر — حيث استقر الدين الإسلامى — ليست آهلة بالسكان كما كانت أيام الرومان ، وذلك للأسباب التى ذكرتها لك آنفا .

أما سواحل غينيا فكان من الضرورىّ أن تخلو من سكانها بشكل مزعج منذ مائتى سنة ، إذ كان صغار الملوك ورؤساء القرى يبيعون رعاياهم لملوك أورنا ليحملوهم إلى مستعمراتهم فى أمريكا .

هناك أمر عجيب: ذلك أن أمريكا التى تستقبل على مرّ السنين كثيراً من السكان الجدد ما زالت هى نفسها مقفرة ، ولم تستفد من النقص المستمرّ الذى منيت به إفريقية .

إن هؤلاء العبيد الذين نقلوا إلى جوّ آخر — يختلف عن جوهم — يهلكون آلافا كما أن أعمال المناجم التى يعمل فيها أهالى البلاد والأجانب دون توقف ، والروائح الكريهة التى تتصاعد من هذه المناجم ، والزئبق الذى لابد من استخدامه دائما . كل هذه الأشياء تهلكهم ، ولا عوض عنهم .

فليس هناك جنون أخش من أن يهلك الإنسان عدداً لا حصر له من الرجال فى سبيل الحصـــول على الذهب والفضة من جوف الأرض . هذان المعدنان فى حـد ذاتهما لا فائدة منهما ، ولم يكونا ثروات إلا لأن الإنسان قد اختارهما ليكونا رمزاً لهـا

من باريس فى آخر سعبان سنة ١٧١٨ .

الرسالة التاسعة عشرة بعد المائة
من أوزبك إلى الشخص نفسه

إن وفرة النسل فى شعب تتوقف أحياناً على أصغر الأمور فى الدنيا ، فلا يلزم الشعب فى أكثر الأحوال جولة جديدة بخياله ليصل إلى ما يجعله أكثر عدداً مما هو .

فاليهود يُستأصلون دائماً ، ثم يتجددون دائماً بالتناسل ، فيعوّضون ما يفقدونه من عددهم ، وما تذهب به عمليات إبادتهم المستمرة ، لأمل وحيد عند جميع الأسر هو أن كل أسرة تأمل أن يظهر منها ملك عظيم يصير سيد العالم .

إن ملوك الفرس القدماء لم يظفروا بالآلاف المؤلفة من الرعايا إلا بسبب شريعة الحكماء ، التى توحى بأن أحب الأعمال التى يُرْضى بها الإنسان ربّهُ هى أن ينجب طفلا ، أو يحرثَ حقلا ، أو يزرع شجرة .

وإذا كان فى رحاب الصين شعب وافر العدد . فما ذلك إلا لنوع من التفكير ، فالأطفال يعتبرون آباءهم كآلهة ، ويقدسونهم مثلها فى هذه الحياة ، ويكرّمونهم بعد مماتهم بقرابين ، ويعتقدون أن أرواح أسلافهم تتلاشى فى الخالق ثم تستأنف حياة جديدة ، وذلك دفع كل صينىّ إلى إكثار عدد أسرة خاضعة تماماً لهذه الحياة ضرورية لحياة أخرى .

ومن جهة أخرى تقفر البلاد الإسلامية من السكان على مرّ الآيام لزعم له عندهم حظ عظيم من القداسة ، وما كان ليثمر عندهم آثاراً ضارة لو لم يكن متأصلا فى نفوسهم ، يقولون : نحن نعتبر أنفسنا سائحين ، فلا ينبغى ألا نفكرّ إلا فى وطن آخر : فالأعمال النافعة الدائمة ، والعناية بتحقيق ثروة لأطفالنا ، والمشروعات التى تمهّد العيش لأجل فى حياة قصيرة عابرة تبدو لنا نوعاً من الطيش . ونحن مطمئنون إلى الحاضر غير قلقين من المستقبل ؛ فلا ينبغى أن نجهد أنفسنا لا فى ترميم المنشآت العامة ، ولا فى عمارة الأرض الجدبة ، ولا فى زراعة تلك التى تثمر فيها عنايتنا . ونعيش فى خدر عام ، وندع كل شىء للقدر[1] .

إنها فكرة طائشة أقامت عند الأوربيين نظام انفراد الولد البكر بالميراث وهو نظام يتعارض وتكاثر النسل لأنه يحمل الأب على توجيه اهتمامه بولد واحد من أبنائه ، ويغضى عن سائرهم . وما يحمله على تنمية الثروة لفرد منهم يتعارض وتكوين الثروة لأبناء كثيرين ، وذلك يدمرّ المساواة بين المواطنين والمساواة مصدر الرّغد .

من باريس فى ٤ من رمضان سنة ١٧١٨ .

---

(١) الإسلام مع تمجيده الحياة الآخرة ، ودعوته للعمل لها ، دعا إلى العمل للدنيا ففى القرآن الكريم نصوص كثيرة تثبت ذلك كقوله تعالى « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » آية ١٥ سورة الملك . وقوله : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله » سورة الجمعة آية ١٠ . وقد حض النبى صلى الله عليه وسلم على العمل وتعمير الأرض فى أحاديث كثيرة منها قوله : (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده) . وقوله : (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) .
المراجع

الرسالة العشرون بعد المائة
من أوزبك إلى الشخص نفسه

البلاد المسكونة بالهمج تكون — عادة — قليلة السكان، لأن جمهرتهم تكره العمل، وفلاحة الأرض. وبغضهم للعمل بغض شديد مشئوم: حتى إنهم إذا سخطوا على أحد أعدائهم لم يشف نفوسهم منه إلا أن يحقروه بأن يفلح الأرض. ويعتقدون أنه ليست هناك حرف شريفة تليق بهم إلا الصيد فى البر أو البحر.

وكثيراً ما يقلّ الصيد فى البر والبحر فيفجعون بمجاعات شاملة. ولا يدخل فى حسابهم أن بعض البلاد يتوافر فيها الصيد من الوحش والطير والسمك بدرجة تكفل العيش لشعب كبير، ولا يدركون أن الحيوان يفرّ دائماً من الأماكن المزدحمة بالسكان.

وفوق ذلك، فإن قرى الهمج التى يسكن كلاً منها مائتا ساكن أو ثلثمائة منعزل بعضها عن بعض، ولكل منها مصالحها الخاصة المنفصلة عن مصالح الأخرى كانفصال مصالح دولتين كبيرتين؛ فلا تستطيع أن تنهض لأنها لا تملك موارد الدول الكبرى التى تتكافل أجزاؤها! ويتعاون بعضها مع بعض.

وعند هؤلاء الهمج عادة أخرى لا تقل ضرراً عن الأولى: عادة

قاسية : هى أن الحوامل من النساء يُجهضن حتى لا يتأذى أزواجهن بمنظرهن منتفخات البطون .

وهنا بعض القوانين الصارمة إزاء هـذه الفوضى تصل إلى درجة الهوس : فكل بنت لم تسجل حملها عند الحاكم تعاقب بالموت إذا مات جنينها ، ولا يشفع لها حياؤها ولا خجلها ، ولا الحوادث التى تتعرض لها .

من باريس فى ٩ من رمضان سنة ١٧١٨ .

النتيجة المألوفة للجاليات ، أنها تضعف البلاد التي تُخرج منها ، دون أن تعمّر البلاد التي تُرسَل إليها .

يجب أن يظل الناس حيث هم ، لأن هناك أمراضاً تحدث من تغيير هواء جيّد ، بهواء ردىء ، وأخرى تحدث من مجرّد التغيير .

إن الهواء يحمل كالنبات ذرات الأرض لكل قطر من الأقطار ، وهكذا يتحدّد مزاجنا ، فإذا انتقلنا من بلد إلى بلد مرضنا . وبما أن للسوائل قواما معيّناً ، وللجامدات تركيباً خاصا ، فكل من النوعين له درجة معينة من الحركة لا يحتمل دونها درجة أخرى ، ويأبى أىّ وضع جديد .

وحينما يكون قطر مقفراً من السكان فذلك ينبىء بأن هناك عيباً خاصاً فى طبيعة جوّه : ولذلك إذا أخذنا جماعة من الناس من جوّ موافق لهم لنرسلهم إلى بلد ما فإن مايحدث فى الواقع هو عكس ما نقصد.

وقد عرف الرومان ذلك بالتجربة ، إذ أرسلوا جميع المذنبين إلى سردينية ، وأرسلوا إليها اليهود . وكان لزاماً أن يتعزّوا عن فقدهم ، والواقع أن الاحتقار الذى يكنونه لهؤلاء البائسين هوّن عليهم فقدهم .

والشاه عباس العظيم عندما أراد أن يمنع الأتراك من إمداد جيشهم

الكبير على الحدود أخرج أكثر الأرمن من بلاده ، ورحّل أكثر من عشرين ألف أسرة إلى مقاطعة جيلان فهلك أكثرها فى زمن وجيز.

وهجرة الشعوب إلى القسطنطينية لم يتحقق منها نجاح مطلقاً .

وهذا العدد الهائل من الزنوج الذين تحدثنا عنهم آنفاً ما عمروا أمريكا مطلقاً .

فيجب أن نعترف إذن أن عمليات الفناء الكبيرة ليس من اليسير إصلاحها ، لأن أى شعب إذا نقص إلى درجة معينة ، فإنه سيظلّ على حاله من النقص ، إلا إذا عرضت له فرصة للانتعاش والزيادة ، ولكن ذلك يحتاج إلى قرون من الزمان .

وفى حال نقص السكان ، فإن أقل الأحوال التى تكلمنا عنها آنفاً إذا أسهمت فى النقص فلن يصعب صلاح الأمر فحسب ، بل إن النقص سيستمر يوما فيوما حتى ينتهى إلى الفناء .

وطرد المسلمين من أسبانيا لا يزال ملحوظ الأثر كأول يوم حدث فيه ، وبدلا من أن يُسدّ الفراغ ، فإنه صار على مرّ الأيام أوسع مما كان .

ومنذ الإبادة فى أمريكا ، لم يستطع الأسبان الذين حلوا محل السكان القدماء أن يعمروها . بل الأمر على عكس ذلك ، فبقدر أحرى أن أسمّيه عدلا إلهيّاً دمر المدمرون أنفسهم وهلكوا على مرّ الأيام .

فلا ينبغى إذن أن يفكر الملوك قط فى أن يعمروا الأقطار الواسعة بالجاليات . ولا أقول إن هذا لا ينجح فى بعض الأحوال ، فهناك بعض

الأجواء ملائمة جداً للنوع الإنساني فيتكاثر فيها دائماً ، والشاهد على ذلك تلك الجزر التي عمرت بمرضى بركتهم فيها بعض السفن ، فلبسوا فيها العافية فى وقت قريب[1] .

وإذا نجحت هذه الجاليات ، فإنها — بدلا من أن تزيد فى سلطان الدولة التى انتقلت إليها — تقاسمها هذا السلطان ، إلا إذا كانت محدودة العدد كتلك التى ترسل لاحتلال بعض المراكز للتجارة .

وأهل قرطاجنة كشفوا أمريكا كالأسبان ، أو على الأقل جزراً عظيمة أقاموا فيها تجارة هائلة ، ولكن هذه الجمهورية الرشيدة عندما رأت سكانها ينقصون حرّمت على رعاياها التجارة والملاحة .

ويمكن أن أقول : إنه بدلا من ترحيل الأسبانيين إلى الهند ، يجب أن ينقل الهنود والمولدون إلى أسبانيا ؛ بل يجب أن يُردّ إلى هذه المملكة جميع رعاياها المشتتين ، وإنه لو احتُفظ بنصف هذه الجاليات العظيمة النازحة لأصبحت أسبانيا القوة التى يرهب جانبها أكثر من أى قوة فى أوربا .

ويمكن تشبيه الإمبراطوريات بشجرة امتدت فروعها فى جميع الأرجاء ، وامتصّت عصارة الساق ، مع أنه لاغناءفيها إلا أن تمدّ ظلها .

وليس هناك عبرة للملوك الذين يندفعون فى الغزو إلى مدى بعيد كالبرتغال والأسبان ، هاتان الأمتان فى غزوهما ممالك عظيمة بسرعة

---

(١) لعل المؤلف يشير إلى جزيرةبوربون .

المراجع

فائقة كانوا متعجبين من انتصاراتهم أكثر من عجب الشعوب المهزومة من هزيمتهم ، وفكرتا فى الوسائل التى تحتفظان بها بالممالك التى فتحاها ، وكان لكل منهما طريق فى السياسة يختلف عن طريق الأخرى .

أما الأسبان فإنهم ليأسهم من أن تظل الشعوب المنهزمة فى ولاء لهم ، اختاروا أن يبيدوهم ، ويرسلوا إليها من أسبانيا جماعات موالية : ولم تنفذ مطلقاً خطة فظيعة بمثل هذه الدقة . فرأى الناس شعباً يبلغ عدده سكان أوربا كلها يختفى من على سطح الأرض منذ وصل إليها هؤلاء الهمج ، الذين بدا لهم إذ كشفوا بلاد الهند أن يروا الناس فى الوقت نفسه إلى أى مدى تبلغ القسوة .

بهذه الوحشية احتفظوا بهذا القطر تحت سلطانهم . ومن هنا تستطيع أن تحكم كم تكون الغزوات مشئومة مادامت لها مثل هذه النتائج : وأخيراً لعل هذا الدواء المزعج دواء فريد من نوعه . وإلا فكيف يمكن الاحتفاظ بطاعة الملايين من الناس ؟ وكيف يمكن مساندة حرب أهلية فى مكان قصىّ ؟ وماذا يمكن أن يحدث إذا أعطيت هذه الشعوب وقتاً تُفيق فيه من دهشها الذى أصابها بهؤلاء الآلهة الجدد ، ومن الخوف من أن تصفعهم قوى هذه الآلهة ؟

أما البرتغاليون فاتخذوا طريقاً مضادا لطريق الأسبان : لم يستعملوا القسوة : ولهذا طُرِدوا وشيكا من جميع البلاد التى فتحوها . أما الهولنديون فقد أعانوا ثورة هؤلاء الشعوب ، ثم استغلوها لمصلحتهم .

مَن من الملوك يرغب فى حظ كحظ هؤلاء الفاتحين ؟ ومن يحب

الفتوح فى مثل هذه الأحوال ؟ إن بعض هؤلاء الفاتحين طرد من فوره، وبعضهم ترك البلاد المفتوحة خراباً ، وجعل بلاده هو خراباً مثلها .

إن مصير الأبطال الذين يدمرون بالغزو بلاداً يفقدونها وشك فتحها ، والذين يخضعون أمما يُضطرون هم أنفسهم إلى تدميرها كحال هذا الأحمق الذى يبدد ماله فى شراء تماثيل يرميها فى البحر ، أو مرايا يحطمها فور شرائها .

من باريس فى ١٨ من رمضان سنة ١٧١٨ .

الرسالة الثانية والعشرون بعد المائة
من أوزبك إلى الشخص نفسه

إن رفق الحكومات بالرعية يساعد بشكل عجيب على تكاثر النوع الإنسانى وفى جميع الجمهوريات دليل واضح على ذلك ، وأكثر ما يتضح هذا فى سويسرة وهولندة أسوأ بلاد أوربا طبيعة أرض ، وأكثرها — مع ذلك — سكانا .

وليس شيء يجذب الأجانب إلى بلد ما كالحرية ، ورغد العيش الذى ينشأ عنها دائماً . أما الحرية فتُطلب لذاتها ، وأما رغد العيش فيسعى إليه الناس حيث يكون بدافع الحاجة .

والنوع يتكاثر فى البلاد التى تضمن للنسل ما يعيشون به ، دون أن ينقص ذلك من رزق الآباء .

والمساواة كذلك بين المواطنين تثمر عادة شيئاً من المساواة فى الثروات ، وتُشيع الرغد والحياة فى جميع الهيئات السياسية ، وفى أرجاء البلاد كلها .

وليست الحال كذلك فى البلاد التى تخضع للحكم المطلق حيث يملك الملك والحاشية وبعض المحظوظين جميع الثروات ، بينما يئن سائر الشعب من الفقر المدقع .

إن الإنسان إذا لم يكن فى يسر ، وأحسّ أنه ، إذا تزوّج ، نسل

أطفالا أفقر منه أعرض عن الزواج ، وإذا تزوج خشى أن يكون له عدد من الأطفال قد يرهقون ثروته ، أو يهبطون بمستوى معيشته .

واعترف بأن الرجل البدوى أو الفلاح — إذا ما تزوج — نسل بلا مبالاة سواء أكان غنياً أم فقيرا ، ولا يحسب حسابا للغنى أو الفقر ، لأن عنده الميراث المضمون الذى سيخلفه لأولاده ، ذلك الميراث هو المِغْوَل ، فلا شيء مطلقاً يمنعه من الانطلاق مع غريزته الطبيعية انطلاقاً أعمى .

ولكن أى فائدة لدولة ما من عدد كهذا من نسل يضوى من الفاقة ؟ إنهم يكادون يهلكون إثر ولادتهم ، فلن يتكاثروا أبدا . وهم ضعاف نحاف يموتون بالتجزئة بطرق شتى على حين تجتاح سائرهم الأمراض الشعبية السائدة التى تنشأ دائما عن الفاقة وسوء التغذية ومن ينجو منهم من الموت ويصل إلى سن الرجولة محروما من قوة الرجولة ، وظل فى هزال بقية حياته .

والناس كالنبات لا يترعرع مطلقاً إلا إذا عنى بزراعته ، لذلك ينقرض النوع الإنسانى أو ينحط فى الشعوب الفقيرة .

وفرنسا يمكنها أن تعطينا مثلا لكل هذا ، فنى الحروب الماضية دفع النسل إلى الزواج وهم فى سن مبكرة ، وفقرٍ مدقع ، خوفُهم من التجنيد . ونشأ عن هذا الزواج عدد هائل من النسل فقدتهم فرنسا إذ قضى عليهم الفاقة والجوع والمرض .

إذا رأينا هذا تحت سماء سعيدة ، وفى مملكة لها حظ من الحكم الصالح كفرنسا ، فماذا عساه يحدث فى الممالك الأخرى ؟ .

باريس فى ٢٣ من رمضان سنة ١٧١٨ .

الرسالة الرابعة والعشرون بعد المائة

من أوزبك الى رعدى فى فيلبس

ماذا عسى أن يكون الدافع للأمراء إلى هذا الكرم العظيم الذى يغدقونه على رجال الحاشية ؟ أيريدون أن يستحوذوا عليهم ؟ لقد ملكوهم كأتم ما تكون الملكية ، ومن ناحية أخرى إذا كانوا قد كسبوا بعض الرعية بالعطايا ، فقد خسروا منها عددا غير محدود بالحرمان .

وحين أفكر فى حال هؤلاء الأمراء الذين يحيط بهم قوم جشعون لا يقنعون مطلقاً لا أملك إلا الرثاء لهم . ويضاعف ألمى من أجلهم أنهم لا يستطيعون مقاومة المطالب المرهقة دائما لأولئك الذين لا يطالبونهم بشىء مطلقاً .

وكلما استمعت إلى ما يسبغونه عليهم من الهبات والمكرمات والأموال سارعتنى آلاف الخواطر ، وتزاحمت فى نفسى الأفكار ، وبدا لى أن أعلن هذا العلاج :

« من الشجاعة التى لا تكلّ أن يطلب منا بعض أتباعنا منحاً درجوا على طلبها من جلالتنا ، ونضطر آخر الأمر إلى أن نستجيب إلى ما طلبوه مع كثرته ، مقابل ما قاموا به حتى الآن من أياد جليلة فى تأييد عرشنا .

لقد ذكروا لى أنهم منذ ارتقينا العرش لم يتخلفوا قط عن المثول

بين أيدينا عندما نهب من نومنا ، وأننا دائما نراهم واقفين فى طريقنا ثابتين كالأوتاد ، وأن أعناقهم تشرئب من وراء أعلى الأكتاف لير ا جلالتنا .

كما تلقينا من الجنس اللطيف طلبات كثيرة يرجوننا أن نعيرهن اهتمامنا لأنهن يحيين حياة قاسية ، وبعضهن من الطاعنات فى السن قد التمسن أن نذكر أنهن كنّ يزين بلاط أسلافنا من الملوك ، وأن قوّاد الجيوش إذا كانوا قد شدوا من أزر الدولة بأعمالهم الحربية فإن دسائسهن لم تكن أقل خطراً فى بناء الدولة .

ورغبة منا فى معاملة أصحاب هذه المطالب بالكرم ، وتحقيق مطالبهم ، أمرنا بما هو آت :

يجب أن يخصم من كل مزارع له خمسة أولاد خمس نصيبه من الخبز كل يوم ، وعلى الآباء أن يسووا بين الأولاد فيما بقى لهم بعد ذلك .

ويحرم — بصفة قاطعة — على من يقومون بزراعة أراضيهم الموروثة أو يحملون لقب صاحب مزرعة أن يصلحوا هذه الأراضى مهما كان الجزء الذى يتطلب الإصلاح صغيرا . وأمرنا جميع الأشخاص الذين يمتهنون الحرف الوضيعة والآلية التى لا تليق بجلال مكانتنا ألا يشتروا من الآن ملابس خاصة بهم أو بنسائهم أو أطفالهم إلا مرة كل أربع سنوات، كما يحرم عليهم بتاتا أن يحتفلوا فى أسرهم بتلك الأعياد الأساسية التى اعتادوا أن يحتفلوا بها كل سنة .

وبما أنه قد بلغنا أن جمهرة البرجوازيين فى مدننا الكبيرة يستولى

على تفكيرهم الرغبة فى أن يزوجوا بناتهم من الأشراف ، وهن لا يبلغن هذا الشرف إلا بتواضع محزن محرج للأشراف ، فإننا لا نسمح لهن بهذا الزواج إلا إذا وصلن إلى السنّ المحدّدة بأوامرنا ، وإذ ذاك يباح لهن ما حرم عليهن من قبل . وحظرنا على رجال القضاء أن يمارسوا تربية أولادهم .

(باريس فى غرة شوال سنة ١٧١٨)

الرسالة الخامسة والعشرون بعد المائة

من ريكا إلى ......

يحار المرء كثيرا إذا نظر فى جميع الأدباء ليعرف فكرة عن النعيم الذى أعد للذين عاشوا عيشة مستقيمة . يفزع الأشقياء — بسهولة — بما يتهددهم من عذاب يمتد آمادا طويلة . ولكن لا يعلم ما ينتظر الصالحين: والظاهر أن من طبيعة المتع أن تكون قصيرة الأمد ، ولا يكاد الخيال يعطى لها صوراً أخرى .

لقد رأيت أوصافا للفردوس جديرة بأن تجعل ذوى الذوق السليم يعزفون عنها : فبعضهم يتغنى دائما بظلالها السعيدة ، وبعضهم يحكمون عليها بأنها عذاب بنزهة أبدية ، وفريق ثالث يجعل الأتقياء يحلمون فى الملأ الأعلى بعشيقات الدنيا ، ولا يظنون أن مائة مليون من السنين كفيلة بأن تنفى عنهم الميل إلى هذه الشهوات الجنسية .

وأذكر فى هذه الفرصة قصة سمعتها تحكى لرجل كان فى بلاد المغول ، تدلنا على أن رجال الدين الهنود ليسوا فى تفكيرهم عن متاع الفردوس أقل عقما من سواهم . والقصة هى أن زوجة جاءت عقب وفاة زوجها — فى حفل — إلى حاكم المدينة ، تطلب إليه أن يسمح لها بأن تحرق نفسها . فرفض الحاكم ذلك رفضا باتاً ، لأن البلاد الخاضعة للإسلام أبطلت هذه العادة القاسية .

فلما وجدت توسلاتها عاجزة عن تحقيق رغبتها انطلقت تقول فى غضب شديد : ما أشد حرجنا ! ألا يسمح لامرأة مسكينة أن تحرق نفسها إذا أرادت ذلك !

هل رأى الناس مثل ذلك ؟ إن أمى وخالتى وأخواتى قـــد ظفرن بإحراق أنفسهن ! فإذا ذهبت أطلب السماح لى به من هذا الحاكم اللعين ، يغضب ويصرخ فى وجهى كالمسعور ؟ وعرضاً كان هناك شاب برونزى ، قال له الحاكم : أيها الرجل الكافر . أأنت الذى أوحى إلى هذه المرأة بما فزعها ؟ فقال : لا . ما حدثتها قط . لكن إذا صدقتنى قلت : إنها ستنتفع بهذه التضحية ، لأنها سترضى بها المعبود براهما ، وسيجزيها عنها خير الجزاء ، لأنها ستجد زوجها فى الدار الآخرة ، وستستأنف معه الحياة الزوجية ، فقالت المرأة دهشة : ماذا تقول ؟ سأجد زوجى ثانية ؟ آه ! لن أحرق نفسى من أجله ، إنه كان غيوراً حزيناً ، وفوق ذلك كان عجوزاً حتى إنه إذا لم يكن براهما قد أصلح فيه شيئاً فإنه لن يحتاج إلى . أأحرق نفسى من أجله ؟ لا ، ولا أنملة لأخلصه من قاع الجحيم .

وقد كان هناك عجوزان برونزيان يفتنانى ، ويعرفان كيف كنت أعيش معه ، لم يتورعا عن قول يقولانه لى ، لكن إذا لم يكن لدى المعبود براهما سوى هذه الهدية يقدمها إلى ، فإنى أرفض هذا النعيم . سيدى الحاكم ، إنى أريد أن أسلم . ثم وجهت الخطاب إلى الكافر البرونزى قائلة : تستطيع أن تذهب إلى زوجى لتخبره أنى بصحة جيدة .

من باريس فى ٢ من شوال سنة ١٧١٨ .

الرسالة السادسة والعشرون بعد المائة

من ريكا إلى أوزبك فى ....

سأنتظرك هنا غداً ، ومع ذلك أرسل إليك رسائلك التى أتت من أصفهان . أما رسائلى فتحوى أن سفير جلالة ملك المغول[1] تلقى أمراً بالخروج من المملكة . وفوق ذلك فقد قبض على الأمير خال الملك ، المكلف أن يربيه . واقتيد إلى قصر حبس فيه ، وشددت عليه الحراسة وحرم جميع امتيازاته . وإنى متأثر لمصير هذا الأمير ، رِاثٍ لحاله .

وأعترف لك — ياأوزبك — أننى لم أر طول حياتى دموعاً تسيل من عينى شخص دون أن أتأثر منها .

وإنى أشعر بعاطفة إنسانية نحو البائسين ، كأنه لا أناس فى الدنيا غيرهم بل إن العظماء الذين أحس فى قلبى جفاء نحوهم وهم مرتفعون ، أحبهم حالما يهبطون .

وما يصنع العظماء — فى زمن الرخاء — بحنان لا جدوى منه ؟ إن الحنان يقترب كثيراً من المساواة ، لذلك هم يفضلون أن يحترموا الاحترام

(١) يشير المؤلف هنا إلى مؤامرة أطلق عليها « سيلامار » اشترك فيها سفير أسبانيا ، ودوق ودوقة مين ضد الوصى على العرش ، فاقتيد السفير الأسبانى سلامار تحت حراسة مشددة إلى الحدود ، أما دوق مين فقد سجن فى دولانس ونقلت الدوقة إلى قصر ريجون .

الذى لا يؤملون عودته قط . إنهم حينما يهوون من عليائهم ، لا يذكرهم بعظمتهم إلا رثاؤنا لحالهم .

وإنى لأجد صفة تحوى كثيراً من السذاجة والعظمة فى نفس الوقت تتراءى لى فى قول ملك كاد يقع فى أيدى أعدائه ، وهو يرى أتباعه يبكون حوله : « إنى أرى فى دموعكم أننى لا زلت ملكا عليكم » .

من باريس فى ٣ من شوال سنة ١٧١٨ .

الرسالة السابعة والعشرون بعد المائة

من ريكا إلى إيبن في سميرن

لقد سمعت الناس كثيراً يتحدثون عن ملك السويد الشهير : إنه كان يحصر مكانا ما في مملكة تدعى مملكة النرويج ، وبينما كان وحده يتفقد خندقا مع أحد المهندسين أصابته ضربة في رأسه فأردته قتيلا . فقبض في الحال على رئيس [1] وزرائه ، واجتمعت الهيئات العليا وحكمت بموته .

إنه اتهم بجريمة كبرى : هي أنه خدع الأمة ، فأفقدها ثقتها بملكها . وهي جريمة تستحق — في نظري — أن يعدم ألف مرة .

ذلك لأنها جريمة شنعاء أن يشيء المرء إلى الملك بأقل فرد من رعاياه ، فكيف إذا كانت الوشاية بأمة بأسرها فتحرمها رعاية من أعدته العناية الإلهية لإسعادها ؟

إني أود أن يتحدث الناس مع الملوك ، كما تتحدث الملائكة مع نبينا الكريم .

وأنت تعلم أنه في الولائم المقدسة ، التي ينزل فيها رب الأرباب من عرشه الدنيوي الأسنى ليقرب من عبيده ـ أخذت نفسي بقانون صارم ،

---

(١) قتل شارل الثاني عشر في حصار فردريك شول بالدنمارك ، في ١١ ديسمبر سنة ١٧١٨ ، وقتل رئيس وزرائه الكونت دي جورنس في استكهولم ، في ١٢ من مارس سنة ١٧١٩ . المراجع

هو أن أخضع لسانى الجامح ، فلم يسمع منى أحد مطلقاً كلمة واحدة تند فتؤذى أقل عباده . وفى الأحوال التى تضطرنى إلى الزهد لم أتحول قط عن الأمانة .

وفى هذه التجربة التى تختبر إخلاصنا آثرت المخاطرة بحياتى على المخاطرة بفضيلتى .

ولا أدرى كيف أنه لا يكاد يوجد مطلقاً ملك شرير ، إلا ووزيره أسوأ منه حالا ، ولا يكاد يفعل فعلة شنعاء إلا بإيحاء من الوزراء ، حتى أن طمع الملوك لا يبلغ ما يبلغ من الخطورة إلا بانحطاط نفوس مستشاريه . ولكن هل تدرك أن رجلا لم يدخل الوزارة إلا أمس ، وربما لا يكون فيها غداً ، يمكن أن يصبح فى لحظة عدو نفسه هو ، وعدو أسرته ووطنه ، والشعب الذى سيتوالد على مر الزمان ، ويعانى ما اقترفه الوزير من ظلم . ؟

للملك نزواته ، والوزير يحركها ، وتبعاً لها يوجه وزارته ، ولا يتجه مطلقا إلى هدف آخر ، بل لا يريد أن يعرف غير رغبة الملك . ورجال الحاشية يغرونه ويفتنونه بمدائحهم والوزير أشد خطرا بملقه ونصائحه وخططه ، التى يوحى بها إليه ، وبالأسس التى يقترحها عليه .

من باريس فى ٢٥ من شعبان سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثامنة والعشرون بعد المائة

من ريكا إلى أوزبك في ....

مررت بالأمس فوق « القنطرة الجديدة » مع أحد أصدقائي ، فقابل رجلا من معارفه ، قال لي عنه : إنه من علماء الهندسة ، ولم يكن في مظهره مطلقاً ما ينم عن ذلك ، لأنه كان سابحاً في حلم عميق ، وكان على صاحبي أن يجذبه طويلا من كمه ، وأن يهزه هزاً ليهوى من خياله وينتبه إليه ، فقد كان مرهق الفكر ، قد أضناه التفكير منذ ثمانية أيام أو تزيد ، وتبادلا التحيات ، والأحاديث الأدبية ، وقادتهما هذه الأحاديث إلى باب مقهى ، فدخلت معهما .

وقد لاحظت أن عالمنا هذا قد استقبل في المقهى بحفاوة من جميع الناس ، وأن نُدل المقهى قد اهتموا به أكثر من اهتمامهم بفارسين كانا ينتحيان جانباً في المقهى . أما هو فقد بدا أنه وجد نفسه في مكان حبيب إليه ، إذ انبسطت أساريره ، وجعل يضحك كأنه لم يكن يفكر قط في علم الهندسة .

ومع ذلك فقد كان عقله المنظم يزن كل ما يقوله في أثناء المحادثة فكان أشبه بمن هو في حديقة يضرب بسيفه رءوس الأزهار التي تتسامى فوق مستوى الأزهار الأخرى : وضحية لدقته وسداده أهين إهانة بالغة كالنظر المرهف يتأذى بالضوء الساطع . ولا شيء يثير اهتمامه مادام حقاً وكذلك كان حديثه غريباً . لقد أتى في ذلك اليوم من الريف مع صديق له

رأى قصراً فخما ، ذا حدائق عظيمة ، لكن هذا العالم لم ير القصر إلا مبنى طوله ستون قدما ، وعرضه خمس وثلاثون قدما ، ولم ير الحدائق إلا مكانا ذا شجـــر ، مساحته نحو خمسمائة ألف متر مربع ، وكم كان يتمنى لو أن قواعد الفن التصوّرى روعيت كما روعيت الممرات التى تظهر متساوية فى الاتساع ، وكان يود لو أعطيت لذلك قواعد لا تخطىء . وقد أبدى رضاه عن ساعة شمسية بديعة التكوين ، وثار بحدة ضدّ عالم كان قريباً منى ، لأنه لسوء الحظ سأل : هل تعين هذه الساعة الساعات البابلية ؟ وتحدث صحفى عن ضرب قصر فونتارابى بالقنابل ، وشرح لنا فى لمحة خصائص الخطوط التى مرت بها القنابل فى الهواء ، وكان مزهواً بمعرفته هذه الأشياء ، لكن صاحبنا تجاهل ما أصاب هذا المحدث من نجاح . وشكا رجل من إفلاسه فى الشتاء الماضى بسبب الفيضان فأجابه الرياضى : ما قلته لى يثلج صدرى ؛ لأنه يرينى أننى لم أكن مخطئاً فى ملاحظتى ، وهى أنه لابد أن يسقط على الأرض هذا العام بوصتان على الأقل أكثر مما سقط فى العام الماضى .

وبعد لحظة خرج ، فتبعناه . ولأنه كان ينطلق بسرعة ، ولا ينظر بانتباه أمامه ، فوجىء برجل آخر ، فاصطدما بعنف ، وهذه الصدمة ردت كلا منهما بقوة الى الناحية التى أتى منها لسبب واحد هو سرعتهما ، وجرمهما . ولما أفاقا شيئا ما من دوارهما ، قال هذا الرجل واضعاً يده على جبهته للعالم الرياضى : « إننى مسرور لأنك صدمتنى ، إذ أن عندى لك خبراً هاماً . هو أننى نشرت كتابى عن هوراس » . فأجابه قائلا : كيف ذلك ! لقد كان هذا الرجل يعيش منذ ألفى سنة . فقال الرجل : كأنك لم تفهم ما أريد . إنها ترجمة عن هذا المؤلف القديم أظهرتها للناس ، لقد توفرت على إخراجها عشرين عاما .

فقال الهندسي : ما هذا ياسيدى ! إنك لم تفكر منذ عشرين عاما ! إنك تتحدث عن غيرك ، وغيرك يفكر لك ! فأجابه : أتعتقد ياسيدى أننى لم أقدم للناس خدمة عظيمة إذ هيأت لهم أن يقرءوا المؤلفين مجيدين مشهورين ؟ فقال العالم الرياضى : لم أقل هذا تماما : إننى أقدر أكثر من أى شخص آخر العبقريات السامية التى ألبستها ثوباً جديداً ، لكنك لا تشبههم مطلقاً : لأنك إذا ظللت تترجم لهم ، فلن يترجم لك أحد أبداً .

« التراجم كهذه العملة النحاسية التى لها تماما قيمة القطع الذهبية بل إنها أكثر استعمالا لدى الشعب لكنها ضئيلة دائماً منحطة القيمة » .

تريد أن تقول : إنك تنشر بيننا هؤلاء الأموات المشهورين ، وأنا أعترف لك بأنك منحتهم حقاً أجساما ، ولكنك لم تمنحها الحياة ، وستظل دائماً فى حاجة إلى أرواح لتحيا بها .

أما كان أجدر بك أن تبحث جاهداً عن الحقائق النافعة ، بترتيب سهل يجعلنا نكشف عنها يوما بعد يوم ؟ وبعد هذه النصيحة المزدوجة افترقا ولم يكن أحدهما — فيما أعتقد — راضياً عن الآخر .

من باريس فى نهاية ربيع الآخر سنة ١٧١٩ .

الرسالة التاسعة والعشرون بعد المائة

من ريكا إلى .....

سأحدثك فى هذه الرسالة عن فئة من الناس يدعون الصحفيين ، إنهم يجتمعون فى حديقة فخمة حيث يشغلون فيها دائماً أوقات فراغهم . إنهم عديمو الفائدة للدولة ، فأحاديثهم منذ خمسين عاما ، لا يختلف أثرها عما لو سكتوا هذه المدة الطويلة . ومع ذلك يعتقدون أنهم عظماء يضطلعون بأمور عظيمة ، ويعالجون شئوناً ذات آثار جليلة .

إن أساس أحاديثهم فضول تافه مرذول ، ويدعون أنهم نفذوا إلى كل مكان مهما بلغ خفاء ما فيه ، ولا يسلمون مطلقاً بأنهم يجهلون شيئاً ، فهم يعرفون مثلا كم امرأة عند سلطاننا العظيم ، وكم يلد على مر السنين . وبالرغم من أنهم لا يتكلفون شيئاً فى التجسس فهم يعلمون ما اتخذه السلطان من وسائل لإخضاع إمبراطور تركيا ، وإمبراطور المغول .

ولا يكادون يفرغون من الحديث عن الحاضر ، حتى يسرعوا إلى المستقبل ، ويسبقون القدر ، فيتنبئون بتصرفات الناس : يجذبون قائداً من يده ، بعد أن يمتدحوه بألف حماقة لم يرتكبها ، ويعدون له ألفاً أخرى لن يفعلها .

هم يطيرون الجيوش كالكراكى[1] ، ويسقطون الأسوار كالورق

---

(١) نوع من الطيور .

السميك (الكرتون) . إن لهم قناطر فوق كل الأنهار . وممالك سرية بين الجبال ، ومخازن هائلة فى الرمال المحرقة ، ولا ينقصهم إلا حسن الإدراك .

إنى أسكن مع رجل تسلم هذه الرسالة من صحفى ، ولأنها فى نظرى فريدة فى نوعها ، فإنى أحتفظ بها ، وأبعث بها إليك ، فها كها :

« سيدى :

إنى قلما أخدع فى تخمينى عن أحداث الزمن . ففى أول يناير سنة ١٧١١ تنبأت بأن الإمبراطور جوزيف سيموت فى أثناء العام . حقاً لأنه كان يتمتع بصحة جيدة ، رأيت أنى أسخر بنفسى لو أنى أوضحت الأمر بكلام صريح ، لذلك ألغزت فى عباراتى ، ولكن المتعقلين من الناس وافقونى . وفى السابع عشر من إبريل من السنة نفسها مات الإمبراطور بمرض الجدرى .

وحينما أعلنت الحرب بين الإمبراطور والأتراك بحثت عن رجالنا فى جميع أرجاء التويلرى ، وجمعتهم قريباً من الحوض ، وتنبأت بأن حصاراً سيقع على بلجراد وأنها ستسقط . وكم كانت سعادتى حينما تحققت نبوءتى ، حقاً إنى فى أثناء هذا الحصار راهنت بمائة درهم على أن المدينة سوف تسقط فى الثامن عشر[1] من أغسطس . ولكنها لم تسقط إلا فى اليوم التالى ، فهل يضيع الرهان لاختلاف يسير كهذا ؟ .

وحينما رأيت الأسطول الأسبانى رسا عند سردينية ، قررت أنه

---

(١) سنة ١٧١٧ .

سيغزوها أعلنت ذلك ، وتحقق القول . . ولزهوى بهذا النجاح قلت . إن هذا الأسطول الظافر سيرسو فى فينا ليفتح الميلانيز ، فلما رأيت إباءاً لقبول هذه الفكرة دعمتها بأن راهنت عليها بخمسين درهما لكننى خسرتها أيضاً ، ذلك لأن هـــذا الشيطان : «ألبرونى» — بالرغم من المعاهدات — أرسل الأسطول إلى صقلية لخدع بذلك اثنين من السياسيين: أنا ودوق سافوى .

كل هذا - ياسيدى - غير مسلكى ، فقررت أن أتنبأ دائماً ، وألا أراهن مطلقاً . فيما مضى لم نكن نعرف عادة المراهنة قط فى قصر التويلرى ، ولم يكن الكونت دى لان[1] يسمح بها مطلقاً ، ولكن منذ أن خالطتنا جماعة من صغار السادة ، أصبحنا لا نعلم من أمرنا شيئاً ، فلا نكاد نفتح فمنا لنذيع خبراً ، حتى يتصدى لنا أحد هؤلاء الشبان مقترحاً المراهنة ضد ما نقول .

وذات يوم ، لم أكد أفتح مفكرتى ، وأعدل نظارتى على أنفى ، حتى قال لى أحد هؤلاء المغرورين - منتهزاً الفرصة بين الكلمة الأولى والثانية . « أراهن بمائة درهم أن : لا » ، فتظاهرت بأنى لم ألق بالا لهذا الطيش . وشرعت أتكلم بصوت رصين قوى ، وقلت : « إن القائد ... حين علم ... » فقال لى : « هذا خطأ .. إن أخبارك كلها طائشة ، وليس لما تقول معنى » . أرجوك ياسيدى أن تدخل علىّ السرور بأن تقرضنى ثلاثين درهما ، لأنى أصارحك بأن هـــذه المراهنات قد سببت لى ارتباكا شديداً .

---

(١) هيج دى لبون . وسيذكر مونتسكيو فى هـذه الرسالة أنه رئيس الصحفيين . وعلى ذلك لا يمكن أن يكون وزيراً كما ذهب المؤلف وهو يكتب هذه الرسالة . (المترجم)

وإنى أرسل إليك صورتى الرسالتين اللتين كتبهما إلى الوزير . .
أنى ... الخ .

رسالة من صحفى إلى وزير

إننى أخلص رعايا الملك ، فأنا الذى أرغمت أحد أصدقائى على أن ينفذ المشروع الذى كنت قد صممته لكتاب أظهر فيه أن لويس العظيم كان أعظم الملوك الذين استحقوا هذا اللقب . وإنى أعمل منذ أمد بعيد فى مؤلف آخر سيضيف شرفاً عظيماً إلى شرف أمتنا ، فإذا شاءت عظمتكم أن تمنحنى امتيازاً بذلك ، فإن خطتى هى أن أبرهن على أنه منذ بدء الملكية لم يغلب الفرنسيون قط ، وأن ما قاله المؤرخون إلى هذا الوقت عن مساوئنا هراء وافتراء . وإنى مضطر إلى أن أتصدى لهم فى مواطن كثيرة . وأستطيع أن أفتخر بأننى ذائع الصيت ولا سيما فى النقد .

إننى يا صاحب الفخامة . . . الخ

* * *

يا صاحب الفخامة

منذ فقدنا الكونت دى لان ونحن نتوسل إليك أن تتفضل فتأذن لنا بانتخاب رئيس ، لأن الفوضى تسود اجتماعاتنا ، وشئون الدولة لم تعد تناقش فيها كما كانت تناقش من قبل ، وليس فى حياة شبابنا أى اعتبار للكبار ، وهم فيما بينهم غير مهذبين . إنها — حقاً — نصيحة روبام التى

ترى أن الشباب يجب أن يتحكموا فى الشيوخ . وعبثاً حاولنا أن نوضح لهم أننا كلنا سلفاً نسيطر فى هدوء على التويلرى منذ عشرين سنة قبل ولادتهم . وأعتقد أنهم سوف يطردوننا فى النهاية ، وأننا سنضطر إلى مغادرة هذه الأماكن التى طالما أثرنا فيها ذكريات أبطالنا الفرنسيين ، وإلى أن نعقد اجتماعاتنا فى حديقة الملك ، أو فى أى مكان منعزل . إنى..

من باريس فى ٧ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثلاثون بعد المائة

من ريكا إلى .....

سأحدثك فى هذه الرسالة عن طائفة من الناس يسمون الإخباريين ، يجتمعون فى حديقة فخمة ، حيث يقضون دائماً فراغهم . ماأبعدهم عن نفع الدولة ! فإن أحاديثهم التى قالوها فى خمسين سنة لا فرق بين أثرها ، وبين ما يمكن أن يحدثه سكوتهم هذه المدة الطويلة ؛ ومع ذلك يظنون أن لهم قدرا ، لأنهم تناقشوا فى مشروعات هائلة ، وعالجوا موضوعات ذات نفع عظيم .

والأساس الذى تقوم عليه أحاديثهم تطلع تافه سمج : فليس هناك مكتب خفى الأسرار إلا ويدّعون أنهم ولجوا فيه ، ولا يمكن أن يعترفوا بأنهم يجهلون شيئاً ما ، إنهم يعرفون كم عدد نساء سلطاننا العظيم ، وكم يولد له من الأطفال على مر السنين . وبالرغم من أنهم لا يتكلفون شيئاً فى الجاسوسية ، فهم يعلمون الوسائل التى استخدمها ليقهر إمبراطور الأتراك ، وإمبراطور المغول .

وما كادوا يستنفدون الحاضر ، حتى انطلقوا إلى المستقبل ، وسبقوا القدر ، وتنبئوا بتصرفات جميع الناس . وتناولوا فيما تناولوا قائداً ، فبعد أن مدحوه بشتى الحماقات التى لم يرتكبها ، أعدوا له منها حماقات أخرى لم يرتكبها .

إنهم يرفعون الجيوش كالروافع ، ويسقطون الأسوار كأنها من

الورق المقوّى ، وعندهم قناطر على جميع الأنهار ، ومسالك خفية فى جميع الجبال ، ومستودعات هائلة فى الرمال المحترقة : ولا ينقصهم إلا الفهم السليم .

هناك رجل أسكن معه ، تلقى رسالة من إخبارىٍّ ، وقد احتفظت بها ، لأنى رأيتها طريفة وها كها :

« سيـــدى

« ندر أن أخطىء فى حدسى عن تصرفات الزمن : فقد تنبأت فى أول يناير سنة ١٧١١ أن الإمبراطور جوزيف سيموت فى هذه السنة . ولأنه كان يتمتع بصحة جيدة ، فإنى حقيقة اعتقدت أنى سأستهدف للسخرية إذا أنا شرحت هذا الموضوع بوضوح . فألغزت فى كلامى ، لكن الذين يعرفون كيف يفكرون فهموا ما أعنى جيدا . وفى السابع عشر من إبريل مات الملك بالجدرى .

« ولما أعلنت الحرب بين الأمبراطور والأتراك ، ذهبت لمقابلة سادتنا فى جميع أركان قصور التويلرى ، واجتمعت بهم بالقرب من الحوض ، وتنبأت لهم بأن بلجراد ستحاصر ، ويستولى عليها ، وكم كنت سعيدا إذ تحققت نبوءتى . وحقيقة راهنت بمائة دينار ، فى أثناء الحصار ، على أن الاستيلاء على المدينة سيكون فى ١٨ أغسطس ، فاستولى عليها من الغد : أيمكن أن أخسر الرهان من هذا الحظ من التوفيق ؟

« وحينما رأيت الأسطول الأسبانى يرسو فى سردينية قلت : إنه سيغزوها ، وقد تحقق ما قلت . وقد قلت وأنا مزهو بهذا التوفيق : إن هذا الأسطول حليف النصر سيذهب إلى فينال ليقاتل أهل ميلان . فلما رأيت معارضته لقبول هذه الفكرة أردت أن أؤيدها باعتذار ، فراهنت

بخمسين دينارا ، وقد خسرتها كذلك . ذلك لأن اللعين البيرونى أرسل أسطوله إلى سيسيليا بالرغم من قيام المعاهدات لخدع فى وقت واحد سياسيين عظيمين : أنا ودوق سافوى .

كل ذلك — يا سيدى — عدل بى عن طريقتى عدولا جعلنى أقرر أن أتنبأ دائماً وألا أراهن مطلقا . وقديما كنا فى قصور التويلرى لا نعرف مطلقا عادة المراهنة ، وقلما كان المرحوم الكونت « L » يسمح بها . ولكن عند ما اندست فينا فئة من الشبان واختلطوا بنا لم ندر أين نحن منهم . وما هو إلا أن نفتح أفواهنا لنقول خبرا حتى يغرينا هؤلاء الشبان بالمراهنة .

وذات يوم كنت أفتح مفكرتى ، وأريح نظارتى على أنفى فانتهز أحد هؤلاء المغرورين اللحظة التى بين قراءة الكلمة الأولى والكلمة الثانية فقال لى : « أراهن بمائة دينار أن هذا الخبر مكذوب » . وتظاهرت بأنى لم أكترث لهذا الهوس ، وقلت مستأنفا حديثى بصوت أقوى : « سيدى الماريشال . . . عندما علمت . . . » فقال لى الشاب : هذا خطأ إنك تحمل دائماً أخبارا غير معقولة ، فليس فى كل ما تقول معنى مألوف . فقلت للماريشال : أرجو يا سيدى أن تسرنى بأن تقرضنى ثلاثين دينارا ؛ لأنى أعترف لك أن هذه المراهنات ضايقتنى كثيرا . وإنى أرسل إليك صورتى الرسالتين اللتين كتبتهما إلى الوزير . وإنى . . الخ .

رسالة من إخبارىّ إلى وزير

سيـــدى

إنى من أخلص رعايا الملك الذين يندر أن يظفر بمثلهم . إننى كلفت أحد أصدقائى أن ينفذ المشروع الذى وضعته عن كتاب يبين أن لويس

الرابع عشر كان أعظم الملوك الذين استحقوا لقب : « العظيم » . وإنى دائب منذ وقت طويل فى وضع مؤلف آخر سيكون له أثر عظيم فى تمجيد شعبنا . وإذا شئتم فخامتكم أن تمنحونى امتيازاً فإن خطتى أن أبين أن الفرنسيين لم يهزموا قط منذ بدء الملكية ، وأن ما قاله المؤرخون حتى الآن عن هزائمنا أباطيل أخذت على نفسى أن أصححها فى كثير من المواطن. وأفتخر بأنى لامع فى النقد بوجه خاص ، وإنى يا سيدى . . الخ .

الرسالة الثانية

سيدى

منذ فقدنا الكونت « L » ضرعنا إليك أن تتفضل فتسمح لنا بانتخاب رئيس إذ أن الفوضى شملت مؤتمراتنا ، وشئون الدولة لم تعد تناقش كما كانت تناقش فى الماضى وشبابنا لا يرعى فى حياته أى اعتبار للكبار ، وهم فيما بينهم غير مهذبين . إنها لصيحة روبوم يفرضها الشبان على الشيوخ ، وعبثا بينا لهم أننا كنا قوامين متزنين هادئين على قصور التلويلرى منذ عشرين سنة قبل أن يولدوا ، وأعتقد أنهم سيطردوننا منها آخر الأمر ، وأننا مضطرون إلى هجر هذه الأماكن التى طالما أثرنا فيها أشباح أبطالنا الفرنسيين ، وأن نحرص على عقد مجتمعاتنا فى حديقة الملك ، أو فى أماكن أبعد منها ، إننى . . .

فى باريس فى ٧ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٩ .

الرسالة الحادية والثلاثون بعد المائة

من رهيدي إلى ريكا في باريس

من أكثر الأشياء التي أثارت تطلعي عند وصولي إلى أوربا نشأة الجمهوريات وتاريخها . وأنت تعرف أن أكثر الأسيويين ليسوا محرومين فقط من التفكير في هذا النوع من الحكم ، بل إن تصورهم لا يمكن أن يسمح لهم بأن يدركوا أنه من الممكن أن يكون على سطح الأرض حكم غير الحكم الاستبدادي .

إن الحكومات الأولى في العالم كانت ملكية ، ولم يحدث إلا مصادفة ، وعلى مرّ القرون أن تكونت الجمهوريات .

ولما دمر الطوفان اليونان ، جاء إليها سكان جدد ليعمروها . وقد جذبت معظم هؤلاء السكان من مصر ، ومن أقرب أقطار آسيا إليها . وبما أن هذه الأقطار كانت تحت الحكم الملكي فقد حكم من جاءوا منها بهذا النوع من الحكم ؛ فلما ثقل عليها طغيان الملوك تمردوا عليهم . وعلى أنقاض هذه الملكيات قامت الجمهوريات التي كانت أكثر ازدهاراً في اليونان ، وكانت هي الدولة المتحضرة بين الشعوب الهمجية .

إن حب الحرية ، وكراهية الملوك أبقت اليونان طويلا متمتعة بالاستقلال وامتد منها الحكم الجمهوري إلى آفاق بعيدة . وقد وجدت المدن اليونانية حلفاء لها في آسيا الصغرى ، وأرسلت إليها جاليات حرة مثلها ، استغلتها في إقامة سد دون ما يدبره ملوك الفرس .

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل إن اليونان عمرت إيطاليا، وإيطاليا عمّرت أسبانيا، ومن يدرى لعل عمرانها قد امتدّ إلى بلاد الغال (فرنسا) .

ومعلوم أن بلاد الهسيرى العظيمة، ذات الشهرة فى العالم القديم كانت هى اليونان فى الأصل، رآها جيرانها موطن النعيم : ولكن اليونانيين لم يجدوها قط بلاد السعادة فبحثوا عنها فى إيطاليا، والإيطاليون فتشوا عنها فى أسبانيا، وأهل أسبانيا طلبوها فى البيتيك (البرتغال) : بمعنى أن كل هذه الأقطار حملت هذا الاسم (L'Esperie) عند القدماء . وهذه الجاليات اليونانية حملت معها روح الحرية الذى اقتبسته من هذا الوطن الجميل . ولذلك لم تر ملكيات فى إيطاليا فى العصور الموغلة فى القدم، ولا فى أسبانيا، ولا فى بلاد الغال (فرنسا) . ثم رئى بعد ذلك أن شعوب الشمال وألمانيا لم تكن أقل حرية، وإذا وجدت آثار الملكيات بينهم، فذلك لأنهم اعتبروا قواد الجيوش، ورؤساء الجمهوريات ملوكا .

كان هذا كله فى أوربا : أما آسيا وإفريقية فكانتا دائماً مرهقتين تحت الحكم الاستبدادى إلا إذا استثنينا بعض مدن آسيا الصغرى التى تكلمنا عنها آنفاً، وجمهورية قرطاجنة فى إفريقية .

وقد كان العالم تتنازعه جمهوريتان عظيمتان : جمهورية رومة، وجمهورية قرطاجة . والناس يعرفون منشأ الجمهورية الرومانية معرفة واضحة . ولا يكادون يعرفون شيئاً عن أصل الجمهورية القرطاجية . كما يجهلون جهلا تاماً تتابع ملوك إفريقية منذ ديدون[1]، كما لا يعرفون كيف فقدوا سلطانهم . ما كان أسعد العالم بالعظمة الهائلة للجمهورية

(١) مؤسس الملك فى قرطاجة .

الرومانية لولم تكن هذه التفرقة الظالمة بين المواطنين الرومانيين، والشعوب المنهزمة ولو لم يكن لأمراء الأقطار هذا الحظ العظيم من السلطة ، ولو لم يكتموا الأفواه بالكنوز التي جمعوها من الشعوب ظلما ولو راعوا القوانين المقدسة التي وضعوها لمنع استبدادهم.

ويبدو أن الحرية لم تكن إلا اعبقرية الشعوب الأوربية ، وأن العبودية لم تعدّ إلا للشعوب الأسيوية . وكان عبثاً أن يقدّم الرومان لأهل كابادوكية [1] هذا الكنز الثمين . فإن هذا الشعب الدنيء رفض الحرية ، وحرص على العبودية حرص الشعوب الأخرى على الحرية . لقد استبد قيصر بالجمهورية الرومانية ، وأخضعها لحكم ظالم .

وعانت أوربا طويلا حكما عسكريا عنيفا ، إذ انقلب رفق الرومان إلى كبت فظيع .

ومع ذلك خرج من الشمال عدد لا حصر له من أمم مجهولة ، انتشرت كالسيول فى الأقاليم الرومانية ، ووجدوا الغزو سهلا كالقرصنة ، فقطعوا أوصال الدولة وكونوا من أشلائها ممالك . هذه الشعوب كانت حرة فحدّدت كثيراً من سلطان ملوكهم الذين كانوا هم أنفسهم رؤساء ، أو قواد جيوش . ولذلك فإنه بالرغم من أن هذه الممالك قامت على القوة ، لم تشعر قط بنير المنتصر . ولكن حينما فتحت الشعوب الأسيوية فتوحاتها كالترك والتتر ، خضوعا لإرادة فرد — لم يفكروا إلا فى أن يقدموا له رعايا جددا وأن يقيموا بقوة الجيوش سلطانه القاهر ، لكن شعوب الشمال ، الأحرار فى بلادهم ، عندما اغتصبوا الأقاليم الرومانية لم يعطوا رؤساءهم قط سلطة

---

(١) فى آسيا الصغرى .

واسعة . لكن بعض هذه الشعوب كالفندال فى إفريقية ، والجوت فى أسبانيا خلعوا ملوكهم منذ اللحظة التى كانوا فيها غير راضين عنهم . وعند غيرهم كان سلطان الملك مقيدا بصور شتى : فقد كان عدد من السادة يقاسمونه السلطة ، فالحروب لا يشرع فيها إلا برضاهم ، والغنائم قسمة بين الرؤساء والجند ، ولا تُفرض أى ضريبة لمصلحة الملك ، والقوانين كانت توضع فى مجلس الأمة .

وهذا هو الأساس الذى قامت عليه جميع الدول التى تكوّنت على أنقاض الامبراطورية الرومانية .

من فينيس فى ٢٠ رجب سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثانية والثلاثون بعد المائة

من ريسكا إلى . . . . . .

منذ خمسة شهور أو ستة كنت فى مقهى ، لاحظت فيه رجلا أنيق الملبس إلى حد ما ، يستهوى الآذان بحديثه، وكان يتحدث عن لذة العيش بباريس ، ويأسف لأن ظروفه تضطره للعيش بالأقاليم . وقال : « لدىّ خمسة عشر ألفاً من الجنيهات إيراد مزارعى ، وأعتقد أنى لو كنت أملك ربع هذا المقدار من الثروة من مال سائل يمكن انتقاله من مكان إلى مكان لكنت أكثر سعادة ، وعبثاً ضغطت على المزارعين ، وأرهقتهم بنفقات القضاء ، لأنى بذلك لم أفعل سوى أنى أعجزتهم عن الوفاء بما عليهم ، حتى أصبحت لا أستطيع رؤية ألف فرنك دفعة واحدة . فلو كنت مدينا بعشرة آلاف فرنك فسيحجز على الأرض كلها ، وسأذهب إلى المستشفى .

خرجت من المقهى دون أن أهتم بهذا الحديث ، ولكن حين وجدتنى أمس فى هذا الحى دخلت إلى المقهى نفسه ، فرأيت فيه رجلا مهيباً ذا وجه شاحب مستطيل بين خمسة متحدثين أو ستة ، وكان يبدو كئيباً مفكرا ، ثم تحدث فجأة ، فقال : نعم أيها السادة ـ واختلج صوته ـ لقد أفلست ، ولم يعد لدىّ ما أعيش به ، ذلك لأنى أملك الآن مائتى ألف جنيه من الورق ، ومائة ألف من الفضة وإنى لأجدنى فى وضع مخيف . قد

كنت أعتقد أنى غنى ، ولكن هأنذا بالمستشفى . فلو أنى كنت أملك - على أقل تقدير - قطعة صغيرة من الأرض أستطيع أن ألجأ إليها لأيقنت أنى سأجد ما أقتات به ، ولكن ليس عندى ثراء عظيم كهذه القبقة[1] التى تملك ثروة من الأرض .

وأدرت رأسى عرضاً إلى الناحية الأخرى فرأيت رجلا آخر تنقبض أساريره بشكل جنونى يصيح قائلا : « بمن يثق الإنسان منذ الآن ؟ إن خائناً كنت أعتقد أنه أصدق أصدقائى ، أقرضته مالى ، فردّه إلىّ . أى خيانة فظيعة هذه ! حسناً فعل ، ولكنه سيظل — بحسب تفكيرى — ملوث الشرف » .

وكان قريباً منا رجل زرىّ الهيئة ، قال وهو يرفع عينيه إلى السماء : « فليبارك الله مشروعات وزرائنا ! ولعلى أرى الأجور تصل إلى ألفى فرنك ، ويصير جميع الخدم فى باريس أغنى من سادتهم ! » فدفعنى حب الاستطلاع إلى أن أسأل عن اسمه ، فقيل لى : إنه مسكين ، وحرفته مسكينة مثله ، إنه عالم أنساب ، ويأمل من مهنته — إذا نمت الثروات — أن يحتاج إليه محدثو الثراء ليعدّل أسماءهم ، ويخلصهم من أسماء أجدادهم ، فتُزين مراكبهم .[2] ويتخيل أنه سيخلق أناساً من ذوى النسب الرفيع كما يشاء ، فيطرب لمضاعفة عملياته .

وأخيرا رأيت عجوزا نحيفا شاحب الوجه ، يدخل المكان ، والذى عرفته قبل أن يجلس أنه صحفىّ : وأنه لم يكن من هؤلاء الذين لديهم ثقة فى النصر على حوادث الزمان ، ويتفاءلون بالانتصارات ، بل كان على

(١) يقصد صاحبها وهو المالك الذى سبق الحديث عنه (٢) كمظهر من مظاهر النبلاء

قيض ذلك ، كان من الرعاديد الذين لا يحملون إلا الأخبار الحزينة — ال : « إن الأمور تجرى سيئة فى أسبانيا ؛ فليس لدينا فرسان على الحدود، نخشى أن الأمير « بيو » الذى يسيطر على عدد هائل من الفرســـان لا يستطيع مساعدة لانجدوك .

وكان بإزائى فيلسوف رث الهيئة ؛ كان ينظر الى الصحفى فى كثير ن الإشفاق ، وكان يهز كتفيه كلما اضطرب صوت الآخر ـ اقتربت منه يهمس فى أذنى قائلا : « ألا ترى إلى هذا التافه الذى يحدثنا ساعة عن خوفه على لانجدوك ، على حين أنى لاحظت أمس بقعة فى الشمس إذا ادت خمدت الطبيعة كلها ، ومع ذلك لم أنبس ببنت شفة » .

من باريس فى ١٧ من رمضان سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثالثة والثلاثون بعد المائة

من ريكا إلى ......

ذهبت يوما إلى مكتبة عظيمة فى دير للرهبان ، الرهبان فيها كأمناء لكنهم مضطرون لأن يتركوا جميع الناس يدخلونها فى ساعات محدودة فى النهار .

وعند دخولى رأيت رجلا رزينا ويغدو ويروح بين عدد لا يحصى من المجلدات ، فذهبت إليه ورجوته أن يخبرنى ماتكون هذه المجلدات التى عنى بتجليدها أكثر من العناية بسائر الكتب ، فأجابنى قائلا : ياسيدى إننى غريب الديار ، ولا أعرف فى هذه الأرض إنسانا ، وقد سألنى كثير غيرك مثل هذا السؤال ، وأنت ترى تماما أنى لن أقرأ كل هذه الكتب لأشفى غليلهم فيما يسألون عنه . وعندى أمين المكتبة يجيبك عما سألت جوابا شافيا ، لأنه منكب ليلا ونهارا على فك رموز كل ماترى من الكتب. إنه رجل لا يصلح لشىء ، وهو عبء علينا ، لأنه لا يعمل شيئا للدير مطلقا . وسمعت رنين ساعة الطعام فقال الراهب : « إن من كان مثلى على رأس طائفة وجب أن يكون أول القائمين بالواجبات . » ولم يكد ينتهى من قوله هذا حتى دفعنى إلى الخارج ، وأغلق الباب ، وغاب عن عينى كأنه قد طار .

باريس فى ٢١ من رمضان سنة ١٧١٩ .

الرسالة الرابعة والثلاثون بعد المائة
من ريكا إلى الشخص نفسه

عدت من غدى إلى هذه المكتبة ، فوجدت بها رجلا لا كالذى رأيته فيها فى المرة الأولى : كان سمح المظهر والمحيا ، ظريفا باش اللقاء وما علم تطلعى إلى معرفة ما سألت عنه حتى تكفّل بأن يشبع رغبتى بالإيضاح لاسيما وأنا غريب . فقلت له : ماهذه المجلدات — يا أبى — التى تشغل كل هذا الجانب من المكتبة ؟ فأجاب : إنها شروح للكتاب المقدّس . فقلت : أراها كثيرة العدد ! فلا بد أن الكتابة فى الماضى غامضة جداً ، وصارت الآن واضحة تمام الوضوح .

ألا تزال هناك شكوك ؟ أيمكن أن يكون هناك نقاط تثير الجدل ؟ فأجاب : وماذا نصنع يا إلهى لو وجدت ؟ إنها كثيرة تكاد تبلغ عدد السطور . فقلت ، نعم ، وماذا صنع إذن جميع هؤلاء المؤلفين ؟ فأجابنى بأن هؤلاء المؤلفين لم يبحثوا فيها مطلقاً عما يجب اعتقاده بل عما يعتقدونه هم ، وهم لا ينظرون مطلقاً إلى الكتاب ككتاب يحوى عقائد يجب اعتناقها وإنما يرونه مؤلفاً يمكن أن تستمدّ منه أفكارهم الخاصة سلطانها ؛ ولذلك أفسدوا جميع معانيه ، وأساءوا تأويل فقراته ، وأصحاب المذاهب المختلفة فى هذا الإقليم يغير بعضهم على بعض ، ويسطو كل على الآخر كأنهم فى ميدان حرب تلتق فيه شعوب متعادية ، ويلتحمون فى كثير من المعارك التى يكون بها هجوم وكفاح بصور شتى .

وترى هنا عن كثب كتب الفقه أو العبادات ، ثم كتب الأخلاق ،

وإليك كتب أخرى أكثر فائدة هى كتب اللاهوت ، وهى صعبة مستغلقة مبنى ومعنى ثم التصوّف ، أى كتب العبّاد ذوى القلوب الرقيقة . فقلت له : مهلا يا أبت ، لا تعجل بى ، وحدثنى عن هؤلاء المتصوّفين فقال لى : ياسيدى إن العبادة تصهر القلوب المتهيئة للرقة واللين كما تصهر ما ينبعث من الأفكار فى الرءوس فتنشأ عنها الغيبوبة والنشوة ، وهى حال الشطحات [1] فى التعبد . وكثيراً ما تكتمل هذه الحال ، أو بعبارة أخرى يصل المرء إلى ربّه بالحبّ الطاهر النقىّ الخالص ،وهذا مبدأ الكييتزم[2] Quietisme وأنت تعلم أن المعتنق لهذا المبدأ إما مجنون أو نقى أو فاجر .

لقد رأيت شأن المحللين النفسيين الذين يكشفون ما خفى ، ويصورون لخيالهم جميع البشاعات التى يمكن أن يخلقها شيطان الحب ، يجمعونها ، ويوازنون بينها ، ويجعلونها الموضوع الدائم لأفكارهم .

ما أسعد من لايشارك فى إثم أو ضلالات صريحة واضحة للعيان ، ولايهتم قلبه بالشكليات !.

ها أنت ذا ترى أنى أفكر تفكيراً حرا ، وأنى قلت لك ما أعتقد وقد كنت فى الحق صريحاً ولا سيما معك ، لأنك أجنبىّ تريد أن تعرف الأشياء ، وتريد أن تعرفها كما هى ، ولو أردت أن أدخـــــل فى نفسك الروعة بما أقول لقلت لك دائماً . « هذا مقدس . هذا مبجل . هذا خارق . » وبذلك أصير فى رأيك أحد رجلين . إما مخادعاً ، وإما شخصاً لا شرف عنده .

وبقينا حيث كنا حتى طرأ على الراهب عمل علق حديثنا إلى الغد .

من باريس فى ٢٣ من رمضان سنة ١٧١٩ .

---

(١) تعبير صوفى يراد به الغيبوبة والهذيان — المراجع

(٢) الكييتزم : مبدأ القائلين بعدم وجوب الأفعال فى بعض حالات النفس .

الرسالة الخامسة والثلاثون بعد المائة

من ريكا إلى الشخص نفسه

عدت فى الساعة المحددة ، فقادنى صاحبى إلى المكان الذى كنا قد غادرناه ، ثم قال لى : هاك النحاة واللغويين والمفسرين . فقلت له : ألم يكن أجدر بهؤلاء الناس يا أبى أن يكونوا ذوى عقول رشيدة ؟ فقال : أجل كان فى استطاعتهم ذلك ، ومع هذا يبدو أن مؤلفاتهم ليست أسوأ من تفكيرهم ، وذلك يريحهم كثيراً ، فقلت : هذا حق ، وإنى أعرف كثيراً من الفلاسفة يعكفون على دراسة هذه الأنواع من العلوم .

ثم قال : وهناك الخطباء الذين لهم قدرة على إقناعك مع بعدهم عن التفكير السليم ، وعلماء الهندسة الذين يلزمون المرء إلزاما أن يقبلوا براهينهم . وهذه كتب « ماوراء الطبيعة » التى تهتم اهتماما شديداً بأن تجعل اللانهاية تلتقى بكل شىء . وكتب الطبيعة التى لم تجد فى عجائب هذا الكون الفسيح ونظامه إلا مانجده فى أيسر الآلات التى بين يدى صناعنا . وإليك كتب الطب وهى مظهر لضعف الصلة بين الطبيعة وقوة الفن ، وهى تضطرب عند علاج أيسر الأمراض وتجعل الموت ماثلا أمامنا ، لكنها عندما تتحدث عن مزايا الأدوية تجعلنا فى مأمن من الموت فإننا أزليون لانموت أبداً .

وقريب منها كتب التشريح التى تحوى من وصف أجزاء الجسم الإنسانى وأسمائه إلا تلك الأسماء الحدسية التى أطلقوها عليها وهذا حظ من المعرفة لايشفى المريض من مرضه ، ولا الطبيب من جهله .

وهذه كتب الكيمياء التى تقيم مرة بالمستشفى ومرة بمصحات الأمراض العقلية التى هى خير موطن لها .

وهذه كتب العلوم أو الجهل المقنع فهى تحوى نوعا من الرقى ممقوتا عند جمهور الناس ، وهو عندى يستدر الشفقة .

وهذه كتب التنجيم الفقهى ، فقلت له فى حرارة : ماذا تقول يا أبى ؟ كتب التنجيم الفقهى ! إن لها أعظم التقدير فى فارس ؛ فهى تنظم أعمالنا فى الحياة وتحددها . والمنجمون هم قادتنا الحقيقيون ، بل إن لهم لشأناً أعظم من ذلك فهم الموجهون لسياسة الحكومة . فقال : إذا كان الأمر كذلك فأنتم تعيشون تحت نير أقسى من نير العقل : وهذا أغرب سلطان يتحكم فى الناس . إنى لأرثى لأسرة ، بل لأمة تعيش تحت سلطان الكواكب ، فاستأنفت الكلام قائلا : إننا نستخدم التنجيم عندنا كما تستخدمون الجبر عندكم ؛ فكل أمة تختار العلم الذى توجه به سياستها : وإن جميع المنجمين فى فارس لم يرتكبوا من الحماقات ما ارتكبه واحد فقط من علماء الجبر عندكم .

ألا تعتقد أن جريان الكواكب كيفما كان يعد أدق فى نظامه من التعليلات المقبولة لواضع نظامكم الاقتصادى . وإذا أخذنا الأصوات للتنجيم فى فارس وللرياضة فى فرنسا ، فأى نصر مبين يظفر به التنجيم ! وأى خزى يصيب الرياضيين ، وأى نتيجة مزرية ينتهوا إليها !

وهنا انقطع جدلنا ووجب أن نفترق .

باريس فى ٢٦ من رمضان سنة ١٧١٩ .

الرسالة السادسة والثلاثون بعد المائة
من ريكا إلى الشخص نفسه

فى لقائنا التالى قادنى هذا العالم الذى حدثتك عنه إلى حجرة خاصة وقال لى : « هذه كتب التاريخ الحديث ، وإليك أولا مؤرخى الكنيسة والبابوات ، لقد قرأت كتبهم لأصلح نفسى بما فيها من سِيَر ، ولكن كانت آثارها فى أغلب الأحيان عكسية .

وأما هذه الكتب التى هناك فهى لمؤرخين كتبوا عن سقوط الامبراطورية الرومانية العتيدة التى قامت على أنقاض ممالك كثيرة ، والتى روى عن سقوطها روايات شتى . وكان نتيجة لذلك أن ظهرت فجأة أقوام من البربر لا حصر لهم ، لا يعرف موطنهم الأصلىّ ، ولا من أين جاءوا ، فغمروا فجأة الامبراطورية الرومانية ، واجتاحوها ، ومزقوها وأسسوا جميع ما ترى الآن من ممالك فى أوروبا . ولم يكن هؤلاء الأقوام برابرة بالمعنى الصحيح ، لأنهم كانوا أحرارا ، ولكنهم صاروا كذلك حين خضع أكثرهم للسيطرة المطلقة ، فأفقدتهم هذه الحرية الجميلة التى تلائم العقل والإنسانية والطبيعة .

وهنا ترى مؤرخى الامبراطورية الألمانية التى تعتبر ظلا للامبراطورية الأولى ، وأراها القوة الوحيدة على الأرض التى لم يضعفها التقسيم ، وأرى كذلك أنها ستقوى بنسبة خسائرها ، وأنها تتقدم تدريجيا ، وستظل قوية عزيزة على الرغم من هزائمها .

وإليك مؤرخى فرنسا الذين تجد فى كتبهم أولا كيف تكونت عظمة ملوكها وقوتهم ، وكيف خمدت هذه القوة مرتين ، ثم عادت للحياة من جديد ثم ضعفت لعدة قرون بعد ذلك ، لكنها استردت قوتها ، واتسعت رقعتها ، ووصلت إلى أوج عظمتها : فكانت أشبه شىء بالأنهار التى تفقد مياهها أثناء سيرها ، وتختفى تحت الأرض ثم تظهر من جديد ، وتعظم بما يصب فيها من روافد ، ويقوّى تيارها فيجرف فى سرعة كل ما يعترض سبيلها .

وهناك تجد الشعب الأسبانى الذى قد خرج من بعض الجبال ، والأمراء المسلمين الخاضعين الآن بعد أن فتحوا هذه البلاد فى سرعة عجيبة وتجمعت ممالك صغيرة كونت مملكة واسعة أصبحت الوحيدة ، ثم أعياءا الترف ففقدت قوتها وسمعتها أيضا ، ولم يبق لها إلا الزهو بعظمتها الغابرة .

وهؤلاء هم مؤرخو انجلترا التى تظهر فيها الحرية دائما خارجة من بين نيران الخلافات والثورات . وملكهم يترنح دائما فوق عرش ثابت والشعب نافد الصبر : لكنه متزن التفكير حتى فى غضبه ، وسيدة البحار (وذلك لم يكن معروفا حتى ذلك الحين) تمزج تجارتها بسلطانها .

وبالقرب من هنا ، مؤرخو مملكة البحار الأخرى ، أعنى الجمهورية الهولندية وهى محترمة جدا فى أوربا ، لكنها متجبرة فى آسيا حتى إن كثيرا من الملوك يجثون أمام تجارها .

أما مؤرخو إيطاليا فإنهم يعرضون عليك أمة كانت سيدة الأمم فيما مضى لكنها صارت أمة لكل الشعوب الآن ، وانقسم حكامها

وضعفوا ، ولم يبق لهم من السلطان سوى حظ هزيل من الاشتراك فى سياسة لا غناء فيها .

وهناك مؤرخو جمهوريات سويسرة وهى من الصورة الطيبة للحرية ، والبندقية التى ليس لها موارد إلا حسن تدبيرها لشئون المال ، وجنوة التى ليس لها إلا عظمة مبانيها .

وهذه ممالك الشمال ، ومن بينها بولونيا التى أساءت استعمال حريتها وحقها الطبيعى فى اختيار ملوكها ، وكأنها أرادت أن تأتسى فى ذلك بجاراتها التى فقدتها .

وهنا افترقنا على أن نلتقى فى غدنا .

باريس فى ٢ من شوال سنة ١٧١٩ .

الرسالة السابعة والثلاثون بعد المائة

من ريبيكا الى الشخص نفسه

وفى اليوم التالى صحبنى إلى حجرة أخرى ، وقال لى : إن الشعراء هاهنا وأعنى بهم المؤلفين الذين تحتم عليهم مهنتهم أن يضعوا العوائق أمام الفهم المستقيم ويرهقون العقل باسم اللذة والامتاع ، وهم فى ذلك أشبه بمن كانوا فى الماضى يكدسون على النساء أنواع الحلىّ والزينة حتى يدفنونهن تحت زينتهن وحلاهن .

وأنت تعرفهم فهم ليسوا نادرين فى الشرق ، حيث تسطع الشمس فى حرارة أشد فتلهب كل شىء حتى الخيال .

ثم قال : فهذا شعر الملاحم ، وما أدراك ما شعر الملاحم ؟ فى الحقيقة لا أعرف عنه شيئاً ولكن ذوى البصر بالشعر يقولون : إنه لم يضع منه إلا ملحمتان ، وما عداهما ليس منه وإن وضع تحت اسمه ، وهذا ما لا أعرفه أيضاً ، بل يزعمون أنه من المستحيل أن تنشأ منه قصائد جديدة ، وهذا من أعجب العجب .

وهؤلاء شعراء المسرح ، وهم أحسن الشعراء فيما أعتقد ، فهم المهيمنون على العواطف والمشاعر ، وهم قسمان : شعراء المسرحيات الهزلية ، وهى التى تحرك مشاعرنا فى رفق ، وشعراء المآسى وهى التى تضطرب لها نفوسنا وتهز مشاعرنا هزاً .

وإليك الشعراء الغنائيين ، وإنى أحتقرهم بمقدار احترامى لسواهم فهم يصنعون من فنهم هذيانا منسق الإيقاع .

وبعدهم يجيء شعراء الرعاة ، وشعراء الريف الذين يرضون رجال البلاط ويسرونهم لأنها تعطيهم صوراً من الحياة الهادئة التى يحياها الرعاة فيحسون لحظة بفترة من الهدوء الذى لا يجدونه فى حياتهم .

وأخطر من ذكرنا جميعاً من الشعراء هؤلاء الذين يسلطون أهاجيهم اللاذعة ، كأنها السهام الصغيرة النافذة التى تحدث كلوما عميقة تستعصى على الشفاء .

وهؤلاء كتاب القصة ، وهم نوع من الشعراء يرهقون بدورهم لغة العقل والقلب ، ويظلون طول حياتهم يبحثون عن الطبيعة فلا يجدونها أبدا ، ويخلقون أبطالا خرافيين كالتنين ذى الأجنحة ، والحصان ذى الرأس الآدمى .

فقلت له : لقد رأيت بعض قصصكم ، فإذا ما رأيت قصصنا فستراها أسوأ ، لأنها أيضاً لا تحكى الطبيعة إلا قليلا ، وترهقها تقاليدنا أشد الإرهاق ، إذ لابد للمحب من أن يبرح به الهوى عشر سنوات قبل أن يرى وجه محبوبته ، ومع ذلك فهؤلاء المؤلفون مضطرون إلى أن يدخلوا قراءهم فى تلك المقدمات المملة .

وبما أنه من المتعذر أن تتغير الحوادث : فان المؤلف يعمد إلى أن يكلف أسوأ من الشر نفسه الذى يريد علاجه ويسرف فى المبالغة إسرافاً شديداً.

وإنى على يقين من أنك لن تجد مبالغتهم إلا كالذى زعموا من أن ساحرة أخرجت جيشا من جوف الأرض ، أو أن بطلا وحيدا استطاع أن يسحق مائة ألف من الرجال . وعلى أى حال فهذه هى قصصنا : فى مغامراتها الباردة التى تجلب لنا السآمة بتكرارها ، وإسرافها فى المبالغة تجعلنا نثور عليها .

باريس فى ٦ من شوال سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثامنة والثلاثون بعد المائة

من ريكا إلى إيبن فى أزمير

الوزراء هنا يتتابعون ، وينتهون كالفصول : ففى خلال ثلاث سنوات شهدت النظام المالى يتغير أربع مرات . يقوم الآن فى فارس وفى تركيا نظام الضرائب نفسه الذى أقامه مؤسسو هاتين المملكتين : وكان يجب هنا أن يأخذوا بهذا النظام نفسه .

إننا فى الواقع لا نقدح الفكر كما يفعل الغربيون لأننا نعتقد أنه ليس هناك كبير فرق بين تدبير إيرادات الملك ، وبين تدبير إيراد فرد إلا كالفرق بين عد مائة ألف جنيه أو مائة .

ولكن الأمر هنا أكثر دقة وغموضا . فلابد من مواهب عظيمة تعمل ليلا ونهارا ، لتثمر بلا انقطاع ، وبجهد جهيد ، مشروعات جديدة ، وتستمع إلى آراء عدد لا يحصى من أناس يعملون لهم دون أن يدعوا لذلك . انسحب أصحاب المواهب من المجتمع ، وعاشوا فى عقر مكاتب لا تقتحم من الكبار ، ومقدسة عند الصغار ، ورءوسهم دائما ملأى بالأسرار الهامة ، والخطط العجيبة ، والأنظمة الجديدة ، ولأنهم غارقون فى التفكير لم يحرموا فقط من حسن التصرف فى الحديث ، بل حرموا أحيانا لطف المعاملة .

فلم يكد الملك الراحل يغمض عينيه حتى فكروا فى إقامة نظام جديد . وكان الشعور العام أن الحال سيئة ، ولكن لا يدرون ماذا يفعلون لتحسين

الحال . وكان من سوء الحال أن سلطة الوزراء السابقين لم تكن محدودة فأرادوا تقسيمها . فأنشىء لذلك ستة مجالس أو سبعة ، وربما كانت هذه الوزارة من خير الوزارات التي حكمت فرنسا بكثير من التعقل . وكانت مدتها قليلة كالخير الذى حققته .

كانت فرنسا لدى صوت الملك الراحل جسما مرهقا بشتى الآلام : من[1] حكم البلاد بيد من حديد ، وخلص الجسم من اللحوم التى لا فائدة منها . واستخدم بعض الأدوية الصالحة ، ولكن بقى فى داخل الجسم آفة تحتاج إلى العلاج . فجاء أجنبى[2] ليمارس هذا العلاج . وبعد أن عالجها بكثير من الأدوية العنيفة ، ظن أنه رد إلى الجسم صحته ، ولكنه لم يفعل شيئا سوى أن جعله وارما .

إن جميع من كانوا أغنياء قبل ستة أشهر خلت ، هم الآن فى فقر ، ومن كانوا لا يجدون الخبز يغصّون الآن بالثراء . ولا يمكن مطلقا أن يتقارب هذان الطرفان .

وقد غير الأجنبى حال الدولة ، كما يصنع بائع الثياب البالية : يظهر فى أعلاها ما كان فى أسفلها ، وما كان فى أعلاها يقلبه رأسا على عقب . أى ثروات غير مرجوة ، وبعيدة أيضاً عن الظن ، تحققت لمن كونوها !

إن الله (تعالى) لا ينتشل الناس من العدم أسرع من ذلك . وكم من خدم قام أصدقاؤهم بخدمتهم ، ولعل سادتهم يخدمونهم غدا !

---

(۱) الدوق دى نواى (Noaille) .

(۲) جون لو ، اقتصادى اسكتلندى . ولد فى إدنبره سنة ۱۷۲۹ . وكان المراقب العام للشئون المالية بفرنسا ، وأنشأ شركة الهند ، ووضع فى زمن الوصاية على العرش نظاما ماليا أنشأ بمقتضاه مصرفا ملكيا ، وقد جر نظامه الدمار المالى لكثير من الأسر الفرنسية . المراجع

كل ذلك أحدث أشياء غريبة . فالوصفاء الذين أثروا أيام الحكم الماضى يفخرون اليوم بعراقة نسبهم . وردوا إلى هؤلاء الذين لم يكادوا يتركون ثياب خدمتهم فى شارع ما كل ما تلقوا من احتقار كان يوجه إليهم منذ ستة أشهر . وصاحوا بكل قوة : إن النبالة قد دمرت ! أى فوضى تفشت فى الدولة! وأى خلط حدث بين الطبقات ! لا يرى الإنسان إلا أناسا مغمورين يكوّنون ثروات ! . وإنى أعدك أنهم سيثأرون ممن يأتون بعدهم ، وأنه فى خلال ثلاثين سنة ستحدث طبقة الأشراف دوياً.

من باريس فى غرة ذى العقدة سنة ١٧٢٠.

الرسالة التاسعة والثلاثون بعد المائة

من ريكا إلى الشخص نفسه

هاك مثلا رائعاً لحنان الزوجية ، لا من امرأة من عرض النساء لكنه من ملكة . ذلك أن ملكة السويد (١) ، وقد أرادت بكل ما أوتيت من قوة أن تشرك زوجها الأمير فى التاج ، مهدت للتغلب على جميع العقبات بأن أرسلت إلى جميع المقاطعات قراراً تبدى فيه أنها تتنازل عن الوصاية إذا انتخب الأمير .

ومنذ نيف وستين سنة تنازلت ملكة أخرى تدعى كرستين عن التاج لتتوفر على دراسة الفلسفة . ولا أدرى أى المثلين أروع .

وبالرغم من أنى أستحسن أن يثبت كل شخص فى المكان الذى أعدته له الطبيعة ، فإنى لا أستطيع أن أمدح ضعف الذين يتركون أماكنهم — كنوع من الهرب — لأنهم يرونها دون كفايتهم . ومع ذلك فقد راعتنى العظمة الروحية لهاتين الملكتين ، وما أراه من عقل الأولى ، وقلب الثانية ، وكلتاهما سمت سمواً فوق ما كان لها من مكانة رفيعة : فكرستين ، فكرت فى المعرفة فى الوقت الذى لا يفكر فيه غيرها إلا فى المتع ، والأخرى لم ترد أن تتمتع إلا بأن تضع سعادتها بين يدى صاحب الجلالة زوجها .

من باريس فى ٢٧ من المحرم سنة ١٧٢٠ .

---

(١) هى إلريك إليوتور شقيقة شارل الثانى عشر توفيت فى ٥ من ديسمبر سنة ١٧٥١ فى الرابعة والخمسين من عمرها ، أما زوجها فهو فردريك دى هيس كاسل الذى شاركها فى عرش السويد فى ٤ من إبريل سنة ١٧٢٠ ، وتوفى فى ٥ من إبريل ١٧٥١ ، وقد بلغ من العمر الثانية والسبعين .

الرسالة الأربعون بعد المائة

من ريكا إلى أوزبك في ....

لقد نفي (برلمان [1]) باريس منذ زمن قريب إلى قرية صغيرة تدعى « بنتواز » . « Pontoise » وذلك لأن مجلس الوزراء أرسل إليه قراراً ليسجله أو ليقره ، وكان فيه مساس به فسجله البرلمان ، فوافق بطريقة تسيء إلى كرامة مجلس الوزراء .

وكل مجلس نيابيّ في المملكة مهدد بأن يعامل هذه المعاملة .

هذه جماعات ممقوتة دائماً : إنها لا تقترب من الملوك إلا لتخبرهم بحقائق محزنة . وإذا مثلت جماعة من رجال البلاط شعباً سعيداً بحكم الملوك ، فإنهم لا ينقطعون عن الكذب والملق ، ويحملون إلى أعتاب العرش الأنات والدموع التي هم مستودعها .

إن الحقيقة ـ ياعزيزي أوزبك ـ عبء ثقيل عندما يجب أن تحمل إلى الملوك، وينبغي أن يقدر الملوك أن الذين يحملون الحقائق إليهم يكونون في حرج ، وأنهم لا يحملون أنفسهم قط على هذا التصرّف المحزن ـ المسبب للأسى لمن يتعرض له ـ إلا بدافع من واجبهم ، واحترامهم لملوكهم ، وحبهم إياهم .

باريس في ٢١ من جمادى الأولى سنة ١٧٢٠ .

---

(١) لقد نفي البرلمان في ٢٠ من يوليو سنة ١٧٢٠ ، لأنه لم يوافق على إقرار القرارات التي اتخذها «لو» لنظامه المالي الخاسر . المراجع

الرسالة الحادية والأربعون بعد المائة

من ريكا إلى الشخص نفسه

سأغدو لرؤيتك فى أخريات الأسبوع : ولعلّ أيامك تمضى كما تحبّ !

قُدّمتُ منذ أيام إلى سيدة من سيدات القصر أبدت شيئاً من الرغبة فى أن ترى وجهى الأجنبىّ . وجدتها جميلة جديرة بأن يراها مولانا الملك ، وبأن تحتل مكانة رفيعة فى المكان المقدّس الذى يأوى فيه قلبه .

لقد وجّهت إلىّ سيلا من الأسئلة عن عادات الفرس ، وعن طريقة حياة الفارسيات . وقد بدا لى أن الحياة فى القصر لا تلائم ذوقها ، وأنها تجد اشمئزازا فى أن ترى الرجل موزّعا بين عشر نساء أو اثنتى عشرة . إنها لا تستطيع أن ترى سعادة الرجل من غير حقد عليه وإشفاق على حال النساء . وبما أنها تحب القراءة ، وبخاصة الشعر والقصص ، فقد رجتنى أن أحدثها عن شعرائنا وقصاصينا ، وما حدثتها به ضاعف من تطلعها إلى المزيد ، فرجتنى أن أترجم لها بعض فقرات مما حملته معى ، ففعلت ، وأرسلت إليها بعد أيام قصة فارسية ، ربما سرك أن تراها فى ثوبها الجديد :

فى عصر الشيخ على خان كانت تعيش فى فارس امرأة تدعى سليمى ، كانت تحفظ القرآن الكريم كله عن ظهر قلب ، ولم يكن من الأتقياء من يعرف خيرا منها سير الأنبياء عليهم السلام ، ولم يقل علماء العرب شيئاً مهما كان غامضا إلا فهمت معناه . وكان لها مع علمها الغزير طالع خاص بروح مرحة ،

تجعل الإنسان لا يكاد يعرف . أهى تريد مداعبة من تحدثهم ، أم تريد تعليمهم .

وفى يوم من الأيام كانت مع رفيقاتها فى بهو من أبهاء القصر فسألتها إحداهن رأيها عن الحياة الأخرى ، وعما إذا كانت تصدق ما روى عن العلماء من أن الفردوس لم تعدّ إلا للرجال . فقالت : هذا هو الشعور العام ، إنه لا يراد بنا إلا الانتقاص من شأننا . بل الأمة .

وهذه الأفكار المهينة لنا كثيرا ، ليس لها أصل إلا غرور الرجال . إنهم يريدون العلو علينا حتى بعد حياتهم ، ولا يفكرون فى أن جميع المخلوقات — يوم الحشر — تظهر أمام الله كأنها لا شيء ، ولا تفاضل بينها إلا بالتقوى .

لن يكون لثواب الله حدّ يقف عنده ، وكما أن الرجال الذين سيحيون حياة مستقيمة ويحسنون القيام علينا فى هذه الحياة الدنيا سيكونون فى جنة الفردوس الملأى بالجمال السماوى الساحر ، حتى إنه لو رآها فان لاستسلم للموت من فوره لأنه لا يستطيع صبرا عن هذا النعيم ، كذلك النساء الفضليات سيذهبن إلى دار النعيم ، حيث ينتشين بسيل من اللذات مع الرجال الصالحين الذين يخضعون لهن : وسيكون لكل منهن قصر يغلق على الرجال ، وعدد من الخصيان أيضا أخلص من خصياننا لحراستهم .

ثم قالت : قرأت فى كتاب عربىّ أن رجلا يسمى إبراهيم ، كان يعانى غيرة لا تطاق . وكان له اثنتا عشرة امرأة فائقات الحسن ، وكان يعاملهن أقسى معاملة : وكان لا يثق فى خصيانه ، ولا فى جدران قصره ، فكان يغلق عليهن الأبواب فى أكثر الأوقات ، ويظللن دائماً محبوسات فى حجراتهن فلا يكون بينهن حديث ولا لقاء ؛ لأنه يغار أيضا من الصداقة البريئة ، وكانت تصرفاته كلها تصطبغ بفظاظته الطبيعية ، فلا تخرج أبداً من فمه كلمة عذبة ، ولا تصدر أدنى إشارة عنه إلا وهى تضيف شيئا إلى قسوة

عبوديتهن . وفى يوم من الأيام جمعهنّ فى بهو من أبهاء قصره ، فانبرت له إحداهن ، وكانت أجرأهن ووبخته على طبعه الجافى ، قالت : حينما يبحث الإنسان جاهدا عن الوسائل التى بها يحدث الخوف يجد دائما قبل ذلك الأسباب الموجبة للحقد . لقد بلغنا من الشقاء مبلغالانستطيع معه إلا أن نرغب فى تغير حالنا ، ولو كان غيرى مكانى لتمنى موتك ولكنى لا أتمنى إلا موتى مادمت لاأستطيع الخلاص منك إلا به ، بل إن الموت سيكون بى أرفق ما يكون لأن به خلاصى .

وهذا الكلام الذى كان جديرا أن يؤثر فيه ، أثار فيه غضبا حادا ، فسحب خنجره ، وأغمده فى صدرها . فقالت بصوت المحتضر : رفيقاتى العزيزات إذا رحم الله فضيلتى فإنه سينتقم لكنّ ، ولم تكد تنطق بهذه الكلمات حتى فارقت هذه الحياة التعسة لتذهب إلى الخلد فى النعيم ، حيث تتمتع النساء اللائى عشن عيشة طيبة ، ويستمتعن بسعادة تتجدد دائما .

رأت أول ما رأت مرجا ضاحكا ، ازدهت خضرته بوشى من الأزهار الناضرة ، وجدولا صفا ماؤه حتى صار كالبللور ، تثنى فى المرج تثنيا لاحد له . ثم دخلت غابة وارفة الظلال ساحرة ، لايقطع السكون فيها إلا التغريدالعذب من الأطيار . ثم بدت لها جنات رائعةزينتها الطبيعة ببساطة وبهاء ، وأخيراً وجدت قصرا فخما أعد لها ملىء برجال سماويين خصصوا لخدمتها .

وأسرع اثنان من فورهما ليخلعا عنها ثيابها ، وآخران ليضعاها فى الحمام ، وليعطراها بأذكى العطور ، وأعطياها ثيابا أفخر كثيرا من ثيابها ، ثم نقلاها إلى بهو فسيح وجدت فيه نارا اشتعلت بخشب عطر ، ومائدة حفلت بأشهى الأطعمة . وقد بدا كأن كل شىءيسهم فى إمتاعها : فمن ناحية تسمع موسيقى شجية بقدر ماهى إلهية ، وفى الناحية الأخرى لاترى إلا رقصاً

من رجال الله الذين ليس لهم همّ إلا أن يدخلوا السرور عليها . ومع ذلك فهناك لذات كثيرة ، لا غاية لها إلا أن تسلم إلى لذات أمتع منها . ثم حملت إلى حجرتها ، وبعد أن غيرت ثيابها مرة أخرى، وضعت فى سرير فخم ونامت . وقالت : « لقد فقدت وعيي . لو لم أكن متأكدة من أنى خالدة لظننت أنى ميتة . هذا كثير ، لقد انهالت علىّ النعم . نعم : لقد منحت حواسّى شيئا من الهدوء ، وبدأت أستروح الراحة ، وأعود إلى وعيي . لماذا انتزعوا المشاعل ؟ ما أعجزنى الآن عن تقدير الجمال الإلهى! وما أعجزنى عن الرؤية ! ولكن لماذا أرى ؟ ما أعذب هذه الكلمات! ماذا ! سأظل خالدة » .

ولم يكن طوال اليوم إلا رقص وموسيقى ، وولائم ولعب ونزهات . وقد لوحظ أن « أنايس » تتسلل من وقت لآخر ثم تعود إلى الجمع الذى غادرته بوجهها المشرق دائما . وعند المساء افتقدها الناس : لقد ذهبت إلى القصر ، وأغلقت على نفسها هناك إذ أرادت كما قالت أن تتعرف بهؤلاء الأسرى الخالدين الذين ينبغى أن يعيشوا معها أبدا . وقد زارت فى تلك الأمكنة هذه الأجنحة الداخلية الساحرة بأناقتها ، وهناك عدّت خمسين عبدا ذوى جمال فاتن ، وجالت طول الليل من حجرة إلى حجرة تتلقى تحيات فى كل مكان : تختلف دائما فى عبارتها ، وتتحد دائما فى غايتها .

وهكذا قضت « أنايس » الخالدة حياتها ، وفى كثير من الأحيان تغادر قصرا ساحرا إلى كنّ فى الحقول ، وكأن الأزهار تنبت تحت خطاها ، والملاهى تبدو لها شتى الأنواع .

منذ أكثر من ثمانية أيام وهى فى هذا المأوى السعيد ، فى نشوة بالغة لم يخطر ببالها أى خاطر : إنها كانت تستمتع بسعادتها دون أن

تشعر بها ، ولم يكن لديها لحظة من تلك اللحظات الهادئة التي تحاسب فيها الروح نفسها ، وتستمع إليها في سكون .

قد يكون لدى أسعد الناس متع بالغة قلّ أن تسمح لهم بأن يتمتعوا بهذا الانطلاق الروحيّ ، لأن الأشياء الحاضرة تستهويهم استهواءاً شديدا لا يمكن الخلاص منه ، ويفقدون تماما الذاكرة نحو الماضي فلا يذكرون منه شيئا ، ولا يهتمون أي اهتمام بما عرفوا أو أحبوا في الحياة الدنيا .

لكن « أنايس » ذات الفكر الأصيل في الفلسفة ، قضت جل حياتها في التأمل : وبلغت في التفكير مدى لا يمكن أن تبلغه امرأة تركت وشأنها . إن العزلة الرهيبة التي فرضها عليها زوجها لم تترك لها إلا هذه المزية . وقوة التفكير هذه هي التي جعلتها تزدري الخوف الذي كانت تفزع منه رفيقاتها ، والموت الذي هو النهاية الحتمية لآلامها ، والبداية لسعادتها .

وهكذا خرجت شيئاً فشيئاً من سكرة اللذات ، واعتزلت في جناح بقصرها . واسترسلت في خواطر باللغة العذوبة عن حالها الماضية وسعادتها الحاضرة ، ولم تستطع ألا ترق لشقاء صواحبها ، إنها تحس الآلام التي قاسموها إياها . ولم تكتف « أنايس » بأن تقف عند مجرد الشفقة عليهن : بل انها لفرط إشفاقها على هؤلاء الشقيات شعرت بدافع يدفعها إلى مساعدتهن .

أمرت واحداً من شابين كانا قريبين منها أن يتشكل بصورة زوجها ، ويذهب إلى قصره ، ويصير سيده ، ويطرده منه ويحل محله إلى أن تدعوه .

كان التنفيذ سريعاً : فقد شق الفضاء ، ووصل إلى باب قصر إبراهيم ،

ولم يكن إبراهيم هناك . دق الباب ، ففتحت جميع الأبواب وركع له الخصيان : وطار إلى الأجنحة التى أغلقت على نساء إبراهيم ، وكان قد أخذ فى مروره المفاتيح من (جيب) ذلك الغيور ، لأنه لم يكن ظاهراً له . ودخل فأدهشهم بادىء ذى بدء بمحياه السمح العذب ، وما هى إلا لحظة حتى أثار مزيداً من عجبهم بملاطفته وبإسراعه فى تنفيذ مشروعاته . وكان لكل واحدة منهن حظها من العجب ، ولو لم يكن ما أمامهم حقيقة لظنوه حلما.

وبينما كانت هذه المناظر تمثل فى مسرح القصر ، دقّ الباب إبراهيم ، وسمى نفسه وانطلقت عاصفة ، وصياح . وبعد أن كابد جهداً جهيداً دخل ، وأشاع فى الخصيان منتهى الفوضى والاضطراب . وسار بخطى واسعة ، لكنه رجع القهقرى ، وخرّ صعقاً إذ رأى إبراهيم المزيّف ، إنها صورته الحقيقية ، فى جميع تصرفاته كسيّد للقصر. وصرخ مستنجداً. وأراد من الخصيان أن يساعدوه فى قتل هذا الدعىّ ، لكنه لم يطع . ولم يبق أمامه إلا مدد ضعيف ، هو الاحتكام إلى نسائه . لكن إبراهيم المزيّف كان قد سحر جميع القضاة فى ساعة . فطرد إبراهيم فى هوان خارج القصر، ولو لم يأمر منافسه بالإبقاء على حياته لقتل ألف مرة . وأخيراً ظل إبراهيم الجديد المتحكم فى ميدان المعركة ، فأراهم من نفسه شيئاً فشيئاً أنه جدير بمثل هذا الاختيار ، وبرز لهم بخوارق لم يعهدوها حتى هذه اللحظة وقالت هؤلاء النسوة أنت لاتشبه إبراهيم ، فقال إبراهيم المنتصر : الأولى أن تقولوا : إن هذا المدّعى لا يشبهنى : وماذا ينبغى أن أفعله لأصير زوجكن ، إذا لم يكن هذا الذى فعلته كافياً ؟

قالت النساء : آه ! ما كان لنا أن نشك . إذا لم تكن إبراهيم ، فإنه يكفينا أنك أجدر بأن تكونه : لقد كنت فى يوم واحد خيراً مما كان إبراهيم فى عشر سنين . فقال : إذن هذا وعد منكن لى أن تصوّتا معى

ضدّ هذا الدعىّ ؟ فقلن بصوت واحد لا شك فى ذلك . ونحلف لك أننا سنكن لك إخلاصاً أبدياً ، لم نكن على طول المدى إلا مضطهدات ولم يكن هذا الغادر يحفل بصلاحنا ، وإنما كان يفكر فى ضعفه ، وإننا نرى أن الرجال لم يكوّنوا تكوينه ، لكنّ الرجال أشبه بك أنت : لو عرفت إلى أى مدى أثرت فينا كراهيته له ، فقال إبراهيم المزيّف : آه ! سأعطيكن أسباباً جديدة للحقد عليه ، إنكن لم تعرفن قـط حتى الآن جميع الإساءات التى فعلها بكن . فقلن له : نحن نقدر مقدار ظلمه بشدّة انتقامك . فقال الرجل الإلهى: نعم: أنتن على صواب؛ فقد جعلت التكفير مكافئاً للجريمة : إننى مسرور برضاكن عن مسلكى فى العقاب لكن هؤلاء النساء قلن : ماذا نصنع إذا عاد الدعىّ ؟ فقال : أعتقد أنه سيكون من العسير عليه أن يخدعكن ، ومكانى منكن الآن لا يعينه مطلقاً على استعمال المكر . ومع ذلك سأبعده إلى مكان قصىّ حتى لا تسمعن عنه شيئاً . ومنذ الآن سأتكفل بإسعادكن ، فلن أكون غيوراً ، وسأعرف كيف أطمئن إليكن دون أن أضايقكن : وعندى بجدارتى من اليقين مايجعلنى أعتقد أنكن ستصرن مخلصات لى ، وإذا لم تكن صالحات معى ، فمع من تكن صالحات ؟ .

هـذا الحديث استغرق وقتا طويلا بينه وبين النساء اللاتى أخذن بشدة الاختلاف بين الإبراهيمين ، وبقوة الشبه بينهما ، حتى إنهن لم يستوضحن هذه العجائب الخارقة . وأخيراً عاد الزوج اليائس ليعكر صفوهن، فرأى بيته يغمره السرور، ورأى النساء أجحد مايكنّ من أى وقت آخر، ورأى الوضع يلائم رجلا غيوراً ، فخرج يتميز غيظاً ، وبعد لحظة تبعه إبراهيم الزائف، وأمسك به وحمله فى الهواء ، وتركه على بعد أربعمائة فرسخ .

يا آلهتى ؛ أىّ غمّ استولى على هؤلاء النساء فى غياب عزيزهن إبراهيم

لقد عاد الخصيان إلى قسوتهم المعتادة ، وغرق البيت فى الدموع ، وفكرن مراراً فى أن كل ما لقينه لم يكن إلا حلما ، وأخذ ينظر بعضهن إلى بعض ويتذكرن أقل الحوادث التى مرت بهن فى هذه المغامرات العجيبة .
وأخيرا عاد إبراهيم الرقيق كما عهدنه دائما ، وبدا منه لهن أن رحلته لم تكن شاقة . وهذا السيد الجديد سلك معهن مسلكا مضاداً لمسلك السيد الآخر مما أثار عجب الجيران : لقد طرد الخصيان ، وجعل البيت مستعداً لاستقبال الضيفان ، بل إنه لم يسمح بأن تضع زوجاته الخمر على رءوسهن ، إنه كان من الغريب أن ترى نساؤه فى المحافل بين الرجال مطلقات الحرية مثلهم . اعتقد إبراهيم ، وما اعتقده حق ، أن عادات بلد من البلاد لم تتكون لمواطنين مثله . ومع ذلك لم يرفض أى نفقة : وأسرف إسرافاً بالغاً . فى أموال الغيور ، الذى عاد بعد ثلاث سنوات من بلاد نائية كان قد حمل إليها فلم يجد إلا نساءه وستة وثلاثين طفلا .

فى باريس فى ٢٦ من جمادى الأولى سنة ١٧٢٠ .

الرسالة الثانية والأربعون بعد المائة

من ريكا إلى أوزبك فى . . . .

إليك رسالة وردت إلىّ أمس من أحد العلماء ، وستظهر لك فريدة فى نوعها .

سـيدى

منذ ستة أشهر آلت إلىّ تركة عمّ لى واسع الثراء ، ورّثنى خمسمائة ألف أو ستمائة ألف من الجنيهات ، ومنزلا مؤثثاً تأثيثاً فاخرا . إنه من دواعى السرور أن يملك الإنسان ثروة إذا عرف كيف يستغلها . إنى شخص لا أطماع له مطلقا ، وليس لى ميل إلى اللذات ، فأنا دائما حبيس مكتبى ، أحيا حياة عالم ، يعيش فى هذا المكان ، ويهوى الآثار القديمة المجيدة .

حينما أغمض عمى عينيه ، تمنيت لو دُفن باحتفال كاحتفالات اليونان القدماء والرومان ، ولكن لم يكن لدىّ إذ ذاك أوعية العطر ، ولا جِرار الرفات ، ولا القناديل التى كانت تستعمل قديما .

ومنذ ذلك الوقت اهتممت بتلك الطرف النفيسة ، فمنذ بضعة أيام بعت آنيتى الفضية لأشترى بثمنها مصباحا من الفخار ، كان يستعمله أحد الفلاسفة الرواقيين . ثم تخلصت من جميع المرايا التى كان يغطى بها عمى جدران منزله لأحصل بثمنها على مرآة مشققة قليلا ، كان يستعملها فرجيل ،

وسرّنى أن رأيت فيها وجهى ، لا وجه بجمة مانتو.[1] ولم أكتف بذلك بل اشتريت بمائة جنيه من الذهب خمس قطع أو ستاً من العملة النحاسية التى كان يتداولها الناس منذ ألفى سنة .

ولعلى الآن لا أدرى أن فى منزلى قطعة من الأثاث ، صنعت قبل سقوط الإمبراطورية الرومانية . وعندى فى مكتبى مخطوطات قيمة جدا . غالية جدا ، وعلى الرغم من أنى أقى ناظرىّ بقراءتها ، فإنى أفضّلها على النسخ المطبوعة ؛ لأنها ليست صحيحة تماما ، ولأنها فى متناول الناس جميعا . ومع أنى لا أكاد أغادر المنزل فإنى لم أتخلّ عن ميلى — الذى لا حد له — إلى معرفة جميع الطرق التى كانت مطروقة أيام الرومان . إن بينها طريقا قريبا من بيتى ، مهّده أحد نواب القنصل من الغال منذ نحو ألف ومائتى سنة . وحين أذهب إلى بيتى الريفىّ لا يفوتنى مطلقا أن أمر بهذه الطريق على الرغم من أنها وعرة ، وأنها تطيل المسافة على نحو فرسخ . ولكن الذى يغيظنى هو أنهم وضعوا فيها قوائم من الخشب ، من مسافة إلى أخرى لتعين المسافات بين المدن المجاورة . وكنت أبتئس حين أرى هذه العلامات التعسة حلت محل الأعمدة الألفية التى كانت تستعمل فى الماضى . وإنى لا أتردد مطلقا فى إصلاحها بما ورثته من مال وسأنص على النفقة عليها فى وصيتى . فإذا كان لديك ياسيدى بعض المخطوطات الفارسية فإنك ستضاعف سرورى حين ترسلها إلىّ ، وسأدفع لك كل ما تريده . وسأعطيك فوق ثمن هذه الصفقة بعض مؤلفاتى التى سترى فيها أنى لست عضوا عديم الفائدة فى جمهورية الأدب . وسيجذب انتباهك من بينها موضوع أدبى أبرهن فيه على أن التاج الذى كان يتخذ

---

(١) يريد وجه فرجيل . (المراجع)

فى حفلات النصر فى الماضى — كان من أغصان البلوط لا من الغار.
وسينال إعجابك بحث آخر ، أبرهن فيه بوثائق دامغة ، مأخوذة عن أشهر كتاب اليونان . أن قمبيز جرح فى رجله اليسرى لا اليمنى . وفى بحث ثالث أبرهن على أن الجبهة الضيقة كانت أمارة الجمال الذى يحرص عليه الرومان . وسأرسل إليك أيضا مجلدا من القطع المتوسط أشرح فيه قصيدة من الجزء السادس من إنيادة فرجيل . ولن تتسلم كل هذا إلا بعد بضعة أيام . أما الآن فإنى سأقنع بأن أرسل إليك نبذة مأخوذة من عالم يونانى قديم عن الآلهة ، لم تظهر قط حتى الآن ، وقد كشفتها بين أتربة مكتبة . وسأتركك الآن لعمل هام لدىّ ؛ يتعلق بتمحيص قطعة لبلين عالم الطبيعيات شوهها الناقلون فى القرن الخامس. إننى ياسيدى ..الخ

نبذة لعالم لاهوتى قديم

وُلد طفل فى جزيرة بالقرب من جزيرة أوركار.[1] وكان أبوه إيول إله الرياح وكانت أمه الجنية إلهة الغابات والمياه وهى من كلدونيا. وقيل إنه تعلم بنفسه العَدّ على أصابعه[2] ، وإنه منذ الرابعة من سنه استطاع أن يميز جيدا بين المعادن ، حتى إن أمه أرادت أن تعطيه خاتما من النحاس البراق بدلا من الذهب فعرف خديعتها ، ورماه على الأرض.

ولما شبّ علمه أبوه كيف يحبس الرياح فى زق ، ثم يبيعها للمسافرين. ولكن لما تكن هذه التجارة مربحة فى بلاده غادرها ، وأخذ يجوب البلاد فى صحبة إله الحظ الأعمى .

---

(١) أسكتلندة . (٢) من اليسير أن نعلم أن المؤلف يقصد جون لو ، وقد عرف عنه أنه كان ذا مواهب حسابية منذ نعومة أظفاره (المراجع)

وقد علم فى رحلاته أن الذهب فى بلاد البيتيك[1] يبهر الأبصار فى كل مكان فأسرع إليها الخطى ، فاستقبل فيها أسوأ استقبال ، من ساتيرن حاكمها فى ذلك الزمان . ولكن هذا الإله ما إن ترك الأرض حتى خطر له أن يذهب إلى مفارق الطرق ، وينادى بصوت أجش ، بدون انقطاع : « يا أهل بيتيك ، إنكم تعتقدون أنكم أغنياء لأنكم تملكون الذهب والفضة إن خطأكم جعلنى أرثى لكم . صدّقونى : اتركوا دولة المعدن المرذول . وتعالوا إلى دولة الخيال ، وإنى أعدكم بالثراء الذى يثير عجبكم ، وفى الحال فتح جزءا كبيرا من زقاقه التى أحضرها معه ، ووزع بضاعته على من أرادها » .

وفى اليوم التالى عاد إلى مفارق الطرق نفسها ، وصاح : « يا أهل بيتيك ، أترغبون فى الثراء ؟ تخيلوا أنى أغنى إنسان ، وتخيلوا أنكم كذلك أغنى الأغنياء . وضعوا فى أذهانكم كل صباح أن ثرواتكم قد ضوعفت فى أثناء الليل ، واستيقظوا فى الحال . وإذا كانت عليكم ديون فسددوها مما تخيلتم من ثراء ، وقولوا لدائنيكم أن يتخيلوا ذلك أيضاً » .

ثم ظهر بعد أيام ، وتحدث قائلا : « يا أهل بيتيك ، لقد لاحظت أن خيالكم لم يكن أكثر روعة مما كان فى الأيام الأولى . دعونى أقدكم إلى خيالى . سأضع أمام أعينكم لافتة ستبقى لكم منبع الثروات ، ولن تروا عليها سوى أربع كلمات ، لكنها ستكون واضحة ذات معنى ؛ فإنها ستنظم صداق زوجاتكم ، وشرعية أبنائكم ، وعدد خدمكم . وأما أنتم يا أبنائى الأعزاء (وأستطيع أن أناديكم كذلك ، لأنكم ولدتم مولدا جديدا على يدى) . وستقرر لافتتى فخامة حاشيتكم ، وأبهة حفلاتكم وتحدد حظياتكم ومخصصاتهن » .

---

(١) فرنسا

وبعد بضعة أيام من هذا اللقاء حضر إلى مفترق الطرق يلهث ، ويتميز من الغيظ ، وصاح بهم : « يا أهل بيتيك ، لقد نصحتكم بأن تتخيلوا ، وأرى أنكم لم تعملوا بنصحى ، والآن آمركم بأن تفعلوا». ثم تركهم فجأة. ولكنّ فكرة ردّته ثانية على عقبيه ، وقال لهم : « إننى أعلم أن بعضكم بغيض لأنه يكنز ذهبه وفضته[1] . إنى أسمح بكنز الفضة ، أما الذهب ... الذهب فإن كنزه يهيننى ، ويثير غضبى . أقسم بزقاق المقدسة أن من لا يحمل إلىّ ذهبه لأعاقبنه عقابا صارما » . ثم أضاف بلهجة طائشة : « أتعتقدون أننى أطالبكم بهذين المعدنين التافهين لأحتفظ بهما ؟ ولأدلكم على طهارة نيتى أرد إليكم نصفهما حالما تحضرونهما إلىّ .

وفى اليوم التالى شوهد من بعد ، ولوحظ أنه يتحدث بصوت رقيق فيه تلطف : « يا أهل بيتيك ، لقد علمت أن جزءا من أموالكم فى البلاد الأجنبية . أرجوكم أن تحضروه إلىّ ، فإنكم بذلك تدخلون السرور علىّ، وسأذكر لكم هذا الجميل إلى الأبد » .

تحدث ابن إيول إلى أناس ليس عندهم أى رغبة فى الضحك، ولكنهم لم يملكوا أنفسهم فضحكوا ، مما دفعه إلى أن يعود إلى الحديث ، وهو شديد الارتباك ، ولكن عاودته الشجاعة ، فخاطر مرة أخرى برجاء أخير ، قال : إنى أعرف أن لديكم بعض الأحجار الكريمة ، فباسم جوبيـــتر ، تخلصوا منها ، فلا شىء يجلب لكم الفقر أكثر من وجودها عندكم. تخلصوا منها ، فإذا لم تستطيعوا أن تفعلوا ذلك بأنفسكم، فإنى أكل ذلك إلى رجال أعمال ممتازين فى هذه الناحية . وكم من مال يتدفق عليكم اذا أنتم نفذتم نصيحتى . أجل فإنى أعدكم بأنق ما فى زقاقى » .

---

(١) كان « لو » قد حصل على قرار من مجلس الوزراء يحرم على الفرنسيين أن يحتفظ الفرد بأكثر من خمسمائة جنيه فضة وذهبا . (المراجع)

وأخيرا اعتلى منصته ، وظهر أكثر ثقة بنفسه ، وقال : « يا أهل يتيك ، إنى أعقد موازنة بين حالتكم السعيدة هذه ، وحالتكم التى وجدتكم عليها حين حضرت إلى هنا ، فأراكم الآن أغنى شعوب الأرض ، ولكن لكى أقطع بأمر فى حظكم ، تحملوا أن أقتطع نصف ثرواتكم[1]... » وحينما نطق بهذه الكلمات ، اختفى ابن إيول وطار بجناح سريع تاركا مستمعيه فى ذعر شديد .. وقد حدث أنه جاء فى اليوم التالى وتحدث قائلا : لقد لاحظت بالأمس أن خطابى لم يسركم كثيرا . وعلى ذلك فافرضوا أنى لم أقل شيئا. حقاً إن النصف كثير . وليس هناك سوى أن نستعمل وسائل أخرى لنصل إلى الهدف الذى اقترحه . فلنجمع ثرواتنا جميعا فى مكان واحد . إن هذا يسير جدا علينا لأنها لا تشغل حيزا كبيرا . وفى الحال اختفت ثلاثة أرباعها .

من باريس فى ٩ من شعبان سنة ١٧٢٠ .

---

(١) كان الدفع هو أن يعطى الفرد نصف ماله عملة فضية ، والنصف الآخر عملة ورقية . (المراجع)

الرسالة الثالثة والأربعون بعد المائة

من ريكا إلى ناثانايل ليفى (طبيب يهودى) فى ليفورن

تسألنى رأيى فى فائدة التعاويذ والتمائم التى تجلب الحظ . ولماذا تتجه إلىّ ؟ أنت يهودى ، وأنا مسلم : أعنى أن كلينا من أصحاب المعتقدات .

إنى أحمل معى دائماً أكثر من ألفى آية من القرآن الكريم . وأربط على ذراعى بمجموعة من الأوراق كتب عليها من أسماء الأولياء أكثر من مائتى اسم : كعلىّ وفاطمة وسائر الصالحين واختفت فى أكثر من عشرين موضعاً بثيابى .

ومع ذلك لا أعارض الذين يجحدون الفائدة التى تعزى إلى بعض الأقوال الدينية ، لأنه من العسير علينا جداً أن نرد على حججهم ، كعسر ردهم هم على تجربتنا .

إنى أحمل هذه التمائم المباركة بحكم العادة التى تأصلت على مر الزمن ، لأساير بذلك عادة يمارسها الناس جميعاً . وأعتقد أنه إذا لم تكن لها فائدة أكثر من هذه الخواتم وهذه الحلى التى تتزين بها ، فليست أقل منها فائدة .

وإنك مع ذلك تضع كل ثقتك فى بعض حروف لا تعرف لها سراً ، وتحس أنك دون حمايتها ستبقى فى رعب مقيم .

ما أتعس الناس ! إنهم يموجون دائماً بين آمال كاذبة ، ومخاوف

مضحكة . وبدلا من أن يركنوا إلى العقل يخترعون وحوشاً تخيفهم ، وأشباحاً تفتنهم وتغرر بهم .

أى أثر تريد أن ينجم عن تنظيم بعض الحروف ! وما الضرر الذى ينشأ من فساد ترتيبها ، أى علاقة بينها وبين الرياح ، لتسكين العواصف، وبين بارود المدافع فتتغلب عليها ، وما العلاقة بينها وبين ما يسميه الأطباء المزاج المختل ، وبينها وبين أسباب الأمراض القاتلة فتشفيها ؟ .

إن العجيب فى هذا هو أن هؤلاء الذين يجهدون عقولهم فى أن ينسبوا بعض الأحداث إلى قوى خفية ، لا يبذلون أقل جهد يحول بينهم وبين رؤية السبب الحقيقى .

ستقول لى : إن هناك بعض القوى ذات السلطان على النفوس تعمل على كسب معركة ما ، وأنا من جانبي أقول لك : إنه ينبغى إذن أن نتعامى عن أن نجد فى طبيعة الأرض ، وفى عدد الجنود وشجاعتهم ، وفى خبرات القواد أسباباً كافية تنتج هذا الأثر الذى تريد أن تجهل سببه .

أسلم لك لحظة أن هناك قوى معنوية خافية ، فسلم معى أنت برهة أن ليس هناك هذه القوة مطلقا ؛ لأن ذلك ليس محالا ، وما اتفقت معى عليه لا يمنع من أن جيشين لا يستطيعان أن يقتتلا ، فهل تريد فى هذه الحالة أن أحد الجيشين لا يستطيع أن ينتصر ؟

وهل تعتقد أن مصيرهما سيبقى غير معروف حتى تأتى قوة خافية لتحدده ؟ وأن هذه الضربات جميعها ستذهب سدى ، وأن التعقل سيكون عبثاً ، وأنه لا فائدة من الشجاعة !

أتظن أن الموت الذى يحدث فى هذه الأحوال ، ويتمثل بصور شتى

لا يمكن أن يبعث فى النفوس هذه المخاوف الجنونية التى طالما تحدثت عنها وشرحتها ؟

أتريد أن تقول : إن جيشا قوامه مائة ألف جندىّ لا يوجد فيه جندى واحد جبان ؟ هل تعتقد أن جبن هذا الجندى لا يدخل الجبن فى نفس جندى آخر ؟ وأن الثانى الذى يخذل الثالث ويتركه ، لا يجعل الثالث يخذل الرابع ؟

ولا يتطلب الأمر أكثر من ذلك حتى يستولى اليأس من النصر فجأة على جيش بأسره ؛ بل من السهولة بمكان أن يستولى اليأس على جيش أكبر منه عددا .

كل فرد يعلم ، وكل فرد يشعر أن الناس — كسائر المخلوقات التى تحرص على البقاء — يحبون الحياة بشغف . وذلك معروف بوجه عام ؛ والمراد معرفته : لماذا يخشون فقد الحياة فى بعض الأحوال الخاصة .

وبالرغم من أن الكتب المقدسة لدى جميع الأمم مملوءة بالرعب الرهيب أو الخارق للمعتاد فإنى لا أتصور شيئاً فى مثل هذا العبث ، لأن الأثر الذى يمكن أن يحدث من مائة ألف سبب طبيعى — هو أثر غير طبيعى لا بد أن يختبر مقدما لنعرف إذا لم يكن سبب من هذه الأسباب قد كان له علاقة بهذا الأثر ، وهذا مستحيل .

لن أقول لك شيئاً أكثر من ذلك — يا ناثا نايل — لأنه يبدو لى أن هذا الموضوع لا ينبغى أن يعالج بهذا الاهتمام البالغ .

من باريس فى ٢٠ من شعبان سنة ١٧٢٠ .

ملاحظة : وإذ فرغت ، سمعتُ نداء فى الشارع عن رسالة من طبيب بالريف إلى طبيب بباريس (فهنا كل التفاهات تطبع وتنشر وتشترى) . وأعتقد أننى أحسن صنعا إذ أرسلها إليك ، لأنها تتصل بموضوعنا . إن فيها أشياء كثيرة لا أفهمها ، لكنك كطبيب لابد أن تفهم لغة زملائك .

رسالة من طبيب ريفىّ إلى طبيب بباريس

كان فى مدينتنا مريض لم يذق طعم النوم منذ خمسة وثلاثين يوما : فأمره طبيبه بأن يتعاطى الأفيون ؛ لكنه لم يستطع الاقتناع بتناوله ، وقد كان والكوب فى يده أكثر ترددا من أى وقت آخر . ثم قال لطبيبه : « سيدى ، أطلب إليك أن تمهلنى إلى غد فقط : فأنا أعرف رجلا لا يمارس مهنة الطبّ ولكنه يحتفظ لديه بعدد لا يحصى من الأدوية ضد الأرق ؛ فاسمح لى بأن أرسل فى طلبها ، وإذا لم أنم هذه الليلة فإنى أعدك بأن أستعين بك » .. انصرف الطبيب ، وأرخى المريض الستائر ، وأمر وصيفا صغيرا بقوله : « اذهب إلى السيد أنيس ، واطلب منه أن يحضر لمقابلتى » . وحينما جاء أنيس ، قال له المريض : « سيدى أنيس ، إننى أموت إذ لا أستطيع أن أنام ، أليس عندك فى دكانك الـ C. du. G. أو أىّ كتاب للصلاة من تأليف ر. ب. ج ، لم تستطع بيعه ، فالغالب أن الأدوية الأكثر كسادا هى خير الأدوية . فأجابه الكتبى : سيدى ، عندى الدراسة المقدسة للأب كوسان ، وتقع فى ستة أجزاء وهى تحت طلبك . سأرسلها إليك ، وأرجو أن تستفيد منها . وإذا أردت مؤلفات الأب المبجل رودريج ، اليسوعى الإسبانى ، فلن أؤخرها عنك . لكن صدقنى ، لنحرص على علاج الأب كوسان ، فإنى أرجو بعناية الله أن تكون فترة مع الأب كوسان ذات أثر أعظم من كل ما كتبه « C. du. G. » . وعلى ذلك

خرج السيد أنيس وأسرع ليحضر الدواء من دكانه . وجاءت الدراسة المقدسة : ونفض عنها الغبار وشرع ابن المريض ، وهو طالب صغير ، يقرأ : فكان أول من تأثر منه ، من الصفحة الثانية ، فلم ينطق إلا بصوت غير واضح النبرات ، وشعر كل الحاضرين بالضعف .

وبعد لحظة ، علا شخير الجميع ماعدا المريض ، الذى غالب طويلا ، ثم استسلم للنوم أخيرا .

وفى الصباح الباكر حضر الطبيب وسأل : « ما الحال ؟ » ، هل أخذ أفيونى » ، فلم يجب بشىء : وإنما أشارت الزوجة ، والبنت ، والغلام ، والسرور يغمرهم جميعاً إلى كتاب الأب كوسان ،فسأل ما هذا ؟ فقيل له: « يحيا الأب كوسان ! يجب أن يرسل الكتاب لتجليده ! من كان يصدق هذا ؟ من كان يظن هذا ؟ إنها لمعجزة ! انظر ياسيدى إلى هذا الأب كوسان : هاك المجلد الذى أنام أبى » . ثم شرحوا له الأمر كما حدث .

وكان الطبيب رجلا يسهل التأثير فيه ، مفعما بخفايا المعميات ، وسلطان الكلام ، والأرواح : فبهره هذا ، وبعد كثير من التفكير ، قرر أن يغير خطة علاجه تغييراً تاماً ، وقال هذا حديث فريد من نوعه ، انتفعت منه بتجربة ، يجب أن تذهب بها إلى أبعد مدى . وإذن فلماذا لا يستطيع العقل أن ينقل خواصه إلى مؤلفه ؟ ألا نلحظ ذلك دائما ؟ أو على الأقل فإنه يكافىء الشعب فى محاولته. لقد تعبت من الصيادلة ، وأشربتهم ، ومسكناتهم وجميع العقاقير التى تهلك المرضى ، وتسىء إلى صحتهم : فلنغير الطريقة ؛ ولنجرب قوة الأرواح . وعلى أساس هذه الفكرة أقام صيدلية جديدة ، كما سيظهر من الوصف الذى سأسوقه إليك عن أدوية أساسية تستخدم فى العلاج :

شراب ملين

خذ ثلاث ورقات من منطق أرسطو بالإغريقية ؛ وورقتين من بحث عميق فى الفلسفة اللاهوتية كأبحاث العالم الدقيق سكوت ، وأربعاً من راسلس ، وواحدة لابن سينا ، وستاً من ابن رشد ، وثلاثاً ليورفير ، ومثلها لبلوتان ، وكذلك من جمليك ، ثم انقعها كلها مدة أربع وعشرين ساعة ، وتناول منه أربع مرات كل يوم .

مسهّل أقوى

خذ عشرا من ...A من ...C الخاصة بـ ...B و ..C ...I [1] وقطرها فى ماء ساخن يوضع داخله إناء فيه هذه الوصفة ، ولينها بقطرة من مزاج حريف حاد ينشأ من هذا الخليط ، وضعها كلها فى كوب ماء ، وابتلع كل ذلك فى ثقة تامة .

مقيء

خذ ست مواعظ دينية ، وعشر من المراثى وفق هواك ، واحذر — مع ذلك — أن تستخدم خطب السيد [2] ومجموعة من الأوبرا الحديثة ، وخمسين قصة ، وثلاثين من المذكرات الجديدة ، وضعها جميعا فى وعاء ، ثم دعها تتخمر لمدة يومين ، ثم قطرها على نار الرمل ، وإذا لم يكفف ذلك كله ، فهاك وصفة أخرى :

---

(١) تلميح إلى عشرة قرارات اتخذها مجلس الوزراء خاصة بالبنك وشركة الهند. أو لعل المؤلف يشير الى دستور اليسوعيين .

(٢) يشير الى مراثى فليشيه أسقف نيم .

(المترجم)

مقيء آخر أقوى منه

خذ ورقة من الورق الملون بلون الرخام ، الذى كان يستخدم فى تغليف مجموعة مسرحيات J.F. ، وانقع سطحها لمدة ثلاث دقائق . وسخن ملعقة من هذا النقيع ، ثم اشربها .

دواء بسيط جداً لعلاج الربو

اقرأ جميع مؤلفات الأب المبجل ممبورج ، اليسوعى الآنف الذكر ، واحرص على ألا تقف إلا فى نهاية كل عبارة ، وستشعر أنك ستستريح من صعوبة التنفس شيئاً فشيئاً ، دون أن تحتاج إلى أن تكرّر الدواء .

للوقاية من الجرب ، والجرب الجاف ، والقراع ، والتهاب الأغشية المخاطية

تؤخذ ثلاث مجموعات لأرسطو ، ودرجتان مما وراء الطبيعة ، وواحدة من الامتياز ، وستاً من شعر شابلان ، وجملة مأخوذة من رسائل القسيس ذى سان سيران ، واكتب الجميع فى ورقة ، وطبقها ، واربطها بشريط ، تعلقه فى عنقك .

هذه هى العقاقير التى استخدمها طبيبنا بنجاح يفوق الخيال : قال إنه لا يريد أن يهلك مرضاه باستخدام أدوية نادرة ، لا تكاد توجد مطلقا : فعلى سبيل المثال رسالة إهدائية لم تسبب لأحد تثاؤبا ، ومقدمة قصيرة جداً أو منشور حرّره أسقف ، أو عمل لرجل من رجال الدين محتقر من زميله ، أو هو محل إعجاب رجل من مذهب دينىّ آخر . ويقول : إن هذه الأنواع من الأدوية ، ليست شيئاً إلا للاحتفاظ بادعاء العلم الذى يلقى اشمئزازاً لا يطاق .

الرسالة الرابعة والأربعون بعد المائة

من ريكا إلى أوزبك

وجدت هنا منذ أيام بمنزل من منازل الريف الذي جئت إليه — عالمين يتمتعان بشهرة واسعة . ويبدو لى سلوكهما مثيراً للعجب . وكان حديث الأول عظيم القيمة يتلخص فى قوله : « ماأقوله حق لأننى قلته . . » . أما حديث الثانى فيتجه اتجاها آخر : فهو يقول : « إن ما لم أقله باطل : لأنى لم أقله . . » .

أحببت الأول كثيراً ، لأن اعتزاز المرء برأيه لا يضيرنى قط ، أما أن يكون الشخص سفيهاً فذلك أتأذى منه كثيراً . إن الأول يدافع عن آرائه، وهذا حقه ، أما الآخر فهو يهاجم آراء سواه ، وهو اعتداء على حقوق الناس جميعاً .

أف لهؤلاء ، ياعزيزى أوزبك ! ما أضر الغرور بمن أوتوا منه حظاً أكبر مما يحتاجون إليه فى المحافظة على كيانهم . إن مثل هؤلاء القوم يريدون أن يكونوا محل إعجاب الناس بإمعانهم فى إسخاطهم . إنهم يحرصون على أن يكونوا أسمى من الناس، وليتهم يحظون بأن يكونوا امثلهم.

أيها المتواضعون ، تعالوا أقبلكم ، أنتم رقة الحياة وبهجتها . تظنون أنكم لا تتحلون بشىء ، وأنتم تزدانون بكل فضل . وتحسبون أنكم لا تغضون من قيمة أحد ، والوقع أنكم تغضون من شأن الناس جميعاً .

وحينما أفكر فى الموازنة بينكم وبين هؤلاء المغترين بأنفسهم حيثما كانوا ، أنزلهم من عليائهم ، وأضعهم تحت أقدامكم .

من باريس فى ٢٢ من شعبان سنة ١٧٢٠ .

الرسالة الخامسة والأربعون بعد المائة

من أوزبك إلى ......

إن رجل الفكر يكون عادة عسيراً فى المجتمعات . إنه يصطفى قليلا من الناس ، إذ يضيق ذرعا بهذا العدد الكبير الذى يعجبه أن يسميه الصحبة السيئة ؛ ومن العسير عليه ألا يحس شيئا من النفور منهم كما لو كانوا أعداء .

وهو يثق بأنه يثير الإعجاب متى أراد ، لكنه يهمل ذلك فى أكثر الأحيان .

وهو يجنح إلى النقد لأنه يرى من الأشياء ما لا يرى غيره ، ويحس أكثر مما يحسّ سواه .

ويكاد يخسر دائما ثروته ، لأن عقله يقدم له لذلك أسباباً شتى . إنه يخفق فى مشروعاته ؛ لأنه يخاطر كثيرا . ونظره الذى يرى بعيدا ، يريه الأشياء وهى على بعد شاسع . ولا يلقى بالا لعقبات مشروع ما عند نشوئه لأنها تأتى من طبيعة المشروع ، لكنه يرى العلاج لأنه آت من عنده هو ، نابع من أعماقه .

إنه يهمل التفاصيل الدقيقة التى يتوقف عليها مع صغرها نجاح معظم الأعمال الجسيمة .

أما الرجل قليل الذكاء ، فإنه على عكس ذلك ، يحرص على أن يستفيد من كل شىء ، ويشعر شعورا عميقا أنه لا يفقد مطلقاً شيئا بالإهمال .

إن الرضا العام غالبا ما يكون من حظ الرجل قليل الذكاء . ويسرّهم أن يعطوه ما يسلبونه الذكيّ . وبينما يصُبّ الحسد فوق رأس أحدهما ، ولا يغفر له شيء ، تُلتمس المعاذير للآخر : ويكون الغرور من حظه .

وإذا كان الذكى من الناس يتعرض لمثل هذا الخسران المبين ، فماذا عسى أن نقول عن الوضع السيء للعلماء ؟

إنى لا أفكر فى ذلك مطلقا إلا تذكرت رسالة لأحدهم كتبها إلىّ أحد أصدقائه وهاك نصها :

« سيدى ...

« إنى رجل مكبّ طول الليالى على النظر بمنظارى الذى يبلغ طوله ثلاثين قدما إلى هذه الأجرام السماوية التى تسبح فوق رءوسنا ، وإذا أردت أن أريح نفسى أخذت مجهراً صغيراً لأفحص ثمة أو سوسة .

« لست غنياً البتة ، وليس عندى إلا حجرة واحدة ، لا أستطيع أن أوقد بها نارا لأن معى مقياس الحرارة ، وأى حرارة غير الحرارة الطبيعية ستجعله يسجل ارتفاعا . وفى الشتاء الماضى ظننت أنى سأموت من البرد ، وبالرغم من أن مقياس الحرارة سجل أحط درجة ، وأنذرنى بأن يدى ستجمدان ، فإنى لم أغيّر وضعى ، وكان عزائى أننى علمت علما دقيقا تغيرات الجوّ التى لا تكاد تدرك مدى السنة الماضية كلها .

« وقلّ أن أتصل بأحد ، وجميع الناس الذين أراهم لا أعرف منهم أحداً . لكن رجلا فى استكهولم وآخر فى ليبزج وثالث فى لندن ، لم أرهم قط ، ولن أراهم أبدا بلا شك ، اتصل بهم بمراسلة منتظمة جدا إلى حد أنى لا أدع بريدا يسافر دون أن أكتب إليهم .

«وعلى الرغم من أنى لا أعرف أحدا فى الحى الذى أسكنه، فإن لى فيه شهرة بلغت من السوء مبلغا سيضطرنى آخر الأمر إلى الانتقال منه. ومنذ خمس سنوات وأنا أتلقى بقسوة إهانات من إحدى جاراتى لأننى شرحت كلبا تدعى أنها تملكه. وكانت عندها امرأة قصاب [1] شاركتها فى شرها، فبينما كانت تنهال على الأولى بالإهانات، كانت الأخرى تقذفنى بالحجارة ومعى الطبيب... الذى كان يرافقنى، والذى تلقى ضربة عنيفة فى عظم الجبهة والقذال[2] اضطرب منها مخه.

« ومنذ ذلك الوقت إذا تسرب أى كلب إلى نهاية الشارع تقرر على الفور أنه مر بين يدى.[3] وقد حدث أن سيدة من الطبقة المتوسطة [4] فقدت من الكلاب جروا، تحبه - كما تقول - أكثر من أولادها، جاءت عندى بالأمس، وأغمى عليها فى حجرتى، ولما لم تجده شكتنى إلى الحاكم. وأعتقد أننى لن أتخلص من الأذى الدنىء من هؤلاء النساء اللائى يحدثن لى بأصواتهن المزعجة دوارا دائما، وهن يرثين جميع الأجساد التى فنيت منذ عشر سنوات .

« إننى . . الخ .

« وقديما اتهم جميع العلماء بالسحر . ولا أعجب لذلك مطلقا . فكل واحد يقول فى نفسه : « إننى أستخدم المواهب الطبيعية إلى أبعد مدى يستطيعه الناس ، ومع ذلك هناك من العلماء من يفوقنى ، فلابد إذن من أن هناك حيلا شيطانية. »

---

(١) جزار (٢) القفا (٣) أى لأشرحه . (٤) برجوازية

والآن وقد افتضحت مثل هذه الاتهامات الباطلة. فقد اتُّبع طريق آخر، فلا يستطيع عالم أن يتجنب اتهام الناس إياه بالزيغ أو الإلحاد. ومهما غفر له الشعب ما نسب إليه، فإن الجرح قد شق، ولن يلتئم أبداً بل سيظل دائماً مصدراً للألم.

ثم يأتى منافس له بعد ثلاثين عاما، ويقول له فى تواضع: « إن الله (تعالى) لا يرضيه أن أقول: إن ما اتهموك به حق، ولكنك اضطررت إلى الدفاع عن نفسك » وهكذا تلتوى التبرئة نفسها لتصبح اتهاماً.

وإذا كتب العالم تاريخاً، وكان فيه نبيل التفكير، مستقيم الخطة، فإنه يلقى من الناس عنتاً ويبلغ بهم الحال أن يثيروا عليه الحاكم ليحاكمه لحادث مضى عليه أكثر من ألف سنة. ويراد منه أن يكون قلبه أسيراً إذا لم يكن حقيراً.

إن أسعد الناس إذن هؤلاء الأنذال الذين يتخلون عما يعتقدون بثمن بخس. والذين يمارسون أنواع المخادعة والنفاق بالتجزئة، دون أن يتقاضوا عن ذلك فلساً، والذين يقلبون نظام الإمبراطورية رأساً على عقب، فينتقصون حقوقا لسلطة، ويزيدون حقوق سلطة أخرى، ويمنحون الملوك، ويسلبون الشعوب، ويحيون قوانين قد بطل العمل بها، ويتملقون أهواء أهل زمانهم كما يتملقون مساوئ العرش، فارضين على الأجيال الآتية الكثير من الهوان، دون أن تتاح لها الوسائل للقضاء على الأدلة التاريخية.

وليس ما يلقاه مؤلف مقصوراً على ما يكابد من أنواع السباب والقذف، ولا على قلقه الدائم على نجاح مؤلفه. وأخيراً يظهر الكتاب الذى كلفه جهداً جهيداً، فيثير عليه الشحناء من كل ناحية فكيف يتجنبها؟

إن له عاطفة يدعمها بما يكتبه ، ولكنه ما يلبث حتى يجد كاتباً على بعد مائتي فرسخ منه ينقض له كل ما كتب . وهذه حرب تعلن .

وليته يستطيع أن يؤمل فى حظ من التقدير والاعتبار ! لا أمل . . وأكبر مايصبو إليه أن ينال تقديرا من الذين يمارسون العلم الذى يمارسه.

إن الفيلسوف يزدرى الرجل الذى يمتلىء رأسه بالحقائق ازدراء شديدا ، وهذا الذى يتمتع بذاكرة قوية يرى من جانبه الفيلسوف رجل خيالات وأوهام . .

أما هؤلاء الذين ينعمون بحالة مغرورة فإنهم يريدون للنوع الإنسانى أن يقبر فى عالم النسيان الذى سيصيرون إليه هم أيضاً .

إن الرجل الذى تنقصه موهبة ، يعوض هذ النقص بازدرائها : وبذلك يزيل العقبة التى تحول بينه وبين التقدير والاعتبار ، ومن هنا يجد نفسه فى مستوى أولئك الذين تخيفه أعمالهم .

وأخيراً ، لابد أن تقترن الشهرة المشكوك فيها بالحرمان من اللذات، واعتلال الصحة .

من باريس فى ٢٠ من شعبان سنة ١٧٢٠ .

الرسالة السادسة والأربعون بعد المائة

من أوزبك إلى رعسبدى فى ڤنيس

يقال من قديم الزمان : إن النزاهة كانت روح الوزير العظيم .

إن أى فرد يستطيع أن يتمتع بالظلام الذى يعيش فيه ، فلا يفعل ما يخدش سمعته إلا أمام بعض الناس ، ويظل مستوراً أمام سائرهم ، أما الوزير الذى تنقصه الاستقامة ، فعليه شهود وحكام بعدد أفراد الشعب الذى يحكمه .

أأسمح لنفسى بأن أقول لك : ليس الخطأ الذى يرتكبه وزير غير أمين هو إساءته إلى ملكه ، أو تضييعه مصالح شعبه ، بل هناك فى رأيي ماهو أخطر من هذا : أن يكون للناس قدوة سيئة .

أنت تعرف أننى جبت بلاد الهند زمناً طويلا ، فرأيت فيها شعباً كريما بطبعه ، قد فسد فى لحظة واحدة ، من أدنى أفراد الشعب إلى عظمائه ، بسبب وزير من وزرائها ، كان لهم قدوة سيئة . رأيت فيها شعباً بأكمله يتحلى بالجود والاستقامة ونقاء السريرة والأمانة . وظلت هذه الصفات طبيعة فيه ، ثم صار فجأة أحط الشعوب : فشا فيه الفساد ، ولم ينج منه أحد حتى أطهر الناس . ومن كانوا خير الناس أصبحوا يعملون الأعمال الخسيسة ، ويتعسفون ، ويتعدون أوليات مبادىء العدالة فى كل فرصة بحجة واهية ، هى أنهم حرموا العدالة وقد طالبوا بالقوانين الممقوته لحماية أحط الأعمال وسموا الظلم والخيانة ضرورة .

ورأيت الالتزام بالعقود مطروحا ، ورأيت العهود قدس ملغى ، وجميع قوانين الأسر مهدرة .

ورأيت أناسا يحبون المال حباً جماً. ويفخرون بفقر مدقع ، وهم آلات غير جديرة بأن تقيم القوانين لهم وزنا ، ولا تعبأ بهم قسوة الزمان، يتظاهر أحدهم بسداد الدين بدلا من قضائه، ويضع الخنجر فى صدر من يحسنون إليه.

ورأيت آخرين أولى بالازدراء ، أولئك الذين يشترون ممتلكات الأرامل واليتامى بثمن بخس ، أو على الأصح يجمعون أوراق البلوط من الأرض ليدفعوها ثمناً لهذه الممتلكات، ورأيت ظمأ إلى الثراء لا يرتوى، نشأ فجأة فى جميع القلوب . ورأيت مؤامرة كريهة تدبر للإثراء فى برهة ، لا عن طريق عمل شريف ، أو صناعة كريمة ، ولكن عن طريق هلاك «الراجا» والدولة والرعية .

ورأيت مواطنا شريفاً فى هذه الأزمنة التعسة لا ينام إلا قائلا : إنى هدمت اليوم أسرة ، وسأهدم غداً أسرة أخرى .

وثانياً يقول : سأذهب مع رجل أسود يحمل محبرة فى يده ، وقطعة حديد مدببة على أذنه لاغتيال كل من أكون مديناً لهم .

وثالثاً يقول : إنى أدبر أعمالى : حقيقة عندما ذهبت منذ ثلاثة أيام لأتقاضى دينا ، تركت أسرة بأسرها تذرف الدمع مدرارا لأنى قضيت على صداق فتاتين طاهرتين ، وحرمت غلاما من التربية ، والأب يموت لذلك حزنا ، والأم تهلك من الأسى . ولكنى لم أفعل سوى ما يسمح لى به القانون .

ياله من جرم عظيم ذلك الذى يفعله أحد الوزراء ، إذ يفسد آداب أمة

بأسرها ويفسد النفوس الكريمة ، ويطفىء ضياء القيم الخلقية ، ويظلم الفضيلة نفسها ، ويجعل أشرف الناس أهلا لازدراء العالم .

ماذا يقول الأبناء عندما يتحتم أن تحمر وجوههم خجلا من عار الآباء؟ ماذا يقول الشعب الوليد عندما يوازن بين حديد أجداده ، وذهب الذين ولدوه حديثاً ؟ إنى لا أشك فى أن الأشراف يتنازلون من أحسابهم عن درجة يسيرة تخدش شرفهم ، ولا يتركون أبناء العصر الحاضر فى حضيض العدم الذى تردّوا فيه .

من باريس فى ١١ من رمضان سنة ١٧٢٠ .

الرسالة السابعة والأربعون بعد المائة

من كبير الخصيان إلى أوزبك في باريس

إن الأمور قد وصلت إلى حالة لا يمكن احتمالها فنساؤك تخيلن أن رحيلك جعلهن في حصانة تامة من العقاب . وتحدث هنا أشياء مروعة ، حتى إنني أرتعد مما سأقصه عليك .

إن زيليس ، وهي ذاهبة منذ بضعة أيام إلى الجامع تركت خمارها يقع فظهرت مكشوفة الوجه تقريباً أمام الناس .

ووجدت زاشي نائمة مع إحدى جواريها ، وهذا أمر تمنعه قوانين القصر منعاً باتاً . إني فوجئت بأكبر حادث في الدنيا ، فهذه الرسالة التي أرسلها إليك ، لم أستطع قط أن أعرف إلى من كانت مرسلة .

ووجد غلام في حديقة القصر مساء أمس ، ونجا بتسلق الجدران . هذا إلى مالم يصل إلى علمي من أمور ، لأن القوم يخونونك بكل تأكيد . إني أنتظر أوامرك ، وسأظل في وضع حرج حتى اللحظة السعيدة التي أتلقى فيها هذه الأوامر . وإنك إذا لم تضع جميع هؤلاء النساء تحت رقابتي فلن أكون مسئولا عن أي واحدة منهن ، وسيكون لدى كل يوم أخبار يسوءك أن أفضي بها إليك .

من قصر أصفهان في غرة رجب سنة ١٧١٧ .

الرسالة الثامنة والأربعون بعد المائة

من أوزبك إلى كبير الخصيان بقصر أصفهان

خذ بهذه الرسالة سلطة لا حدود لها على القصر كله ، وقد منحتك سلطتى لتتصرف بها كما أتصرف فيها بنفسى ، فليصحبك الرعب والخوف أنّى سرت ، وَلْتجُب القصر من جناح إلى جناح حاملا معك العقاب والقصاص . وليعش الكل فى ذعر ، وليذوبوا بكاء أمامك . حقق مع كل من بالقصر ، وابدأ بالعبيد ، ولا تستثن نسائى الحبيبات ، وأخضع الجميع بحكمك الرهيب ، وأظهر الخبايا الدفينة ، وطهر هذا المكان الدنس ورد إليه الفضيلة المنبوذة ، وإنى منذ هذه اللحظة سأضع على رأسك أدنى خطأ يرتكب . إنى أتهم زيليس بأن الرسالة التى ضبطتها كانت موجهة إليها . ابحث هذا الأمر بعينى الفهد .

من . . . فى ١١ من ذى الحجة سنة ١٧١٨ .

الرسالة التاسعة والأربعون بعد المائة

من نارسيت إلى أوزبك في باريس

يا سيدى العظيم : إن كبير الخصيان قد مات منذ قليل ، وقد حللت مكانه لأنى أسن عبيدك إلى أن تعرفنى على من تقع عيناك .

وبعد يومين من موته حملت إلى إحدى رسائلك إليه ، فحرصت على ألا أفتحها ووضعتها فى ظرف ، واحتفظت بها إلى أن أعرف إرادتك السلمية .

جاء إلى أحد العبيد أمس فى جوف الليل يخبرنى بأنه وجد شابا فى القصر فنهضت مسرعا ، وحققت الأمر فوجدته وهماً .

إنى أقبل قدميك يا سيدى العظيم ، وأرجوك أن تعتمد على همتى وخبرتى وسنى .

من قصر إصفهان فى ٥ من جمادى الأولى سنة ١٧١٨ .

الرسالة الخمسون بعد المائة

من أوزبك إلى نارسيت فى قصر أصفهان

ما أتعسك ! فى يديك رسائل تحتوى على أوامر سريعة عنيفة ، أقل تأخير فى تنفيذها قد يسبب لى آلاما ، ومع ذلك تظل هادئا متعللا بعلل واهية !

إن أموراً فظيعة تحدث ، وعندى عبيد يستحق نصفهم الموت ؛ وهاأنذا أرسل إليك الرسالة التى كتبها إلى بهذا الشأن الخصى الأسود قبل موته . ولو كنت فتحت مجموعة الرسائل الموجهة إليه ، لرأيت بها أوامر دامية .اقرأها إذن ، اقرأ هذه الأوامر ، وستهلك إذا لم تنفذها .

من . . . فى ٢٥ من شوال سنة ١٧١٨ .

الرسالة الحادية والخمسون بعد المائة

من سليم إلى أوزبك في باريس

إذا لزمت السكون أكثر من ذلك كنت آثماً كسائر المجرمين الذين يضمهم قصرك . لقد كنت أمين سر كبير الخصيان ، أخلص عبيدك . وقد استدعاني عندما أحس دنو أجله ، وأسر إلى بهذه الكلمات : « إني أموت ، والشيء الوحيد الذي يحزنني وأنا أغادر الحياة ، أن آخر نظراتي وقعت على أن نساء سيدي مذنبات ، والله القادر على أن يحفظه من الويلات التي أتوقعها ! وليت شبحي المهدد لهن ، يجيء بعد موتي وينذر هؤلاء الخائنات ، وينبههن على واجباتهن ، ويخوفهن أيضا عاقبة خياناتهن ! هاك مفاتيح هذه الأماكن الرهيبة ، احملها إلى أسن العبيد السود ، وإذا لم تجد منه يقظة تامة بعد موتي فاعمد إلى أن تخبر سيدك » . ولم يكد ينتهي من هذه الكلمات حتى لفظ روحه بين ذراعي .

إني لا أعلم ما كان يكتبه إليك عن سلوك نسائك، قبيل موته . إن بالقصر رسالة لو فتحت لأشاعت الفزع ، تلك التي كتبتها وضبطت على ثلاث فراسخ من هنا . لا أدري ما هذا ! كل شيء يصير إلى أسوأ مما كان . فنساؤك أصبحن لا يحتفظن بأي حياء ، وكأن كل شيء أصبح مصرحا به لهن بعد موت كبير الخصيان . وروكسان وحدها هي التي ظلت تحتفظ باحتشامها ، وترعى واجبها . والأخلاق هنا تفسد على مر الأيام ، ولا يجد المرء في وجوه نسائك هذه الفضيلة المتينة الصارمة التي كانت تغشاها فيما مضى . إن لونا جديداً من السرور يشيع في هذه

الأمكنة ، يقطع فى رأيى بأن هناك لونا جديدا من الرضا ، وفى كثير من الأحيان ألحظ ألوانا من الحرية لم تكن معروفة من قبل . وأرى من عبيدك أيضا تهاوناً يسودهم فى أداء واجبهم ، وفى رعاية النظم المتبعة ، وذلك يثير دهشتى ، ولم يعد لديهم هذا الحماس المتوقد فى خدمتك الذى ألفناه حيًّا فى جميع أرجاء القصر .

إن نساءك ظلوا ثمانية أيام فى الريف ، فى أحد منازلك التى هجرت أكثر من سواها ، ويقال إن العبد الذى عهد إليه بحراستهن قد رشى ، فخبأ فى يوم ما قبل وصولهن رجلين فى مخبأ من الحجارة فى جدار الحجرة الرئيسية ، ومنه كانا يخرجان ليلا عندما ننسحب من المنزل . والخصى العجوز الذى كان يرأسنا فى ذلك الوقت كان غبياً يصدق كل ما يراد إيهامه به .

إننى ثائر غضباً للانتقام من خيانات كثيرة ، وإذا أراد الله لخدمتك خيرا فرأيتنى كفئاً لقيادة القصر ، فإن أقل ما أعدك به أن تكون نساؤك مخلصات إن لم يكن فاضلات .

من قصر إصفهان فى ٦ من ربيع الأول سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثانية والخمسون بعد المائة

من ناريست إلى أوزبك في باريس

إن روكسان وزيليس رغبتا فى الذهاب إلى الريف . ورأيت أنه ينبغى ألا أرفض طلبهما . ما أسعدك يا أوزبك ! لديك نساء مخلصات ، وعبيد يقظون . إنى أهيمن على أماكن يبدو أن الفضيلة اختارتها مأوى لها ليكن فى خلدك أنه لن يحدث فيها شيء لا تستطيع عيناك أن تتحمله .

لقد حدث حادث مشئوم سبب لى ألماً شديداً . ذلك أن بعض التجار الأرمن وصلوا حديثاً إلى إصفهان يحملون إحدى رسائلك إلى ، فأرسلت عبداً لطلبها . فسرق فى عودته فضاعت الرسالة ، فاكتب إلى مسرعا لأنى أتخيل أن لديك فى هذه التغييرات أمورا ذات بال تحب أن تكلفنى إياها .

من قصر فاطمة فى ٦ من ربيع الأول سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثالثة والخمسون بعد المائة
من أوزبك إلى سليم فى قصر أصفهان

إنى أسلمك السلاح، وأعهد إليك بأثمن شيء عندى الآن وهو انتقامى. قم بهذه المهمة الجديدة، ولا تكن ذا قلب ولا رحيما. وإنى أكتب إلى نسائى أن يطعنك طاعة عمياء. وفى خزى ما اقترفن من الجرائم العديدة سيخفن منك خوفاً شديداً، وعليك أن تحقق سعادتى وراحتى، وأن ترد إلى قصرى كما تركته، ولتبدأ بتطهيره: وأهلك المجرمين، ومن يتهيئون للجريمة. وأى جزاء لا تستطيع أن تؤمله من سيدك للخدمات التى يبنها لك أتم بيان؟ إنه لم يحرص على شيء حرصه على أن يرفعك فوق قدرك، ويكافئك مكافآت لم تصبُ إليها نفسك مطلقاً.

من باريس فى ٤ من شعبان سنة ١٧١٩.

الرسالة الرابعة والخمسون بعد المائة
من أوزبك إلى نسائه في قصر أصفهان

لعل هـــذه الرسالة تكون كالصاعقة التى تنزل فى أثناء البروق والعواصف ! إن سُليماً «وكبير خصيانكم لا لحراستكن بل لعقابكن، يجب أن يخضع له جميع من بالقصر. وأن يقضى فيما سلف من أعمالكن، وأما فى المستقبل فسيجعلكن تعشن تحت نير يبلغ من القسوة حداً تأسَيْن فيه على حريتكن إذا لم تأسفن على فضيلتكن.

من باريس فى ٤ من شعبان سنة ١٧١٩.

الرسالة الخامسة والخمسون بعد المائة
من أوزبك إلى نصير في أصفهان

سعيد ذلك الذي يعرف قيمة حياة حلوة هادئة ، فيستريح قلبه بين أسرته ، ولا يعرف أرضاً غير التي وهبته الحياة ! .

إنني أعيش في جو موحش ، أشهد فيه كل ما يزعجني وأغيب عن كل ما يلذ لي، يتملكني حزن قاتم ، وأتردّى في إعياء مروع : ويبدو لي أنني أفنى ، ولا أسترد نفسي إلا عندما تشتعل الغيرة القاتمة، فتولد في نفسي الخوف والشك والحقد والحسرات .

أنت تعرفني يانصير ، فأنت ترى ما في قلبي كما ترى ما في قلبك، سترق لي إذا علمت حالتي المحزنة . أنتظر أحيانا أخبار القصر ستة أشهر كاملة ، وأعد اللحظات التي تمر ، وفقدي الصبر يطيلها دائما علي ، وعندما يقترب وصول ما طال انتظاري إياه ، تحدث في قلبي ثورة فجائية ، وترعد يدي وأنا أفض رسالة مشئومة . وهذا القلق الذي يؤلمني أجده أسعد الحالات التي يمكن أن أجد نفسي بها ، وأخشى أن أخرج منها بضربة أقسى عليّ من الموت ألف مرة .

إن داعيا دعا إلى خروجي من وطني . ومع أني مدين بحياتي للملجئ الذي أويت إليه ، فإني لم أعد أستطيع أن أبقى في هـذا المنفى الموحش . أأموت هكذا نهباً لأحزاني ؟ لقد دفعت ريكا ألف مرة إلى مغادرة هذه الأرض الأجنبية ، لكنه دائماً يعارض قراراتي ويربطني هنا بكثير من

التعللات . ويبدو أنه نسي وطنه ، أو على الأصح يبدو أنه نسيني أنا نفسي مادام لا يعبأ بأحزاني .. ما أتعسني ! أتمنى أن أرى وطني ، أيكون هذا التمني لأكون أشد تعساً ؟ آه : ماذا أفعل في وطني ؟ سأحمل رأسي إلى أعدائي وليس هذا كل شيء بل سأدخل القصر ، وينبغي أن أطلب فيه حسابا عن الوقت المشئوم الذي كنت فيه غائبا عنه ؟ وماذا يكون حالي إذا وجدت فيه مجرمين .

وإذا كانت الفكرة مجردة ترهقني وأنا على هـذا البعد الشاسع ، فماذا عسى أن يكون وما عساه يحدث لو تحتم أن أرى وان أسمع مالا أستطيع أن أتخيله دون رعدة ، إذا قويت هذه الفكرة بحضوري . وأخيراً ماذا يكون إذا تحـــتم أن تكون العقوبات التي أنطق بها دلائل دائمة على اضطرابي ويأسي ؟

سأحبس نفسي بين هذه الجدران الشديدة الرهبة بالنسبة إلى وإلى النساء التي حبسن فيها ، وسأحمل إليها كل شكوكي التي لن تنقص ملاطفاتهن منها شيئاً . وسواء كنت في سريري أو بين أذرعهن فلن أتمتع إلا بقلقي ، وستجد غيرتي مجالا تعمل فيه في وقت لا يصلح للتفكير .

أيتها الحثالة المحرومـــة من شرف الطبيعة الإنسانية ، أيها العبيد الأخساء الذين أغلقت قلوبهم إلى الأبد دون مشاعر الجنس ، لن تودوا تألمون لحالكم إذا عرفتم شقاء حالي .

باريس في ٤ من شعبان سنة ١٧١٩ .

الرسالة السادسة والخمسون بعد المائة
من روكسان إلى أوزبيك في باريس

الرعب ، والظلام،والإرهاب يسود القصر : إن حزنا هائلا يشمله ، ونمراً يتنفس فيه عن هياجه فى كل لحظة : لقد وضع خصيين أبيضين فى العذاب لأنهما لم يقرا إلا بأنهما بريئان . لقد باع عددا من عبيدنا ، واضطرنا إلى أن نتناوب من بقى منهم .

زاشي وزيليس لقيت كلتاهما فى غرفتها فى ظلمة الليل معاملة غير كريمة ، إذا لم يتورع اللئيم أن يضع يديه القذرتين عليهما . إنه يحبس كلا منا فى جناحها: وعلى الرغم من وجودنا منفردات يفرض علينا الحجاب. إنه لا يصرح لنا بتاتا بأن نتحدث معاً ، وعد تبادل الرسائل بيننا جريمة ، ولم يبق لنا من الحرية سوى البكاء .

إن فرقة من الخصيان الجدد قد دخلت القصر ، تحاصرنا ليلا ونهارا . إن نومنا دائما قلق متقطع بسبب شكوكهم المصطنعة أو الحقيقية . وعزائى أن كل ذلك لن يستمر طويلا وستنتهى هذه الآلام بنهاية حياتى ، ولن يطول عمرى أيها القاسى : أوزبك ، ولن أسمح لك بوقت لتنهى جميع هذه الإهانات .

من قصر إصفهان فى ٢ من المحرم سنة ١٧٢٠ .

الرسالة السابعة والخمسون بعد المائة

من راشمي إلى أوزبك في باريس

يا إلهي ! إن متوحشا أهانني حتى في طريقة عقابي . لقد عاقبني عقاباً بدأ بخدش حياتي ، عقاباً ينزل بي إلى أحط دركات الهوان ، عقاباً يردني - كما يقال - إلى سن الطفولة .

إن روحي التي قتلها الخزي ، استردت شعورها بنفسها ، وأخذت تتميز من الغيظ ، وصراخي أخذ يدوي في قباب جناحي . لقد سمعني الناس أرجو الصفح من أقذر إنسان ، وألتمس رحمته كلما ابتعد عن الرحمة .

ومنذ ذلك الحين سيطرت نفسه العاتية الحقيرة على نفسي : إن حضوره ، ونظراته ، وألفاظه كلها مصائب اجتمعت علي . إنني على الأقل أجد عزاء في الدمع إذا خلوت بنفسي ، ولكن إذا مثل أمام عيني تملكني الغيظ ، لكنه غيظ عاجز ، فأقع في اليأس .

إن هذا النمر يجرؤ على أن يقول لي : إنك صاحب هذه الفظائع الوحشية ، يريد أن ينزع حبي ويدنس كل شيء حتى أحاسيس قلبي ، وعندما يلفظ باسم من أحب ، لا أعرف سبيلا إلى الشكوى ولا أستطيع أن أطلب شيئاً غير الموت .

لقد تحملت غيابك ، أو بقيت حبى بسلطان حبى لك . إن الليالى والأيام واللحظات كانت كلها لك . وكنت رائعة بالحب نفسه ، وحبك كان مبعث احترامى فى هذا القصر ، أما الآن لم أعد أحتمل الهوان الذى ترديت فيه . إذا كنت بريئة فعد لحبى ، وإذا كنت مذنبة فعد لأموت تحت قدميك .

من حريم إصفهان فى ٢ من المحرم سنة ١٧٢٠ .

الرسالة الثامنة والخمسون بعد المائة

من زليس إلى أوزبك في باريس

حكمتَ بإداتي وأنت على بعد ألف فرسخ مني ، وعاقبتني وأنت على بعد ألف فرسخ مني ، أيبلغ بي الحال أن يرفع خصيٌّ فظ يديه القذرتين على ؟ إنه يأتمر بأمرك . إن الطاغية هو الذي أهانني لا الذي مارس الطغيان .

تستطيع أن تضاعف معاملاتك السيئة تبعاً لأهوائك ، إن قلبي مطمئن لأنه لم يعد يستطيع حبّك . إن روحك تنحط ، ونفسك تقسو ، وتأكد أنك لن ترى السعادة قط ، وداعا .

من قصر إصفهان في ٢ من المحرم سنة ١٧٢٠ .

الرسالة التاسعة والخمسون بعد المائة

من سليم إلى أوزبك في باريس

إنى أرثى لحالى وحالك أيها السيد العظيم . لم يصل مطلقا خادم وفى إلى يأس مقيت كالذى وصلت إليه . هاهى ذى مصائبك ومصائبى ؛ إنى لا أكتب إليك عنها إلا وأنا مضطرب .

أقسم بكل أنبياء السماء أنى منذ عهدت إلى بناتك وأنا أسهر عليهن ليلا ونهاراً . ولم أتوقف لحظة عن مواصلة اهتمامى بهن : لقد بدأت عملى بالعقاب ، ثم كففت عنه دون أن أخرج عن طبيعتى القاسية .

ولكن ماذا عسى أن أقول ؟ لماذا نفخر هنا بوفاء لم تنتفع به ؟ لتنس جميع خدماتى الماضية ، واعتبرنى خائنا ، وعاقبنى على كل الجرائم التى لم أستطع دفعها .

روكسان . روكسان العظيمة . . . ياإلهى ! . بمن نثق بعد ذلك ؟ كنت تشك فى زاشى وتطمئن إلى روكسان اطمئنانا تاما ، لكن فضيلتها المتطرفة كانت خداعا قاسياً ، وكانت ستاراً لخيانتها ؛ لقد فاجأتها بين ذراعى شاب ما كاد يرى اكتشاف أمره حتى هجم على وطعننى بخنجر مرتين ، فأسرع الخصيان نحو الضوضاء ، وأحاطوا به ، فدافع عن نفسه طويلا ، وجرح كثيراً منهم ، وباح بأنه يريد أن يعود إلى حجرة نومها ليموت بمرآها . واستسلم أخيراً لكثرتنا ، وجثا تحت أقدامنا .

لست أدرى - ياسيدى العظيم ، هل أنتظر أوامرك الصارمة . ولكنك وضعت فى يدى أن أنتقم لك ولا ينبغى أن أفتر فيه .

من قصر إصفهان فى ٨ من ربيع الأول سنة ١٧٢٠ .

الرسالة الستون بعد المائة

من سليم إلى أوزبك في باريس

إني حددت موقفي ، ستنتهى آلامك ، وسأعاقب .. إني شعرت الآن بسعادة خفية سوف تهدأ نفسي ونفسك ، سنمحو الجريمة وستذبل البراءة .

عجباً لكن أيتها الضحايا الأبدية للخجل والحياء . كأنكن لم تخلقن إلا لتجهلن جميعاً أحاسيسكن ، ورغباتكن نفسها . وددت لو حشرتكن جميعاً في غمار القصر المشئوم ، لترين مذعورات ما أريقه فيه من دماء !

من قصر إصفهان في ٨ من ربيع الأول سنة ١٧٢٠ .

الرسالة الحادية والستون بعد المائة

من روكسان إلى أوزبك في باريس

نعم ، لقد خدعتك ، وأغريت خصيانك ، وسخرت من غيرتك ، وعرفت كيف أجعل من حرمك المقيت مجالا للملاذ والمتع .

سأموت ، ويجرى السمّ فى عروقى ، لأنى ماذا أفعل هنا، مادام الرجل الوحيد الذى يستبقينى لم يعد معى ؟ إنى أموت ولكن روحى ستطير فى صحبة طيبة : لقد انتهيت من إزهاق هؤلاء الحراس الدنسين الذين أراقوا أذكى دما فى الدنيا .

كيف فكرتَ فى أن أكونَ ساذجة لأتصور أنى لم أكن فى الدنيا إلا لكى أرضى نزواتك ، وتعطى نفسك كل شىء فى الوقت الذى ترى فيه من حقك أن تكبت كل لذاتى ؟ لا . لست ساذجة لقد استطعت أن أعيش حرة وأنا فى أسر العبودية ؛ لقد واءمت بين قوانينك وقوانين الطبيعة ، وعاشت روحى مستقلة دائما .

كان ينبغى لك أن تصفح عنى بمقدار ما ضحيت من أجلك ، لأنى انحدرت حتى أظهر وفية لك ، ولأنى احتفظت فى قلبى بجبن ما كان ينبغى أن أظهره للناس جميعا ، وأخيرا لأننى دنست الفضيلة إذ سمحت بأن يسمى خضوعى لأهوائك فضيلة .

لقد عجبتَ لأنك لم تعدْ تجد عندى لواعج الهوى ، ولو عرفتنى حق المعرفة لوجدت عندى أعنف الحقد .

لقد تمتعتَ زمنا طويلا باعتقادك أن قلبا كقلبي كان يخضع لك ، وكنا سعيدين إذ كنت تظن أنك تخدعني ، والواقع أنني كنت أخدعك .

هذه لهجة تبدو لك جديدة بلا شك ، ولكن هل من الممكن بعد أن كبدتك الآلام أن أجبرك فوق ذلك بأن تُعجَب لشجاعتي ؟ ولكن كل شيء قد حدث ، والسم قد سرى في أعضائي وقوّتي تزايلني ، والقلم يقع من يدي ، وأشعر بضعفي ، وضعف حقدي . إنني أموت .

من قصر أصفهان في ٨ من ربيع الأول سنة ١٧٢٠ .

مطبعة اطلس
imprimerie atlas
LE CAIRE: 11-13 RUE SOUK EL TEWFIKIEH, R.C. 100731, TEL: 747797
القاهرة : ١١-١٣ شارع سوق التوفيقية س.ت ١٠٠٧٣١ ت ٧٤٧٧٩٧

هذا الكتاب

يعد مونتسكيو من أبرز فلاسفة عصر التنوير فى فرنسا . فقد أسهم مع غيره من فلاسفة هذا العصر ، أمثال فولتير وروسو ، فى إحداث ثورة عقلية وفكرية وأدبية وفنية ، تجسدت فى أول دائرة معارف عرفتها فرنسا ، وهى التى أسهم مونتسكيو فى كتابتها .

ويعد كتاب رسائل فارسية من أهم كتاباته ، إذ جمع أهم العناصر التى تميز بها القرن الثامن عشر فى فرنسا . فهو ينقد المجتمع الفرنسى فى هذا العصر نقدا لاذعا ، يستوى فى ذلك نقده للحكومة والسياسة والدين ، أو لعادات المجتمع نفسه من نفاق وتفاهة وتناقض واحتقار لكل ما هو أجنبى . وعلى المستوى الفنى ، تناول النقد الجدل الأدبى السفسطائى والتسرع فى الحكم على الأشياء والسخرية من الشعراء والأدباء المدّعين . ويتجسد هذا النقد اللاذع عبر أسلوب مونتسكيو الساخر ولجوئه للتهكم الذى تشوبه المرارة أحيانا . وقد كان هذا الأسلوب الساخر من أهم أسلحة مونتسكيو للتعبير عن آرائه وتحقيق فلسفته .

كما نجد فى هذا الكتاب دراسة عميقة للسياسة وفلسفة التاريخ ، وهى دراسات كانت تعد جديدة فى فرنسا فى تلك الفترة .

ولم يكن لجوء مونتسكيو للإطار الفارسى مجرد إسقاط للنيل من حكم لويس الرابع عشر الشمولى وستارا لنقد المجتمع الفرنسى فى ذلك الوقت ، بل أراد أيضاً أن ينفتح على عوالم ومجتمعات أخرى غير أوروبية كنوع من الإعتراف بالآخر واحترامه والاستفادة منه ، والتأكيد أن الحضارة الأوروبية بصفة عامة والفرنسية بصفة خاصة ليست هى النموذج الأمثل الذى يستوجب التعالى على الآخريين .

لذلك يعد كتاب رسائل فارسية لمونتسيكو من إهم معالم القرن الثامن عشر فى فرنسا .

دار سعـــاد الصبـــاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفـاة ١٣١٣٣ ـ الكويـت
ص. ب : ١٣ المقطم ـ القاهرة